النثر الأدبى الحديث

دراسة موضوعية وفنية

الأستاذ الدكتور
طلعت صبح السيد

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

المقـــدمة

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــــم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه وبعد :

فهـــذه هـــى الدراســـة التى أعددناها حول (النثر الأدبى الحديث) وتدور حول : " فن الخطابة " و " فـــن المقـــالة " و " فـــن القصـــة " و " فـــن الرواية " و " فن المسرحية " و " فن التـــراجم " و " فن التعريـــف بالكتب " .

وقـــد استقصـــينا بواكيـــر كـــل من هذه الفنون ، ونشأتها وتطـــورها ، وأنـــواعها ، وخصائصها الفنية ، وما كان لكل منها من تأثير أو تأثر ، ثم حاولنا أن نضع تصورا لمستقبل كل فن من هذه الفنون على حسب ما كان له من ماضٍ وما له من حاضر .

كمـــا حاولـــنـــا أن نفصـــل القـــول حول تحليـــل بعض النصـــوص ، والوقوف على كل صغيرة وكبيرة فيها على ضوء العـــوامل السابقة التى تضمنتها الدراسة وذلك لنبين التيارات التى تنازعت ذلك الفن ، وما حدث فيه من تأثر إما بأدبنا العربى القديم أو بـــالآداب الأوربـــية وعلى وجه الخصوص فى عصر نهضتنا الحاضرة التىساير فيها أدبنا العربى الآداب العالميـــة ... وهذا

بلا شك جانب له أهميته فى الكشف عن نواحى الأصالة فى أدبنا العربـــى من ناحيـــة ، ثم فى الكشف من ناحية أخرى عن طبيعة التجديد واتجاهاته فيـــه.

وبيـــنا كذلك أن فنى " القصة والرواية " لم يفلت كل منهما مـــن التأثر بشكل أو بآخر فى العصر الحديث بالألوان الأدبية فى الآداب الأوربـــية . فهـــنـــاك تأثـــــر بتطور القصة فى الآداب الأوربية ، وهناك تأثر بالأساليب الأدبية فى هذه الآداب ، وهناك تأثـــر بالـــثقافة الغـــربية مـــن حيث الفكـــرة والغرض والخيال والصـــورة ، وغيـــر هـــذا وذاك مما يحتاج إلى دراسات واسعة ومســـهبة تتـــناول هذه الأنماط المختلفة من الكتّاب وتلك الألوان المتبايـــنة من النثر العربى لكى نتمكن من إصدار أحكام مدعومة بالأدلة والبراهين والنماذج .

كمـــا بيّـــنا أن كـــتّاب العربية قد تباينوا فى تناولهم للقصة بأنواعها المختلفة ، فمنهم من غلبت عليه ألوان الثقافة الغربية فى موضـــوعه وأسلوبه وخياله وطريقة عرضه ، لدرجة أنك تقرأ له وكأنك تقرأ لأديب إنجليزى أو فرنسى يكتب بالعربية .

ومـــنهم مـــن ظهـــر فى كتاباته الجمع بين القديم والجديد وهـــؤلاء — نتـــيجة لعـــوامل اجتماعية خاصة ، ونتيجة لثقافتهم وبيئتهم — نراهم يقتصرون على القديم فيحذقون وضوح الغرض

وطـــلاوة العبارة ومتانة الأسلوب ، وإن لم ينجوا جميعا من التأثر بالألوان الأدبية المترجمة فى الصحف والمجلات ودور العلم .

أمـــا عن فن المسرحية فلكى نتبين التيارات التى تنازعته قمنا بدراسة تحليلية ونقدية لبعض المسرحيات التى بدورها كشفت عن الأصول الأولى لهذا الفن ونشأته وتطور أنواعه ، كما كشفت عن طبيعة التجديد واتجاهاته فيـــه .

ومـــا يخص فنى " التراجم ، والتعريف بالكتب " فقد ذكرنا أن كـــلا مـــنهما حديث العهد فى الدراسات الأدبية ، وأنهما دخلا أدبـــنا العربـــى بعد أن حدث اتصـــال بيننـــا وبيـــن فنون الأدب الأوربى ، وبعد أن بدأت تظهر عندنا كافة ألوان الكتابة النثرية .

وبعد فإننا لنرجو أن نكون قد وفّقنا الله سبحانه وتعالى فيما إليه قصدنا ، والله من وراء القصد ، وهو نعم النصيــر .

الأستاذ **الدكتـــور**

طلعت صبح الســـيد

رمضان ١٤٢٦ هـــ

المنصـــــورة : ـــــــــــــــــــ

أكتـــــوبر ٢٠٠٥ م

الفصل الأول

فن الخطابة

نشأتها وتطورهـــا

الخطابـــة لون من الألوان النثرية ، وهى الكلام الذى يلقى فى جمهور الناس للإقناع والتأثير[١] ، ويراد بهذا الكلام الترغيب فـــيما ينفع والترهيب مما يضر ، وتكون على ملأ من الناس فى المجامـــع والمواســـم والمناســـبات ، كما تكون بقصد الحث على الدخول فى الحروب أو السلام أو الخصومات بأنواعها .

وقـــد ازدهـــرت الخطابة فى العصر الجاهلى ، فهو ثانى عصـــرين ازدهرت فيهما الخطابة [٢] ، وكان ذلك نتيجة طبيعية للحـــياة الجاهلـــية ، حـــياة الحرية والفروسية ، وقد دعا العرب للخطـــابـــة مـــا دعـــا غيرهم من الفخر بالأحساب ، والذود عن الشـــرف ، وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين ، والسفارة بين القـــبائل ، وما إلى ذلك . ولهذا كان العرب ــ ممن أوتوا طلاقة بديهـــية وذلاقـــة لسان ونصاعة بيان ــ يحرصون على أن يكون لكـــل قبـــيلة خطـــيب يرفع من شأنها ويعلى من ذكرها ، ويذود

---

[١] الأسلوب ، أحمد الشايب ، ص ١٦ . مطبعة السعادة ، الطبعة السابعة ١٢٩٦هـ ١٩٧١م

[٢] يشاركه فى ذلك العصر الأموى .

وينافح فى الشدائد عنها ، ومن ثم كانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة . وكان العرب فى الجاهلية يفضلون فى الخطيب أن يكون حسن الإشارة ، جهير الصوت ، سليم المنطق ، ثبت الجنان [١] .

ومـن أشـهر خطـباء العصر الجاهلى " قس بن ساعدة الإيـادى " (المتوفـى عـام ٦٠٠ م) وكان يؤمن بالله واليـوم الآخر ،كما كان يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقال إنه أول مـن خطب على شرف ، واتكأ على سيف ، وقال فى خطبه : " أمـا بعـد " . وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم فى عكاظ فأثنى عليه [٢] .

وتأخـذ الخطابـة فى الازدهار والترقى فى عصر صدر الإسـلام نتيجة للعوامل المتعددة التى لايمكن أن تخفى على أحد والتـى كـان على رأسها أنها قامت بعبء تبليغ الرسالة وشرح مـبادئ الإسلام ، وجعل الإسلام الخطبة فرضا فى صلاة الجمعة هـذا فضـلا عن ظهور عدد كبير من الخطباء ذوى اللسن الذين أثـروا اللغـة العـربية بخطـبهم ومـا أثر عنهم من كلام بليغ ومحاورات مقنعة وحكم قاطعة وأمثال ثائرة [٣].

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، الزيات ص ٢٠ ، الطبعة الخامسة والعشرون .
(٢) انظر المصدر السابق الصفحة نفسها .
(٣) انظر : الخطابة وإعداد الخطيب ، د / عبد الجليل شلبى : ٢ / ١٩ وما بعدها .

حتـــى إذا كـــان العصر الأموى وجدنا الخطابة قد صارت أداة للـــدين و السياسـة و الحكــم ، وأصبحت ضرورية كضرورة الطعـــام والشراب ، ولعل ذلك راجع إلى الجدل الذى نشأ بسبب الإمامـــة ، والذى اتسع به أفق العربى بالاحتجاج والاستنتاج ، إذ كـــان اعتماده فيما يعتمد على إلقاء الخطب ، وكان لكل حزب من الأحـــزاب المتصـــارعة عدد من الخطباء ، ومن يقرأ " الكامل " للمبرد ، أو " العقد الفريد " لابن عبد ربه ، أو " تاريخ الطبرى " يـــرى أثـــر الخصومة فى إثارة الجدل ومن ثم فى حرصهم على الخطابة واستعدادهم لها .

وهكـــذا كـــان للخطـــابة مكـــانة مرموقة فى عصـــر بنى أمـــية ، وكـــان للخلفـــاء دور رفيع فى رفع شأنــــها ورواجها وســـبب ذلك يعود إلى أن دواعى كثيـــرة للخطابة كانت متوفرة : الحـــريـــة مكفولة ، واللغة حيـــة سليمة ، والطبيـــعة موفـــورة للمتكلمــــين ، وظـــروف السياسة العامة تدعو إلى كثرة الخطب وتثيـــر الحمـــاس فى نفوس الخطباء ، والأحزاب المتنافسة تعتمد علـــى الخطـــبة قبل كل شيء . حتى إذا كان عصر بنى العباس ضـــعفت الخطابـــة لقلـــة الدواعـــى إلـــيها ، وأخـــذت الرسائل والمنشورات تحل محلها ، وأصبحت الخطب تقتصر على ما هو ضرورى منها وهو خطب الجمع والعيدين ، وينبغى أن نشير هنا

إلــى أن مــن نبغ فى هذا العصر فى فن الخطابة كان يعمد إلى استظهار خطب الأسلاف ويرددها من غير علم بمغزاها ولا فهم لمعناها .

الخطابة فى العصر الحديث

وهكذا ظل حال الخطابة على ما هو عليه من ضعف حتى أدركــتها عــوامل النهضـــة الحديثة ، فقد سادت الحرية فى حياة الأفراد والشعوب ، ونشأت النظم الدستورية ، وظهرت المناظرة فـــى المسائل العلمية والاجتماعية ، ونشأت الأحزاب السياسية ، وظهــرت حــركات الإصلاح الدينى ... وكانت هذه وتلك دافعا للخطــباء أن يعــيدوا إلى الخطابة عصور ازدهارها ، ولذلك لما قامــت الثورة العرابية كانت الخطابة السياسية سلاحا من أسلحتها علــى ألســنة زعمائها ، ثم كانت خطبة الجمعة التى مرن عليها كثير من الوعاظ ، وأخذت الخطابة تترقى من حين إلى آخر إلى أن بلغــت أوج ازدهارهــا على أيدى زعيمى مصر " مصطفى كامل " و" سعد زغلول " .

أنواع الخطـــابة

والــذى لاشـــك فيه أن الخطــابة لم يكــن لهــا ميدان محــدد ، وإنمـــا تنوعت إلى أنواع عدة حسب تناول الموضوع ، ومــن هنا ظهرت الخطبة السياسية ، والخطبة الدينية ، والخطبة

الاجتماعـــية ، والخطبة القضائية ، وغير ذلك من الخطب العلمية والأدبـــية التـــى صـــارت تلقى على صورة محاضرات ، ويلحق بالخطابة المناظرات والأجوبة ، وما إلى ذلك .

الخطبة السياســـية

وهـــذه الخطـــبة كانت تتعلق بالقضايا السياسية التى تمس العـــالم العربى الذى كان فى مطلع العصر الحديث يموج بأحداث سياســـية كبـــرى ، وقـــد وجدت هذه الأحداث استجابة قوية عند الخطباء ، بحيث يستطيع من يؤرخ لأى بلد من البلدان العربية أن يجـــد صـــدى هذه الأحداث فى خطب الخطباء ، أو أن يجد طرفا منها .

فالمحـــتل الأجنبى ، وإعلانه الحماية ، وما قام به من فتن ودســـائس أدت إلى مصادمات بينه وبين الشعوب ، ثم الثورات ، فالصـــراع الذى كان بين الأحزاب ، ثم ظهور الدعوة إلى القومية العـــربية ... كل هذا وغيره كان له أبرز الأثر فى غنى الخطابة وثرائها فى هذه الفترة .

ومـــن الخطباء السياسيين الأفذاذ فى العصر الحديث " عبد الله النديم " و " مصطفى كامل " و " سعد زغلول " . يقول الزعيم مصـــطفى كامل من خطبة ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠١ م : " بلادى بلادى لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى

، لــك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت الحــياة ، ولا حــياة إلا بك يامصر ، يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنــى متهور فى حبها ، وهل يستطيع مصرى ألا يتهور فــى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها [١] .

الخطبــة الدينــية

لــم تلق الخطبة الدينية فى العصر الحديث ما نالته الخطبة السياســية ، ومع ذلك فقد طرأ عليها تغير واسع من حيث طولها ومن حيث الأفكار التى تحويها .

والحقــيقة أنــه كان لحركات الإصلاح الدينى فى العصر الحديث أثر فى الخطباء ، لقد دفعتهم إلى أن يعودوا بالخطابة إلى عصور ازدهارها الأولى ، فتنوعت من ثم موضوعاتها ، ولم تعد تقتصــر على خطب الجمع والأعياد ، بل دخلت المحافل الدينية ، ودخلــت كــذلك الجمعيات الدينية ، وتنوعت موضوعاتها لتشمل شئون السياسة والاقتصاد والمجتمع من وجهة نظر الدين .

وقــد تكون موضوعات الخطبة الدينية حول ما يستجد من أحــداث فى العالم الإسلامى ، كالوقوف أمام الدعاوى المغرضة التــى يبثها المستشرقون أعداء الإسلام ، هذا إلى جانب تصحيح

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، الزيات ص ٤٨٤ .

بعــض المفاهــيم الإسلامية ، وحث العالم الإسلامى على التمسك بــآداب الإســلام ... ومع كل هذا وذاك فإن الخطب الدينية التى ســادت هذه الفترة إنما تدل فى موضوعاتها وفنيتها على مسايرة قضايا العصر .

الخطبــة الاجتماعيــة

وتتــناول الخطــبة الاجتماعية دعوات إصلاحية جهر بها الخطباء ليواكبوا المشكلات التى ظهرت فى العصر الحديث نتيجة للتطور السريع ولنمو الوعى الاجتماعى ، ومن هذه المشكلات : الجهل والفقر والمرض وقضية البائسين ، وقضية المرأة وتثقيفها وموضــوع النهضــة العمالية والنهضة التعاونية ، والنهضة فى المجال الاقتصادى ، ورفع مستوى المعيشة بين العمال والفلاحين وسائر الطبقات .

كذلك ظهرت الخطبة الاجتماعية فى المناسبات الاجتماعية وفــى المواقــف التــى أخذت صفة العادات والتقاليد ، كحفلات الــزواج والحفــلات العامة ، وقد حرص الخطباء بصفة عامة على أن يكون أسلوبهم أسلوبا مرسلا لا تكلف فيه ، كما حرصوا على أن تكون الأفكار واضحة متسلسلة لا غموض فيها ولا تعقيد ولا إغــراب ، كما أنهم مزجوا الأسلوب بآيات من القرآن الكريم وبأبيات شعرية فى الحكم والأمثال .

المحاضـــــرات

والمحاضـــرات نوع من الخطابة ، وقد وجدت سبيلها إلى ذلـــك فـــى قاعـــات المحاضـــرات الجامعية وغير الجامعية وفى الـــنوادى الثقافـــية والأدبية ، والذين يقومون بعبء هذا اللون من الخطـــب هـــم قـــادة الفكـــر من أعلام الأدب والثقافة ، وخطب المحاضرات تميل بصفة عامة إلى الأسلوب العلمى .

المقومات الفنيـــــة

وحـــين نســـتعرض المقومات الفنية لفن الخطابة علينا أن نقول إن الخطبة كالمـــقالة من الناحية الفنية ، لها عناصر ثلاثة : (المقدمة ، والعرض ، والختام) .

والمقدمـــة مهمتها تهيئة نفوس السامعين ، ويكون الخطيب أحـــوج ما يكون إلى مقدمة قوية مؤثرة وبخاصة إذا كان المتلقى يعـــتقد غير ما سيطرحه الخطيب من أفكار ، كذلك لابد أن تكون المقدمـــة ذات صلة قوية ووثيقة بالموضوع المطروح ، ولا بد أن تكون موجزة وجذابة .

أما موضوع الخطبة وهو العنصر الأساس فيها فإنه ينبغى أن يكـــون مليئا بالحجج والبراهين التى تؤيد وجهة نظر الخطيب فى قضية من القضايا أو موضوع من الموضوعات أو مسألة من

المسائل ، ولابد أن يكون الخطيب قوى الإقناع والتأثير ، كل ذلك مـــع مراعاة البيان الرائع واللهجة الرائعة القوية ، والحجة الدافعة والبديهة الحاضرة ، والمنطق الرائق ، والفكرة الصادقة والعرض النبيل .

والخاتمـــة ينبغـــى أن تكون موجزة ، وفيها يؤكد الخطيب علـــى كـــل مـــا سبق أن قرره ، ولأنها الثمرة المرجوة والغاية المنتظـــرة من العملية الخطابية ينبغى إذن أن تكون نتيجة طبيعية للمقدمـــة والعرض ، وأن يخرج المستمع بعدها على اقتناع ويقين كاملين .

وأمـــا أســـلوب الخطبة فإنه فى الحقيقة يمثل خطة فى حد ذاتـــه ، وأهـــم ما يعنينا هنا هو أن يكون الأسلوب واضحا يرمى بشكل أو بآخر إلى الإقناع والتأثير ، وينبغى أن يستخدم الخطيب لغـــة الفكـــر إذا كان ذلك أجدى ، أو يستخدم لغة الوجدان وإثارة العواطـــف إذا كـــان هذا أجدى من سابقه .. إن فى هذا الاختيار ودقته تأثيرا خطابيا على المتلقى لا يمكن حصره .

وهنا يمكننا أن نقول إننا نتوقع من الخطيب ــ كل خطيب ــــ أن تـــتجمع لديه كل أو معظم العوامل التى لها أثر فى رقى الخطابـــة ، ومـــنها ذلاقة اللسان ، وحسن الإلقاء ، ومراعاة حال المســـتمعين ، فيـــرتفع فى مستواه إذا كانوا من الخاصة ، ويكون

أسلوبه بسيطا مفهوما إذا كانوا من العامة ، وعليه كذلك أن يعنى بالانتقال من نقطة إلى أخرى . وأن يستخدم البراهين والقصص إذا دعته الضرورة لذلك ، وعليه أيضا أن يخلو كلامه من الإغراب والتعقيد ، وأن يستخدم الأسلوب استخداما يمثل الانفعالات اللازمة للخطابة ، ثم بعد ذلك لابد وأن يظهر على الخطيب وعلى قسمات وجهه خاصة مدى صدق تيقنه من الفكرة التى يدعو إليها و يأخذ يقنع الناس بها .

تطوير وتجديد الخطاب

ولعل من نافلة القول هنا أن نؤكد أن عملية تطوير أو تجديد الخطاب — وعلى وجه الخصوص الدينى منه — تعد عملية ضرورية وينبغى أن تكون دائمة وبصفة مستمرة وليست وقتية أو موسمية ، وسبب ذلك فيما نرى أن الحياة فى جميع مناحيها متجددة باستمرار ، ثم إن كل المتغيرات من حولنا لا تكف عن الحركة .

ومن ناحية الخطاب الدينى ينبغى أن يكون مواكبا لظروف كل عصر ، ولما يدور فيه من متغيرات ، ويتحقق ذلك بالتجديد المستمر فى مضمونه وفى أسلوبه حتى يستطيع أن يصل بالرسالة التى يريد توجيهها للناس إلى عقولهم وقلوبهم ، أما إذا حدث

وانفصـــل الخطاب الدينى عن واقع الحياة وعن متطلبات العصر ومتغيـــراته فإن النتيجة أنه لن يجد من يلتفت إليه أو يعيره أدنى اهتمام .

من خطباء العصر الحديث مصطفى كامل

(١٨٧٤ ـــ ١٩٠٨م)

ولـــد الزعيم مصطفى كامل بالقاهرة عام ١٨٧٤م فى بيت مـــن بـــيوت العز والكرم ، وتلقى تعليمه فى مدارس مصر ، ثم الـــتحق بمدرســـة الحقـــوق ، وبينما هو طالب كان مشهورا بين زملائـــه بقدرتـــه على الكتابة وبراعته فى فن الخطابة ، وقد نال تأيـــيدا من زملائه طلاب المدارس العليا ، الأمر الذى جعله يبادر بنشر عدد لا بأس به من مقالاته السياسية فى صحيفتى " المؤيد " و " الأهـــرام " ، كمـــا كان لقوة شخصيته أثر فى إصداره مجلة أدبية تسمى " مجلة المدارس " .

وقـــد نـــال إجازة الحقوق وهو فى سن صغيرة ، ولم يشأ بعـــدها أن يعمل فى أى عمل حكومى ، ولكنه آثر التفرغ لقضايا مصر السياسية والوطنية ، وكانت الصحف ميدانا واسعا لدعواته من اجل مصر وخدمة قضاياها ، ثم إنه سافر إلى كل من إنجلترا وفرنسا وذلك بقصد عرض قضية مصر فى الصحف ، والتحدث أمام الشعب الفرنسى والشعب الإنجليزى ، وأنشأ بعد ذلك جريدة

" اللـــواء " وأخذ يدافع فيها عن حقوق مصر ، ولم يلبث أن ألف الحـــزب الوطنى ، وأخذ يواصل جهاده إلى أن وافته المنية وهو فى ريعان شبابه .

وقـــد نـــدد بالمحـــتل الأجنبى ، وأخذ يكشف عن جرائمه ومســـاوئه ، وطالبه بالجلاء عن مصر ، وكان صوته أول صوت مصرى يرتفع عاليا مطالبا بالجلاء والاستقلال ، وظل يكافح دون ملل إلى أن رثاه الخطباء والشعراء (١) .

وأســـلوب مصـــطفى كامل فى الخطابة أسلوب مرسل لا تكلـــف فـــيه ولا صـــنعة ، وذلك راجع إلى أنه راض نفسه منذ الصـــغر على الأسلوب الأدبى المؤثر ، وكان يتصرف فى فنون القـــول تصرف الشاعر البارع ، فأسلوبه رقيق لا تداخل فيه ولا تعقيد ، ولم لا يكون كذلك وهو رجل قوى الروح ، صادق الفكرة نبيل الغرض ، وكانت الخطابة له أمضى سلاح فى جهاده وأقوى معين فى إيقاظ بلاده .

(١) انظر : الاتجاهات الأدبية ، أنيس المقدسى ص ١٥٩ .

الفصل الثاني

فن المقالة

مفهوم المقالة :

لا بد ونحن نستعرض هذا الموضوع أن نتبين المراد من كلمة " المقالة " فى اللغة ، وأن نشير إلى أصل الكلمة فى كلام العرب .

وهناك تعريف معجمى للكلمة ، يتناول موضوع المقالة ووسيلة نشرها فقط ، وهناك تعريف آخر يتناول أسلوب المقالة وموضوعه ، وطريقة عرضه ، والهدف منه .

والحقيقة أن الكلمة تعود إلى مادة " قال " ومن مصادرها : مقالة ، ومقالا . وأطيب ما يستهل به القول فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

(ومن أصدق من الله قيلا) (١) .

وقوله تعالى :

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين) (٢) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٢ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .

وقد وردت تعريفات كثيرة لمعنى القول عند اللغويين يقول صاحب القاموس المحيط [١] :

" القــول الكلام ، أو كل لفظ مذل به اللسان تاما أو ناقصا ج أقــول جج أقاويل ، أو القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فــى الشر ، أو القول مصدر ، والقيل والقال اسمان له ، أو قال قولا ، وقيلا ، وقولة ، ومقالة ، ومقالا " .

وجــــاء فــــى لســــان العرب : (قال يقول قولا وقيلا وقولة ومقالا ومقالة) [٢].

وورد فى مختار الصحاح : (قال يقول قولا وقولة ومقالا ومقالــة . ويقال : كثر القيل والقال ، وفى الحديث " نهى عن قيل وقال " وهما اسمان)[٣].

وفى المنجد : (يقول قولا وقيلا ومقالة : تلفظ " تكلم "... والمقــــال : مصــــدر القــول ، والمقالة : القول " القطعة من الكتاب " [٤] .

---

(١) الجزء الرابع ص ٤٢ . دار الجيل .

(٢) لسان العرب : (قول) .

(٣) الرازى ، مختار الصحاح ص ٥٥٦ . دار الفكر طبعة ١٣٩٨ هـ .

(٤) المنجد ص ٦٦٣ – مادة (قول) .

وقــد وردت كلمة (المقالة) أو (المقال) فى شعر كثير مـــن شعراء العرب ، وانظر إن شئت أشعار النابغة الذبيانى فى الاعتذار، أو أشعار شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابــت ، أو أشعار الحطيئة التى يخاطب فيها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

وعلى هذا فالكلمة شائعة الاستعمال فى القديم وفى الحديث كما شاعت فى الأدب العربى شعرا كان أم نثرا ، يضاف إلى ذلك أنها دخلت كثيرا من التعبيرات التى نستخدمها ونسمعها كل وقت وكــل حين ، فيقال مثلا : (مقـــالة صـــدق) و (مقالة حق) ، و(مقالـــة خير) ، و (مقالة شر) ، و (مقالة سوء) ، و (لكل مقـــام مقال) ، وغير هذا وذاك من المصطلحات والتعبيرات التى شاعت على ألسنة الخاصة والعامة على السواء .

وقــد وردت تعــريفات متعددة لكلمة (المقالة) ، وجاءت جمـــيعها تـــتفق ووجهة نظر الأدباء والنقاد من جهة ، وتتفق من جهة أخرى مع تطور هذا الفن ، واختلاف المذاهب فى النظر إلى ميادينه، ومناحى التجديد فيه .

وأيـــا ما كان الأمر فنحن لا نستطيع أن نستعرض كل تلك الآراء التـــى دارت حـــول تحديـــد مفهـــوم المقالة ، وما لها من

مـــيادين ، وبخاصة أن كثيرا مـــن هـــذه التعريفات إنما هى عالة على ما ارتآه أدباء الغرب ونقاده [١] .

جذورهـــا :

والمقالـــة لا بـــد أن تكون فى أسلوب جزل رصين ، حتى تصـــيب بألفاظهـــا وأسلوبها مواقع الشعور عند المتلقين ، ولا بد كذلك أن يكون لصاحبها بصيرة نافذة تجعله ينتخب ألفاظه ويختار معانيه ؛ ولعله لهذه الأمور قال الدكتور / زكى نجيب محمود فى كـــتابه (فـــنون الأدب) عـــن المقال : " إنه فى صميمه قصيدة وجدانية سيقت شعرا " .

والحق أنه لم يعرف الأدب العربى القديم المقالة بالصورة الفنـــية التى نعرفها بها فى وقتنا الحاضر ، وإنما كان عندهم فن نثرى كانوا يسمونه (الرسائل) التى تتناول موضوعا بالبحث فى أســـلوب عربـــى أصيل ، كتلك التـــى كان يكتبها الجاحظ ، وأبو حـــيان التوحـــيدى ، وغيرهما ، وكانوا يتناولون فيها نظرات فى معتقدات ومذاهب مختلفة ، أو مشاهدات عامة ، أو قضايا فكرية أو اجتماعـــية ، وقـــد يتخطى هذا إلى ما يتصل بالحياة من أمور الخير أو الشر .

---

(١) انظر ما قاله فى هذا الشأن العقاد ، وغيره من الكتاب .

أمـــا فـــى العصـــر الحـــديث فقد نشـــأ المقال مرتبطا مع الصـــحافة ، واســـتمد منها حياته ووجوده ، وتلونت موضوعاته بحسب الاتجاهات التى كانت تسود الصحافة العربية .

يؤيد ذلك الدكتور / عز الدين إسماعيل فيقول :

" كلمـــة المقالة من حيث دلالتها الفنية تعد محدثة فى أدبنا العربى . والحق إن تـــاريخ المقالة عندنا يرتبط بتاريخ الصحافة وهـــو تاريخ يرجع بنـــا إلى الوراء أكثر مـــن قرن ونصف قرن بكثيـــر . وبذلك يكون المقال قد دخل فـــى حياتنا الأدبية بعـــد أن أخذ فى الآداب الأوربية وضعه الحديث " [١] .

ونســـتطيع أن نخلـــص مـــن اضـــطراب أقوال الدرسين واخـــتلافهم إلـــى أن المقـــال يطلـــق فـــى عصرنا الحديث على الموضـــوع المكـــتوب بأســـلوب أدبـــى ، ويوضح فكـــرة مـــن الأفكـــــار ، أو مسألة من المسائل ، يشرحها الكاتب ، ويشفعها بالأدلـــة والبـــراهين ، ويعرضها فى الصورة الملائمة التى تتفق ورأيـــه ومذهـــبه ، حتى إذا استوفت حقها ختمها الكاتب بالخاتمة المناسبة .

---

(١) الأدب وفنونه ص ٢٨٨ .

والمقالـــة الأدبـــية منهـــا مـــا يخدم القضــــايا الفكـــرية والاتجاهات الأدبية ، وقضايا الأدب فى القديم وفى الجديد ، ومنها ما يتخطى كل ذلك إلى تصوير أمور الحياة بحلوها ومرها ، وهذا هو الفارق بين المقالة والرسالة.

ويمكـــن أن يضـــاف إلـــــى ذلـــك أن المقالة يخاطب بها الخاصــــة والعامة ، أما الرسالة فلا يخاطب بها إلا الخاصة [١] . وقد تطول الرسالة فتصل إلى عشرات الصفحات .

والمقالـــة وثـــيقة الصلة بالبحث [٢] ، وإن اختلفت عنه فى أوصافها واتجاهاتها ، ومـــا تتصف به من طول وقصر ، ومـــا تتناوله من موضوعات .

إن المقالة كالبحث ، تتناول كافة الموضوعات والأغراض وتتعـــرض لمختلف المشاكل ، إنها تنحو منحى اجتماعيا ، فتهدف إلـــى تحريـــر الشـــعوب المغلوبة على أمرها ، وتدعو إلى علاج المفاســـد الاجتماعية ، والأمراض الخلقية ، كما تدعو إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقى ، ورفض التواكل والكسل والتخلف .

---

(١) انظر : الأدب الحجازى الحديث ، د / الفوزان ٢ / ٥٩٧ ط ١ .
(٢) انظر : فن البحث والمقال ، د / الخضراوى ص ١٢ ، ١٣ .

وقـــد تتـــناول المقالة ميدان السياسة ، فتحارب السياسات الجائـــرة، وتقـــاوم الطغاة الظلمة من الحكام ، وفى المقابل تؤيد وتشد على عضد الحكام الناجحين الصـالحين .

وقـــد تتخذ المقالة جوانب الجمال فى كتاب من الكتب ، أو أســـلوب كاتـــب مـــن الكـــتّاب موضوعا لها ، فتعمل على إثارة الإعجاب، وبعث اللذة فى نفوس القراء والمستمعين ، وتنبههم إلى جوانب الحسن والجمال فى الكتاب أو الكاتب .

والمقالـــة ليســـت حشدا لمعلومات من هنا وهناك ، فهى بوضـــعها الفنـــى الحـــديث تتميـــز بالقصـــر وبالخلو من القيود والـــزخارف اللفظـــية ، كمـــا تتميـــز بأن الصفة العامة اللازمة للأســـلوب الـــذى صيغت به هو الوضوح والبساطة ، بحيث يقدم الموضـــوع إلى القراء بطريقة مشوقة ، وخاتمة المقال لا بد وأن تكـــون نتـــيجة طبيعـــية للمقدمة والعرض ، وأن تكون واضحة صريحة لم تأت بشىء لم يرد له ذكر فى المقال .

ومـــن أبـــرز كتاب المقالة الشيخ محمد عبده ، وعبد الله الـــنديم ، وعـــبد الرحمن الكواكبى ، وقاسم أمين ، وأحمد حسن الزيات ، وأديب إسحاق ، ومصطفى كامل ، والشيخ على يوسف ، وأمـــين الرافعى ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأحمد أمين ، ونازك الملائكة ، وأمينة السعيد ، وسهير القلماوى .

وقـــد كتب هؤلاء المقالة فى ألوانها السياسية والاجتماعية والأدبية والدينية ، وهذا لا يمنع أن لونا معينا قد غلب على واحد مـــنهم وبـــرز فيه دون غيره من أنواع المقالة ، كما غلب اللون السياســـى على كل من : عبد الله النديم ، ومصطفى كامل ، وكما غلـــب اللـــون الاجتماعى على كل من الشيخ محمد عبده ، وعبد الـــرحمن الكواكبى ، وكما غلب اللون الأدبى على أديب إسحاق ، وكانت كتابة كل منهم ذات أثر رائع فى ميدانها .

وقد اهتمت الصحف والمجلات بنشر المقالات المختلفة (١) فاهـــتمت صحيفة " المؤيد " بنشر مقالات الشيخ على يوسف التى تدافع عن الدول الإسلامية وتهتم بقضـــاياها ، واهتمت جريـــدة " الجـــريدة " بمقـــالات لطفى السيد التى كانت تدعو إلى تحرير الشـــعوب من الاستبداد ، وكذلك كان حال " المقتطف " .وأخذت المقالـــة من ثم تنشط نشاطا ملحوظا فبرز فى المقالة السياسية كل من العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وأمين الرافعى ، وطه حسين ، وزكـــى مـــبارك، وعـــبد القـــــادر حمزة ، وابراهيم عبد القادر المازنى .

---

(١) انظر الأدب العربى المعاصر فى مصر د . شوقى ضيف ص ٢٠٦ . دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ، والطبعة السادسة .

وأخذ هؤلاء يختلفون فى أفكارهم وفى قضاياهم واحتدم من ثم الصراع بينهم نتيجة لاختلاف مشربهم السياسى . ولم نلبث أن وجدنا كتبا للمقالات ، كان منها (مطالعات) للعقاد و (فيض الخاطر) لأحمد أمين و (حصاد الهشيم) للمازنى و(المختار) للبشرى ، ولا شك أن أسلوب هذه الكتب هو مثال للوضوح الناشيء عن الدقة فى اختيار الكلمات ، وسهولة التراكيب ، فبعد أن كان أسلوب المقالة مقيدا بالمحسنات البديعية المتكلفة انطلق من هذه المحسنات وتلك الزخارف ، وجنح إلى البساطة فى التعبير ، وعمق الفكرة ، ثم مال إلى التركيز والموضوعية .

وهكذا أخذت المقالة تجتذب معظم كتاب العصر ، وأخذت كذلك تتسع لكل الموضوعات التى تتصل بالطبائع الإنسانية ، من خير وشر ، وأمل ويأس ورجاء ، وبخل وكرم ، وحب وكره وغير ذلك ، واتسعت أكثر لتشمل القضايا الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية ، والأدبية ، والدينية ، كما اتسعت لكل فروع العلم والمعرفة .

ولعله من المناسب هنا أن نقول إن نهضة المقالة فى بلاد الشام كانت أقوى من نهضتها فى سائر الدول العربية ؛ ولعل ذلك راجع إلى ما كان بين بلاد الشام والدول الغربية من اتصال قوى ومباشر .

نشأة فن المقالة وتطوره

سبق أن قلنا إن المقالة لها جذور قديمة العهد ، ترجع إلى ما أنشأه العرب من رسائل ، وخطب ، ومقالات ، وفصول ، فكل هذه كانت نواة فن المقالة .

فالمقالة إذن لها جذور ولدت فى ظلال الدولة الإسلامية . ومن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اهتم اهتماما بالغا بالكتابة ، ونهج النهج نفسه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم .

وعلــى هــذا فيمكن أن نقول إن فن المقالة مر فى تطوره بمرحلتين مهمتين :

المرحلة الأولى : قديما :

حيث عرف القدماء المقالة ، لكنهــا عرفت باســـم (الرسالة) أو (الكتاب) مراعاة لطريق وصولها إلى الآخرين ؛ إذ هى مرسلة، أو نظرا لهيئتها إذ هى مكتوبة .

وكانــت هــذه الألوان الكتابية مقصورة على ضروريات الحياة، وما ذلك إلا لضيق القاعدة التى تتيسر لها الكتابة ، فما أن توفــرت لهــا أسباب الانتشار ، وصارت قولا معروضا ومتاحا

للعامـــة والخاصة ـــ وعلى وجه الخصوص بواسطة الصحافة ـــ كان ولا بد أن يتغير اسمها لتتحول إلـــى (المقالة) .

ومن هذا اللون القديم : (رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ تلك التى يعلن فيها سخريته من أحد معاصريه .

يقول فيها :

" كـــان أحمـــد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ، وتحسبه لســـعة جفرته ، واستفاضة خاصرتـــه مربعا " .

فـــإذا ما وصلنا إلـــى العصر العباسى وجدنا مظاهر النمو والنضـــج قـــد بـــدت علـــى هذا اللون الكتابى ؛ إذ اتسعت دائرة الرســـائل ، وتـــنوعت ما بين : سياسية ، واجتماعية ، ودينية . يضـــاف إلى ذلك أنها تأثرت بطريقة (ابن العميد) و (القاضى الفاضـــل) ومـــن نهـــج نهجهما ، وتأثر بطريقتهما ، إذ التزموا السجع ، وأكثروا من المحسنات على حساب المعنى .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن فن المقالة له جذوره العربية ، وهـــذه الجـــذور قديمـــة النشأة ، عرفها العرب مع بدء الدولة الإسلامية ، وأخذت تتطور شيئا فشيئا فى العصر الأموى ، حتى إذا ما جاء العصر العباسى وجدنا كتاب العربية يتقنون هذا اللون

الكتابى ، ويتطورون به ، وإن لم يصلوا به إلى شكل المقالة الفنية فى العصر الحديث [١] .

المرحلة الثانية : فى العصر الحديث :

فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث وجدنا فن المقالة يتطور تطورا ملحوظا ، ويزدهر ازدهارا يلمسه العامة والخاصة ، وكان من نتائج ذلك أن تعددت موضوعاته وفنونه ، وكثر كتابه كثرة ملحوظة .

لكن يلاحظ على المقالات التى انتشرت مع بداية هذا العصر ما يلى :

١ـ أن لغتها التى كتبت بها كانت ضعيفة المستوى .

٢ـ ضعف الفكرة المتناولة ، بل وتفاهتها أحيانا .

٣ـ تطول المقالة طولا زائدا لا فائدة من ورائه .

٤ـ سيطرة السجع المتكلف على حساب المعنى .

وبمرور الزمن توفر لهذا الفن من العوامل ما جعله يتطور تطورا سريعا ، ويتنوع بتنوع أحوال الحياة .

وعلى رأس هذه العوامل :

---

(١) انظر : فى الأدب العربى المعاصر ، د / إبراهيم عوضين : ١ / ص ٩٥ وما بعدها مطبعة السعادة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ م .

١ ــ الاتصــــال بـــالأدب الغربـــى بعد قراءته وترجمته . والحق أنه كان لهذا الاتصال الأثر الكبير فى نهضة جميع الآداب والفـــنون ، واطـــلاع العـــرب علـــى كل جديد مبتكر فى العلوم ووسائط الحياة الحديثة .

والذى ينبغى أن نذكره هنـــا أنـــه لـــم يكن لعالمنا العربى صلة بهذه العلوم الحديثة إلا بعد مجىء حملـــة نابليـــون بونابرت إلـــى مصر (١٢١٣ــ ١٢١٦ هــ) إذ المعروف أن حملة هذا الـــرجل قد مهدت بشكل أو بآخر لانتقال المعارف المستحدثة إلى العالم العربى [١] .

٢ ــ إرســـال البعـــثات إلى أوربا ، فمن المبالغة أن نعد الحملة الفرنسية وحدها هى السبيل الوحيد الذى أطلع العرب على الجديـــد المبتكر فى العلوم ؛ ذلك لأن المدة الزمنية التـــى قضتها الحملة فـــى مصر لا تزيد على ثلاث سنوات، ثم إن الإصلاحات التـــى أحدثها الفرنسيون لم يكن هدفها الأول هو تنبيه الرأى العام وتحريك كوامنـــه نحو الرقى والتقدم [٢] .

ومن هنا يمكن أن نعد الإصلاح الشامل الذى قام به محمد علـــى هـــو الخطوة الأولى فى سبيل تقدم المجتمع العربى ؛ فلقد

---

(١) انظر : الجبرتى " تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " : ٢ / ٢٣٣ .
(٢) انظر المصدر السابق .

عنى هذا الرجل بالبعثات العلمية ، وأنشأ المدارس ، وأرسل الدارسين إلى فرنسا ، وكان منهم من أسهم فى الدعوة إلى النهضة فيما بعد ، وطالب بإرساء الأسس السليمة لإحياء مجتمع جديد مستنير ، مثل : رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وغيرهما من زعماء الإصلاح والدعوة إلى المدنية الحديثة .

٣ ـ انتشار المطابع ، وإحياء التراث ، بالعودة إلى عصور ازدهاره ، واتباع منهج أصحابه فى الكتابة ، والتمسك بلغتهم القوية، وأسلوبهم المرسل [١] .

وكان من آثار تأسيس المطابع أن ظهرت الصحف والمجلات اليومية والدورية منذ وقت مبكر ، فقد صدرت صحيفة (الوقائع المصرية) سنة ١٨٣٣ م ، و (الجريدة التجارية والزراعية) سنة ١٨٤٧ م .

والحقيقة أن صحيفة (الوقائع المصرية) لم تكن مجرد نشرة حكومية ، تطلع الناس على القوانين والأوامر التنظيمية التى تصدرها الدولة ، ولكنها كانت صحيفة إصلاح وتهذيب ، وتحضر وثقافة ، فقد عنيت منذ سنة ١٨٤١ م بالمقالات الأدبية والسياسية والاجتماعية ، والعلمية ، والاقتصادية .

---

(١) انظر : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف ، ص ٣١ . دار المعارف بمصر .

ويمكننا أن نقول إن المقالة — وعلى وجه الخصوص المقالة الأدبية — قد بلغت أوجها ، ووصلت إلى منزلة رفيعة من الإمتاع والجودة بفضل ما تيسر لكتابها من عودة إلى التراث والتثقف بثقافته ، والوعى بوظيفته ، ومدى ما له من تأثير فى القارئين .

٤ — ظهور الصحف المتنوعة . ذلك لأن الذى يتصل بموضوع المقالة ، وبالمؤثرات التى أثرت فى تنشيط الحركة الأدبية، وتطوير الأساليب الكتابية ، إنما هو قريب الصلة بنشأة الصحافة العربية ، وكثرة عدد الصحف والمجلات المنتشرة فى عالمنا العربى، فلقد تحولت جميعها إلى لسان حال يخاطب الشعب العربى بكل طبقاته ، وفى كل أمر من أمور حياته .

والذى ينبغى أن نذكره فى هذا الصدد هو أن حاكم مصر والسودان محمد على ، أراد أن يقف فى وجه التتريك ، فأمر بأن يكون التعليم باللغة العربية ، ثم أمر كذلك بإنشاء صحيفة لمصر تتحدث عن شئونها ، وتنقل أخبارها ، فكانت هذه الصحيفة هى صحيفة (الوقائع المصرية) [1] ، ومن ثم فهى البداية الحقيقية الأولى لمسيرة الصحافة فى المشرق العربى .

---

(١) صدر العدد الأول منها فى ١٢ / ٦ / ١٢٢٤ هـ الموافق ٢٠ / ١١ / ١٨٢٨ م

ويمكـــن اعتبار جريدة (الجوائب) تلك التى أسسها أحمد فـــارس الشـــدياق ــ أول جريدة عربية كبرى كان للمقالة فيها ــ علـــى اخـــتلاف مناحيها ــ حظ كبير ، وأصبحت هـــذه الجريدة تقرأ فـــى سائر أنحاء العالم [١] .

ثـــم تـــوالى صدور الصحف والمجلات فـــى بقية أقطار العـــالم العربـــى [٢] ، والحق يقال إن بعضها استمر فى الصدور دون عقبات أو عثرات ، وأن بعضها الآخر قد اعترضته العقبات فتوقف بعد سنوات .

والحقـــيقة أن الشام قد سبق غيره من الأقطار العربية فى إصـــدار الصـــحف ، لحـــرص الشاميين على التعليم من جهة ، وللأثـــر الـــذى تركته مدارس التبشير فى الشام من جهة أخرى ، وتـــبع ذلك إنشاء الصحف والمجلات ، فأقبل الكتاب على مزاولة الكتابة فيها ، فكانوا يحتذون فى فنونهم أساتذتهم الغربيين ، الذين بلغـــت المقالـــة فى أدبهم مبلغا جيدا ، ومن هنا كان بدء ازدهار المقالة فى الشام .

وقـــد انـــتقل الشاميون إلى مصر ، وحملوا معهم صحفهم التى أنشأوها ، وأنشأوا صحفا ومجلات أخرى ، وأخذوا ينشرون

---

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، دار الشعب ، مصر مجلد ١١ ص ٢٤٦ .
(٢) انظر الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف ص ٣٠ وما بعدها .

أدبهـم ، فحـذا المصـريون حـذوهم ، وبـدأ يظهر فيهم كتاب متخصصون فى ميدان المقالة ، لم يلبثوا أن سيطروا على الميدان ، وظهـر فيهم نوابغ كبار كانوا هم أساتذة فن المقالة فى العصر الحـديث ، وعلـى أيـدى هـؤلاء بلغت المقالة أعلى مرتبة لها وتربعت على أرفع العروش [١] .

٥ ـ التوسـع فى التعليم ، وصيرورته غاية لنفسه ، ولم يعد يراد به الجيش ، وإنما أصبح يراد به الشعب [٢] .

ومعنـى هذا أن المواطن العربى قد انتقل فى حياته العقلية نقلـة كبيـرة ، وخطى خطوات واسعة نحو الامتزاج بالحضارة الأوربـية ، وكان ذلك سببا فى أن يتهيأ للتأثر بالآداب الغربية ، وأن ينتقل بالترجمة نقلة دنت من الكمال بما أوتى من قدرة لغوية وأدبية .

وفـى ظـل هذه الحركة العلمية توافر عدد كبير من كتاب المقالـة الـبارزين ، الذين اتضحت شخصياتهم الأدبية ، وبرزت اتجاهاتهم الأدبية ، وكل هذا معناه تطور المقالة وازدهارها بشكل لـم يسـبق لـه نظير ولا مثيل فى تاريخنا الحديث ، وأخذنا نقيم لأنفسنا نهضة أدبية حقيقية ، وكان عمادنا فى ذلك الاتساع بالتعليم

---

(١) انظر المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

حتـــى نـــادى بعض مفكرينا بأنه ضرورة ، وأن من الواجب أن يتمتع به كل مصرى ، كما يتمتع بالهواء والماء [١] .

وهكـــذا صار (فن المقالة) من أكثر الفنون النثرية ذيوعا وانتشـــارا وتطورا فى العصر الحديث ، بل إننا ليمكننا القول إن أكثـــر الكـــتب انتشارا فى هذا العصر إنما هى الكتب الأدبية التى كانت فى صورة مقالات متنوعة الأغراض والأهداف .

ونتـــيجة لما سبق بدأت النهضة تؤتى ثمارها ، وظهر عدد كبيـــر من الأدباء والنقاد ، هاجموا الطريقة العثمانية فى الكتابة ، وأخـــذوا يعملون على تحرير كتاباتهم من قيود الصنعة ، ومنهم : لطفى السيد ، وطه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وغيرهم من الـــذين أسســـوا ، وطوروا سمات المقالة الفنية حديثا ، ومن هذه السمات والمظاهر :

١ـــ التحرر من قيود الصنعة .

٢ـــ التعمق فى أحداث المجتمع .

٣ـــ الاقتراب من الجماهير .

٤ـــ إثارة النزعات التحررية .

٥ـــ الاهتمام بالنواحى الدينية ، والاجتماعية ، والأدبية فى المجتمع.

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ .

بين المقال الصحفي وفن المقالة

والحقـيقة التـى لا يمكن إغفالها أن المنابع الأساسية لفن المقالـة فـى الأدب العربى الحديث إنما هى الصحف والمجلات الدوريـة ، ذلك لأنها قامت بمهمة التعبير عن المجتمع ، وأبانت عن التيارات الأدبية المتدافعة فيه ، بل إن النهضة التى شهدها فن المقالـة فـى النصـف الأول من القرن العشرين كان مردها إلى اهـتمام الصحف والمجلات اليومية والدورية بها ، وتخصيصها أعمدة فى صفحاتها لها ، وقد اتخذ جميع الكتاب من هذه الصحف والمجـلات وسـيلة لنشـر إنتاجهم الأدبى ، وآرائهم الجديدة فى الأدب والفن .

لقـد اسـتطاعت هـذه الصحف وتلك المجلات أن تكون مدرسـة تثقيفية ، ومعرضا للفنون الأدبية ، وللدراسات النقدية ، ولعلـنا لا نعـدو الحقيقة إذا قلنـا إن الأدب الحديث بصفة عامة وفـن المقالـة بصـفة خاصـة ، قد نشأ وترعرع فى أحضـان الصحافة [١] .

---

(١) انظر : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، د / شوقى ضيف . ص ٣٦ وما بعدها .

ومع أهمية الدور الذى تلعبه الصحافة فى الدراسات الأدبية والفنــية ، والاجتماعية ، فإنا نجد أن الصحافة كانت من العوامل الرئيسة فى نشأة فن المقالة ، وفى تطور هذا الفن ونموه وانتشاره ، فهى التى هيأت وساعدت على انتشار هذا الفن الحديث فى وقتنا الحاضر ، لا فى الآداب العربية فحسب ، بل وفى الآداب العالمية جمــيعها ، وإن أردت الصواب فقل إنه ليس هناك لون من ألوان الإنتاج الأدبى يدين فى رواجه وانتشاره للصحافة مثل فن المقالة ، فالصـــحف هـــى التى تقبل على المقالة وتتهافت على نشرها ، والمقالـــة هـــى الفن الوحيد من بين فنون الأدب الذى يتفاعل مع الصحافة .

فعن طريق الصحافة وحدها انتشرت المقالات الإصلاحية التى كان يكتبها الكتاب الاجتماعيون من مقالات اجتماعية ينقدون فيها بعض الأحوال التى كانت فى المجتمع ، ويقارنون بين التقاليد المــوروثة (تقالــيد مجتمعنا الإسلامى) وتقاليد المجتمع الغربى التـــى كـــان يحاول البعض ممن يتصلون بأوربا من قريب أو من بعيد محاكاتها وتمثلها .

وعلـــى هذا النحو جاءت مقالات معظم الكتاب متحدة فى الغـــرض منها ، وخرجت تستهدف أولا وقبل كل شىء الإصلاح الاجتماعـــى ، ومعالجة الأمراض الاجتماعية التى استوطن بعض

منها فى البيئة العربية ، ومع هذا فنحن نرى تلك المقالات — مع اتحادها فى الغرض — تختلف بعض الشىء فى طريقة المعالجة ، وفى عرض تلك الأدواء والأمراض والعيوب الاجتماعية .

وثمة حقيقة مهمة وخطيرة ، وهى أن الهدف الإصلاحى الاجتماعى قد استمر فى محاولات الكتاب ، وهذه خطوة على الطريق جعلت الكتاب يدفعون دفعا إلى تحقيق شىء من الأصالة فى ميدان فن المقالة ، وينشدون تطورها ، من خلال الاهتمام بالنواحى الدينية والاجتماعية والأدبية ، ومن رواد هذه المرحلة: (الشيخ محمد عبده) ، و (عبد الله النديم) ، و (الشيخ على يوسف) ، و (مصطفى كامل) ... وغيرهم [١] .

وإذا كان هناك من النقاد العرب من يرى أن فن المقالة لم يرتبط فى ظهوره بالصحف والمجلات [٢] ، فهى — أى المقالة — معروفة قبل أن تعرف الصحف ، وقبل أن يخترع فن الطباعة الآلية بقرون طويلة ، ذلك لأن عددا من الأدباء قد اختاره قالبا فنيا منذ عصر اليونان القدماء .

---

(١) انظر : النديم الأديب ، د / محمد السعدى فرهود ، ص ٨٣ . المكتبة السعدية ، القاهرة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

(٢) على رأس هؤلاء الدكتور / محمد مندور .

إذا كـــان كـــذلك فإن هناك عددا كبيرا من الأدباء والنقاد يرون أن فن المقالة إنما ارتبط فى نشأته بالصحافة ، وأنه رافقها علـــى طـــريق التطور والازدهار ، متأثرا بالمقال الغربى ، وأنه بدخـــول الصـــحافة ديـــار العرب أخذت تؤثر فى تطور المقال ، وتـــنقل الأســـلوب الكتابى من الترصيع والتزيين والركاكة ، إلى البحث عن الكلمة الخفيفة البعيدة عن الإغراب ، والمناسبة للمعنى ، للـــتخلص من قيود السجع ، ومحاكاة أساليب النثر فى العصور الأولى .

أما أثر الصحافة البالغ فى الأسلوب الكتابى ، فهذا أمر لم يتـــبلور إلا فى كتابات أدباء أوائل القرن العشرين الميلادى ، وإن كان حظ كل منهم يختلف باختلاف موهبته وتثقفه ، وحرصه على أدواته الكتابية .

وفـــى رأيـــى أنه على رأس هؤلاء الكتاب المجددين الذين دخلـــوا بالنثر إلى ميادين واسعة من التطوير والتجديد ، أمثال : الدكتور / طه حسين ، والدكتور / محمد حسين هيكل ، والأستاذ / أحمد حسن الزيات ، والأستاذ / عباس محمود العقاد ، والأديب / جبـــران خليل جبران ، والأديب / إبراهيم عبد القادر المازنى ، والأســـتاذ / ســـيد قطـــب ، والأستاذ / أحمد أمين ، والشاعر / ميخائيل نعيمة ، والأديبة/ مى زيادة ، وغيرهم .

فقــد أفادوا جميعا من عودتهم إلى التراث العربى ، فأحيوا جيده ، وحاكوا النماذج الممتازة منه ، وأضافوا إلى ذلك ما استجد مــن الجديــد ، ومــن ابــتكار تمنحه الموهبة الصادقة ، فاجتمع لأكثــرهم الطــبع الصــادق المتدفق ، والإلمام بالقيم الفنية للنص العربى القديم ، والثقافة الحديثة الشاملة ، وكل ذلك لا بد أن يدفع إلــى إبداع جديد ، يحمل سمة صاحبه ، ويكون بمعزل عن التقليد والتأسى العقيم [١] .

لقد بلغت المقالة أوجها ، ووصلت إلى ما وصلت إليه من تطــور بفضل الصحافة ، ذلك لأن ما كان يكتب فى الصحافة فى الــوطن العربى لم يخل من تأثير قريب أو بعيد فى تكوين إنسان القرن العشرين .

ولقد تمثل أثر الصحافة فى تطور المقالة فيما يلى :

١- اتســعت موضــوعات المقالــة ، فأخــذت تتــناول الموضــوعات الدينــية ، والاجتماعــية ، والثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية .

٢- ظهــر فــى المقالة ميل كبير إلى فهم ما تضطرب به حــياة الكتاب من أحداث ومؤثرات ، وما يسعون إليه من تغيير ،

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى الحديث ، د / محمد العوين : ١ / ٥٠ ، ٥١ . الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

ثـم الوقوف عند حقيقة الدعوات الفكرية والاجتماعية التى يعلنها المصلحون منهم .

٣- وصلت المقالة إلى درجة عالية من الدقة ، والتركيز ، وبراعة العرض ، حتى لكأننا أمام فن أدبى جديد غير معهود من قبل .

٤- طوعت الصحافة لغـة المقالة ، فأصبحت سهلة سليمة الصياغة ، فقام كتابها من ثم بواجبهم فى الإبانة عن وظيفة الأدب وتوضـيح مكانة الأدباء فى المجتمع ، ودورهم فى الرقى به إلى ما يحملونه من قيم ، وما يحلمون به من مثاليات .

٥- اكـتملت أنـواع المقالـة ، وأصبحت تتميز بميزات خاصـة، جعلـت كتابـنا يصولون ويجولون فيها ، ويرتقون بها وبغيـرها إلـى مراتب عليا فى استشعار وظيفة الكاتب ، وأداء مـا علـيه مـن حق تـجاه مجتمعه وأمته ، فـكان لهم إسهام طـيب فـى المقالـة السياسية، والأدبية ، والدينية ، والعلمية ، والفلسفية ، والخاطرة ، والرسائل ، وعرض الكتب ، وغيرها .

٦- تعـددت وسـائل نشره بين صحيفة ومجلة ، فالمنابع الأساسية للمقالة ـــ كما سبق أن قلنا ـــ هى الصحف والمجلات ، بـل إن النهضة التى شهدتها المقالة فى القرن العشرين ـــ وعلى وجه الخصوص فى النصف الأول منه ـــ كان مردها إلى اهتمام

الصحف والمجلات بها ، وقد اتخذ الكتاب من هذه الصحف وتلك المجـلات وسيلة لنشر إنتاجهم الأدبى وآرائهم الجديدة التى نطقت بها مقالاتهم.

ثـم إن الصحافة هى التى هيأت وساعدت على انتشار فن المقالة ، بل وعملت على تطوره ونموه .

٧- تنوع أسلوب المقالة بين العلمى والأدبى ، والعلمى المتأدب ، حتـى ظهـرت المقالة العلمية الموضوعية ، التى تلتزم بالتقسيم المتبع فى الكتابة المقالية عن أى موضوع علمى ، لتكون قضاياه متواصـلة، بحـيث تكـون كل قضية نتيجة لما قبلها ، مقدمة لما بعدها ، حتى تنتهى جميعا إلى الغاية المقصودة .

٨- اتسـمت المقالـة بالمـرونة والاستجابة للتيارات السائدة فى المجتمع، وقد تمثل هذا فى فترتين بارزتين :

(أ) الفتـرة الأولـى : فتـرة الصراع السياسى ، وفيها كثرت المقـالات السياسـية التى تواكب الحياة ، وما يصطرع فيها من تيارات مضطربة ، يعمد الكاتب فيها إلى إبراز وجهة نظره إزاء الأحـداث ، والذب عن معتقده السياسى ، أو الدفاع عن حزب أو تيار ، أو نحو ذلك .

(ب) الفترة الثانية : فترة انتشار تيارات الإصلاح الاجتماعى ، وفـى هـذه الفتـرة كثرت المقالات الاجتماعية التى تعالج أدواء

المجتمع وأمراضه ، مثل الجهل ، والفقر ، والمرض ، والعادات والتقاليد البالية .

٩- ازدهــرت المقالــة ، واتسعت قاعدتها الجماهيرية ، بحيث لا تــرى صــحيفة تخلو من مقالات متعددة تعالج مشكلات المجتمع وتعبر عن آماله ، وتصل إلى النتائج التى تدفع الحياة إلى التطور والرقى .

١٠- وإذا كــنا نعــرف أن كتاب المقالة كانوا صفوة من رجال الأدب والفكــر ، الــذين جمعــوا بين الثقافتين : العربية الأصيلة والغــربية الوافدة ، فإننا يمكن أن نقول إن الصحافة - بما كانت تنشــره لهــؤلاء - قــد أثرت فى لغة المقالة ، فاتجهت للترسل والوضوح ، والتركيز ، وابتعدت عن أسلوب المقامات ، لأن كاتبا هــذا شأنه ليس لديه من الوقت ما يمكنه من التفنن فى الترصيع ، كمــا أن القــارىء لــيس لديه صبر على قراءة مثل هذه الألوان الكتابية .

لقــد ارتقــى هــؤلاء بأسلوب المقالة ، واتجهوا فيها إلى التحليل والتعليل ، ووضوح الفكرة ، ودقة التعبير عنها ، وسلامة العــبارة ، وأكبــر دليل على ذلك هو ما كتبه كل من : الأستاذ / لطفــى الســيد ، والدكتور / طه حسين ، والأستاذ / محمد حسين

هـيكل ، والأسـتاذ / عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وغيرهم .

١١- جـذبت الصـحافة الأدبـاء بشكل أو بآخر ، وأتاحت لهم الفرصة فى نشر ما يكتبون ، حتى أصبحت الصحف مجالا لكتابة المقـالات : الأدبية ، والاجتماعية ، والفلسفية ، والدينية ، الأمر الذى ترتب عليه رواج ونشاط فن المقالة ، حتى ظهرت الصحف المتخصصـة ، مـثل الصحف السياسية التى ظهرت بعد انتشار الوعـى القومى ، وأخذت تهتم بالمقالات التى تثير الجماهير مثل مقـالات : الشـيخ محمـد عبده ، وعبد الله النديم ، والشيخ على يوسف ، وغيرهم .

وقـد حـرص بعض الأدباء على جمع مقالاتهم فى كتب صـار لها دور بارز فى النهضة الأدبية والاجتماعية ، ومن هذه الكتب : (الفصول) للعقاد ، و (حديث الأربعاء) لطه حسين ، و (وحـى القلـم) للرافعى ، و (نماذج بشرية) للدكتور محمد مندور .. وغيرها .

هذا هو دور الصحافة فى تطور ورقى فن المقالة . ونحن لو التمسنا الطريق إلى واحد من الأدباء الذين عاصروا تطور فن المقالـة لنسـأله عن ذلك لأجابنا بأن الصحافة قد أسهمت إسهاما فعالا فى نهضة المقالة وازدهارها .

الصحافة ومدارس المقالة فى أدبنا الحديث

سبق أن أشرنا أن الصحافة كان لها – مع بقية عوامل النهضة – إسهام كبير فى اكتشاف نموذج المقالة بل وفى صنعها ، لدرجة أننا لم نصل إلى فاتحة هذا القرن حتى كان لنا مدارس صحفية متميزة ، حمل كتابها عبء النهوض بالمقالات السياسية وغير السياسية ، بل لقد دفعوها أشواطا حتى صارت فنا له أصول وقواعد ، ونظم وتقاليد [١] .

فالصحافة إذن هى الباعث الأقوى الذى دعم البناء الأدبى للمقال ، وأعانت على الابتكار فى فنونه وألوانه ، وفتحت صفحاتها لكل نابه فيه ، وأصبح الجميع يطالعون المقالات الطويلة والقصيرة فى مختلف شئون الحياة ، على صفحات الصحف مع اختلافها من يومية ، وأسبوعية ، وشهرية ، وفصلية ، حتى صار للمقالة فى العصر الحديث مدارس متنوعة فى اتجاهاتها ، وسماتها ، وخصائصها .

ونحن نريد فى هذه الصفحات أن نجمع شتات مدارس المقالة – وإن تداخلت فى الفترات التى عاشتها ، ومعاصرة بعض رجالها لبعض – وأن نوضح ما أمكن السمات

---

(١) انظر المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص ٦١ وما بعدها . دار المعارف بمصر ١٩٨١ – ١٩٨٢ م .

الغالبة على أصحاب كل مدرسة ، ومدى ما حققوه فـــى دفع الفن المقالـــى إلـــى الأمـــام : فكرة ومضمونا ، أو موضوعا ، أو لغة وأسلوبا ، وما إلى ذلك .

(أ) المدرسة الأولي :

ويمكـــن أن نســـمى مرحلة هذه المدرسة بمرحلة النشأة ، وهـــى تلـــك المـــرحلة التـــى نشأت فيها الصحافة ، وتبدأ هـــذه المـــرحلة تقـــريبا مـــن صدور صحيفة (الوقائع المصرية) عام ١٨٢٨ م ، وتنتهى بقيام الثورة العرابية .

وزعيم هذه المدرسة غير مدافع هو " رفاعة الطهطاوى " فقـــد حمل هذا الرجل على عاتقه مهمة ظهور المقالة [١] والكشف عـــنها ، وهذا فى الحقيقة شيء ما كانت لتألفه الصحافة المصرية من قبل ، وتبعه فى هذا عبد الله أبو السعود [٢] ، وغيره .

بـــيد أن مـــا يمكن ملاحظته على محاولات الطهطاوى أن المقالـــة التى ظهرت على يديه كانت بدائية فجة ، وكان أسلوبها

---

(١) انظر : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، د / عبد اللطيف حمزة : ١ / ١١١ . عالم الفكر ١٩٦٤ م .

(٢) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ص ٤٨ . دار المعارف ١٩٨١ ـــ ١٩٨٢ م . دار نشر الثقافة بالإسكندرية .

أقــرب إلـــى عصــر الانحطـــاط ، فهــو يزهو بالسجع الغث ، والمحسنات البديعية ، والزخارف المتكلفة الممجوجة [١] .

وكانـــت الشئون السياسية هـــى الموضوع الأول لمقالات هـــذه المدرســـة ، وإن وجد من الكتاب من تناول بعض الشئون الاجتماعـــية والتعليمية [٢] ، فلقد حملت المقالات لواء الثورة على الفساد ، كما حملت مهمة الدعوة إلى ثورة فكرية [٣] .

وفـــيما يلى جزء من مقالة بعنوان (الوطنى المزيف) [٤] لأحمد فارس الشدياق ، يقول فيه :

" مـــن الناس من يبالغ فى مدح وطنه ، ويحن إليه حنينه ، فيصف مروجه ورياضه ، وحروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعـــه وتلالـــه ، وربـــوعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله وثماره، ودوحه وأطياره ، وطيب هوائه ، ولذة مائه ... " .

ولا يمكـــن أن نغفل فى هذه الفترة عوامل النهضة الأخرى مـــثل : إحياء تراثنا القديم ، والاتصال بالحضارة الغربية ، فكل

---

(١) انظر نماذج لذلك فى:الوقائع ، عدد ٦٠٣ . الخميس غرة ربيع الثانى١٣٥٨ هـــ .

(٢) فن المقالة ، محمد يوسف نجم ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) راجع : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، أحمد أمين ص ٥٧ ــ ١٢١ . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧ هـــ ١٩٤٨ م .

(٤) انظرها فى كتاب : نشأة النثر الحديث وتطوره ؛ عمر الدسوقى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ م ص ٥٧ .

هذه العوامل مجتمعة دفعت فن المقالة دفعات إلى الأمام ، ثم أخذ الوليد ينمو ويتطور ، وتتنوع اتجاهاته ، وأشكاله ، وخصائصه الأخرى .

(ب) المدرسة الثانية :

وتمتد هذه المدرسة حتى الاحتلال الأجنبى لمصر عقب الثورة العرابية ، ومن أشهر أعلام هذه المدرسة : أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وعبد الله النديم ، وكلهم ممن ارتبط بالصحافة ، وارتبط كذلك بالكفاح الوطنى المصرى .

ويطلق الأستاذ عمر الدسوقى على هذه المدرسة اسم مدرسة (جمال الدين الأفغانى) [1] ، لأن أعلام هذه المدرسة قد تتلمذوا على يديه ، وتأثروا بدعواته الإصلاحية والفكرية وأصبحوا دعاة لها ، وليس من شك فى أن الأفغانى كان له دور كبير فى قيام ثورة فكرية فى مصر ، والدور نفسه قام به كل من : عبد الله النديم ، ومحمد عبده ، فلقد شاركوا جميعا فى إشعال الروح الوطنية ، والدينية ، والأدبية فى مصر ، ودعوا إلى الاقتباس من الغرب ، وقد كان لروادهم الذين تأثروا بهم دور كبير الشأن فى الدعوة إلى التجديد فى مصر .

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٦٠ .

وهناك بون واسع بين مقالات هذه المدرسة والمدرسة التى تسـبقها، فلقـد بث أبناء هذه المدرسة فى المقالة السياسية الحياة والقـوة ، فكانـت مقالاتهم السياسية على سبيل المثال هى أقوى شىء هوجم به الاحتلال الأجنبى فى مصر .

وعمـوما فإن هذه المدرسة قد خطت بهذه المقالة خطوات طيبة من حيث : الموضوع ، والفكرة ، والأسلوب ، والأداء الفنى نعم إنها لم تبلغ بالمقالة حد الكمال ، لكنها ارتقت بها عن سابقتها وخطت بها خطوات واسعة .

(ج) المدرسة الثالثة :

وأبـناء هـذه المدرسـة عاشـوا فترة من حياتهم فى ظل الاحـتلال، ورأوا ما رأوا من سياساته الاستعمارية ، من تعطيل للصحف ، وإذلال الشعب وامتهانه ، ونفى زعمائه أمثال : محمد عـبده ، وغيـره، فكان ولا بد أن يتأثروا برصيد الكفاح الوطنى الـذى سـبقهم ، وبالدعوات التحررية والإصلاحية التى نادى بها الأفغانـى وغيره من المصلحين الذين كانوا شعلة وطنية متقدة ، وكانوا خطباء مفوهين ، وكتابا سياسيين لا يشق لهم غبار [١] .

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو زكى،ص ٥٠ .

ومـــن أعلام هذه المدرسة : مصطفى كامل ، والشيخ على يوســـف ، وجورجـــى زيدان ، ولطفى السيد ، ومصطفى لطفى المنفلوطـــى ، وعـــبد العزيـــز جـــاويش ، ومحمد رشـــيد رضا وغيرهم .

والحق يقال إن أبناء هذه المدرسة قد أوقفوا معظم كتاباتهم علـــى الاتجـــاه السياســـى ، وانبرى كثير منهم للحديث عن يقظة الوعى القومى من جهة ، والحرية ، والاستقلال ، والحياة الكريمة من جهة أخرى .

يقول الدكتور عبد القادر الطويل عن هذه المدرسة[(١)] :

" وبالـــرغم مـــن طغـــيان الاتجاه السياسى فى المقالة عند أعـــلام هذه المدرسة – للظروف التى عاشوا فيها – وأنها كانت أقرب إلى الخطبة الحماسية منها إلى المقالة الهادئة المتزنة ، فإننا نلحـــظ تـــنوعا فـــى الموضوعات ، ناتجا عن اختلاف اتجاهات الأعـــلام فى ميادين الإصلاح ، واتجاه كل منهم إلى القيادة فيه ، فهـــذا (الســـيد على يوسف) يدافع عن الحكم المصرى ، والدين الإســـلامى ، والكفاءة المصرية ، بينما (لطفى السيد) يقوم على حراســـة (أخلاق الأمة) ، و (مصطفى كامل) يلهب الضمائر حماسة بمقالاته الملتهبة ، ليهزها بقوة لتنهض مطالبة بحقوقها ".

---

(١) المقالة فى أدب العقاد ص ٥١ .

وعمـــوما فإن هذه المدرسة قد خطت خطوات جريئة بفن المقالة ، فى الموضوعات وفى البناء الفنى ، وقد وجهت الأنظار إلى اليقظة العامة ، والثقافة بمفهومها الواسع ، وذلك لتربية أذواق الناس وعقولهم ، ويكفيها شرفا وفضلا أنها مهدت الطريق لظهور طـــبقة مســـتنيرة وجيل جديد فى المقالة تقاسم أبناؤه شئون الكتابة المختلفة ، من أمثال : عبد الرحمن شكرى ، والعقاد ، والمازنى ، وطه حسين، وهيكل [١] .

(د) المدرسة الرابعة :

وأبناء هذه المدرسة هم الجيل الذى نشأ عقب جيل المدرسة الثالـــثة ، أى بعـــد الحـــرب العالمية الأولى ، ومعنى هذا أن هذا الجـــيل قـــد عاصـــر أحـــداثا عظيمة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر [٢] .

ومـــن أشـــهر أعلام هذه المدرسة : أحمد حسن الزيات ، وأحمـــد أمين، وأمين الرافعى ، وزكى مبارك ، ومحمود تيمور ، والعقاد ، وشكرى ، والمازنى ، وطه حسين ، والرافعى ، وهيكل

---

(١) انظر فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ٦٧ .

(٢) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٥٣ وما بعدها.

وعــبد القـــادر حمـــزة ، والزيات ، ومحمود محمد شـــاكر وغيرهم .

وامـــتاز كـــتاب هذه المدرسة بأنهم كانوا يلهبون بمقالاتهم الإحساس الوطنى ، ويخبلون العقول والقلوب بمقالاتهم السياسية ، وامتازت مقالاتهم بالأسلوب الأدبى الحديث المتسم بالتركيز والدقة العلمـــية ، والمـــيل إلى بث الثقافة العامة التى تربى أذواق الناس وعقولهم .

فـــى هذه الآونة لم تلبث المقالة – وعلى وجه الخصوص المقالة الأدبية – أن أفردت لها مجلات خاصة ، بل وكتب خاصة تعنى بالحركة الثقافية والأدبية .

يقول الدكتور / شوقى ضيف [١] :

" ولا نتقدم إلى الجيل الثالث جيل هيكل والعقاد وطه حسين والمازنـــى ، حتـــى تصبح المقالة الأدبية أثرا فنيا قيما حقا ، فهى تمـــس القلـــوب ، وتثيـــر العواطف ، وقد اتسعوا بها إلى مباحث عمـــيقة فى الأدب والنقد ، والفنون الجميلة ، والنظريات الفلسفية والاجتماعية ، مستهدين فى ذلك بالمثل الإنسانية العليا مثل الخير والحق والجمال .

---

[١] الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٠٧ .

وســـار فـــى هـــذا الطريق غير كاتب مثل توفيق الحكيم وغيـــره ، ممن نقلوا إلينا فى مقالاتهم روح الفكر الغربى ومذاهبه الاجتماعـــية والأدبية ، ولم يدعوا مقالاتهم تفنى مع الصحف ، بل جمعوها وطبعوه فى كتب مختـــلفة حتى يتيـــحوا لها شـــيئا من البقاء .

ولا بـــد أن نشير هنا إلى مقالات مصطفى صادق الرافعى وأحمد أمين الاجتماعية ، وهى تمتاز عند أولهما باستبطان عقلى واســـع ســـاعد علـــيه صـــممه المبكـــر ، بينما تمتاز عند الثانى بمحصـــول فكـــرى وافر ساعدت عليه ثقافته الواسعة ، وهو فيها يـــنقد أحـــيانا بعض جوانب المجتمع ، ولكنه لا ينقدها فى سخط عنـــيف ، شـــأن الخطـــيب أو الواعظ ، وإنما ينقدها فى حديـــث هادئ " .

تلـــك هـــى مدارس المقالة فى أدبنا الحديث ، والتى أخذت الصـــحافة منطلقا لها ، وقبل أن ننهى الكلام لا بد وأن نعترف أن هذه المدارس كانت منبرا أمينا للدفاع عن هوية الأمة ، هذا فضلا عـــن تتبعها لما قاله أبناء الغرب عن الإسلام ، ووقوفها فى وجه الحملات الموجهة ضد أبناء الأمة .

ومـــن ثم بلغ المقال بهذه الرحلة قمته ، وأصبح فنا مستقلا يغــزو الحياة والمجتمع ، وصار يدرس فى المدارس والجامعات وفق قواعد وأصول ، لها نظمها وتقاليدها .

وعلـــى الجملة فقد دعمت الصحافة المقال ، وأعانت على الابتكار فى فنونه وألوانه ، حتى صار معرضا لكثير من ضروب المعرفة ، وألوان الثقافة ، وبذلك أوجد وعيا علميا وأدبيا وفنياغير محدود [١] .

---

(١) انظر المقال وتطوره فى الأدب المعاصر . د/ السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٤٧ وما بعدها .

أنواع المقالة

يتبـــين من التعريف الذى ارتضيناه للمقالة أنها قطعة نثرية محدودة الطول ، تكتب بطريقة عفوية ، وتكون ممثلة لفكر كاتبها كمـــا تكـــون لغتها سهلة ، وأسلوبها ميسرا ، ويعالج بها شأن من شئون المجتمع والحياة.

كمـــا تبـــين لـــنا أنه قبل بداية العصر الحديث لم يكن لفن المقالة وجود بالمعنى الفنى الكامل الذى نقصده من كلمة : (مقالة فنـــية) ، إذ أصـــيب هذا الفن بما أصيب به الفكر العربى بعامة والأدب بخاصـــة، فلقـــد طغـــت علـــى السطح أحداث واتجاهات صرفت الاهتمام عن اللغة العربية لفظا وأسلوبا إلى الأفكار التى تخدم الاتجاهات الحديثة الوافدة على حياة أمتنا العربية والإسلامية ، فـــبدأ اللحـــن يجد طريقه إلى لفظ المقالة ، وتسرب الخلل إلى أســـلوبها ، وكان ذلك نتيجة سيطرة ضعاف الثقافة على صفحات الصحف والمجلات (١).

وحـــين ظهـــرت الصـــحف ، وأنشئت صحيفة (الوقائع المصـــرية) ، وارتـــاد الـــنابهون صـــفحاتها بأقلامهم لم يكن فى

(١) انظر : المقالة فى أدب العقاد ، د/ عبد القادر رزق الطويل ، ص ٥٣ وما بعدها ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـــ ١٩٨٧ م .

متـــناولهم إلا بدايات يسيرة حاكوا فيها ما وقعت عليه أعينهم فى الآداب الغــربية ، يضاف إلى ذلك ما قبسوه من التراث الأدبى ، ومن هنا كان بدء ازدهار فن المقالة .

وتبين لنا كذلك أن مقالة الصحيفة تختلف عن مقالة المجلة فى أمور(١) ، لعل أهمها :

١- اليســر والســهولة فـــى لفظ المقالة الصحفية وأسلوبها ، لدرجة أن هذه المقالة قد تنزل لكى تكون قريبة من العامة ملائمــة لجمهــور القراء . بينما العمق والقوة هما سمة مقالة المجلة ، يستوى فى ذلك اللفظ والأسلوب .

٢- والمقالة الصحفية زاد يومى ، ومقال تصويرى يصدر فيه الكاتــب عــن شعوره إزاء صورة من صور الحياة ، أو وضع من أوضاع المجتمع ، وعلى هذا فهو ينتهى بانتهاء الحالــة ، أو الـــيوم . أما مقالة المجلة فإنها تتسم بقابلية البقاء ، فهى إلى البحث أقرب ، بل قد تكون بحثا .

٣- ومقالة الصحيفة من طابعها أن تكون قصيرة ، ولا يصار فـــيها إلى الإطالة إلا نادرا ، أما مقالة المجلة فقد تطول ،

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/ السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٦١ وما بعدها.

وذلك لأنها تمثل بحثا بكل ما للبحث من خصائص وسمات .

.... ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن المقالة لم يكن لها ميدان محدد ، فقد تتنوع موضوعاتها بحسب الاتجاهات التى سادت الصحافة العربية ، واتسعت آفاقها لتشمل القضايا السياسية والدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والإنسانية ، وغير ذلك .

وتتعدد أنواع المقالة من حيث المضمون ، والشكل (الحجم)، والأسلوب ، ويظهر ذلك فيما يلى :

أولا : من حيث المضمون :

إذا نظرنا إلى المقالة من حيث المضمون فإننا نراها تتفاوت وتختلف حسب ما يأتى :

١- شخصية الكاتب .

٢- وثقافته وفكره .

٣- ونوع أسلوبه .

٤- وطبيعة الموضوع المتناول .

٥- ووسيلة النشر .

فكما سبق القول لكل كاتب شخصيته ، ولكل كاتب ثقافته وفكره ، والكتاب يتفاوتون فى ذلك كله من ناحية العمق والسطحية ، وخصوبة الفكر أو ضيقه ، وما إلى ذلك ، واتساع

الأفــق أو ضيقه ، والميل إلى الإيجاز أو الإطناب ، والتمكن من اللغــة أو الضعف فيها، وفروق الثقافة والبيئة ، واختلاف النظرة للموضوع .

ومــن حــيث الأســلوب : إذا كان الأسلوب أدبيا مال إلى التفنن ، والتأنق فى الألفاظ ، وهندسة العبارة ، وحيوية التصوير والإيقــاع الموسيقى ، بينما إذا كان علميا متأدبا مال إلى الدقة فى تحديــد الألفــاظ ، والمصــطلحات ، مع الصور التوضيحية التى تخفف إلى حد ما من جفاف المادة العلمية .

ومــن حيث طبيعة الموضوع قد يتغلب الجانب الفكرى إن كــان الموضــوع المتــناول فكرة أو رأيا ، كما قد يتغلب التأثير العاطفى إن كان الموضوع يدور حول مشهد ، أو ناحية نفسية أو إنسانية .

كــذلك ينبغى أن يوضع فى الاعتبار (وسيلة النشر) فما ينشــر للخاصــة فــى مجلة متخصصة غير ما ينشر فى صحيفة يومية أو أسبوعية سيارة ، تخاطب القاعدة العريضة من الجماهير ، فمــثل هــذه الأخيــرة ينبغــى أن تكتب بلغة مبسطة ، وعبارة ميسورة ، وتراكيب سهلة ، وتذكر بين طياتها الأدلة المشوقة التى تجــذب الجمهــور ، وتشــده ، أما مقالة المجلة فيرتفع أسلوبها ، وتتعمق أفكارها ، وتجافى السهولة والتبسيط والجاذبية .

ثانيا : من حيث الشكل (الحجم) :

وإذا نظــرنا إلـــى المقالة من حيث الحجم وجدنا الصنفين التاليين:

١- المقالة القصيرة (مقالة الخاطرة) :

وهـــى المقالة التى تتناول فكرة واحدة محدودة ، أو ناحية واحدة من نواحى المجتمع ، ويأخذ الكاتب يعرضها بطريقة شائقة وغايـــة فى التركيز، وهو يستعين فى بنائها بالأسلوب الواضح ، والعبارات السهلة المفهومة .

ومـــثل هـــذه المقالات أو الخواطر قد يألف الكاتب اختيار عـــنوان ثابت لهما ، مثال ذلك : (نحو النور) لمحمد زكى عبد القـــادر ، و (فكـــرة) لمصـــطفى أمين ، و(ماقل ودل) لأحمد الصـــاوى محمـــد ، و (صندوق الدنيا) لأحمد بهجت ، و (من قريب) لسلامة أحمد سلامة، و (مواقف) لأنـــيس منصـــور ، و (مجرد رأى) لصلاح منتصر .. وغيرهم .

٢- المقالة الطويلة :

وهـــى المقالة التى قد تصل إلى عشر صفحات ، ويتناول الكاتب فيها جانبا محددا بعد التمهيد له إذا رأى ذلك ، ثم يأخذ فى عـــرض الأفكار الأساسية ، ويحللها إلى أفكار جزئية مترابطة ، كـــل ذلـــك بطريقة جذابة ، ولغة سهلة ، تحقق الإقناع والتأثير .

ومن كتاب هذا اللون : الدكتور طه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وأحمد أمين .. وغيرهم .

ثالثا : من حيث الأسلوب :

وإذا نظــرنا إلـــى المقالـــة من حيث الأسلوب وجدنا هذه الأنواع:

١-المقالة الأدبية :

وهـــى التـــى يهـــتم الكاتب فيها باختيار الألفاظ ، وجمال الأسلوب، وهندسة العبارة ، والإيقاع الموسيقى ، كما يهتم بالمزج بـــين الفكرة والعاطفة ، وحيوية التصوير والخيال ، ولا مانع من اللجوء إلى بعض المحسنات البديعية ، والأدلة الحطابية .

٢- المقالة العلمية :

وهـــى التـــى يلجأ الكاتب فيها إلى توضيح الحقائق العلمية بألفـــاظ محـــددة ، وأســـلوب دقـــيق ، وتكثـــر فـــى هذه المقالة المصطلحات العلمية، والأرقام الحسابية ، ويبتعد الكاتب فيها عن العاطفة ، والخيال ، والمحسنات البديعية ، وهذا النوع لا مجال له فى الدراسات الأدبية والبلاغية .

٣- المقالة العلمية الأدبية :

وهـــى التـــى يلجأ الكاتب فيها إلى توضيح الحقائق العلمية بصـــورة مشوقة جذابة ، تراعى فيها الموضوعية ، والدقة ، فى

أســلوب جميل ، وصور توضيحية ، بمعنى أنه يجمع بين الدقة ، والإمتاع، والتأثير ، ومثاله : مقالات الأدب ، والبلاغة ، والفلسفة ، وعلم النفس ، وغيرها .

ومع استيفاء الخصائص المميزة لكل لون من ألوان المقالة نحـــن نرى أن هناك عناصر عامة مشتركة بين أنواع المقالة كلها وهى :

(أ) تحديد الموضوع .

(ب) تــرابط الأفكـــار وتسلســـلها ، وبعدها عن التفكك والتناقص .

(ج) الإقـــناع عن طريق سلامة الأفكار ، ووضوحها ، وتأييدها بالبراهين العقلية أو العاطفية على السواء .

(د) العـــرض الشائق ، الذى يجذب القارئ ، ويؤثر فى نفسه وفكره .

(هـــ) تحقـــيق التكوين الفنى عن طريق ترابط الأفكار وانسجامها.

(و) القصـــر بحـــيث لا يتعدى بضع صفحات ، حتى لا يسمى بحثا، أو فنا آخر من الفنون الأدبية .

(ز) الذاتـــية ، فمهما كان موضوع المقال ، فإن الأديب أى أديب لا يستطيع أن يخفى عاطفته ، أو رأيه الشخصى .

(ح) النثرية ، فالمقال فن نثرى وليس شعرا لغلبه عنصر الفكـــر عليه ، وهناك مقالات أدبية تحشد فيها الصور ، والإيقاع الموسيقى، ومع كل ذلك فهدف العاطفة والخيال خدمة الفكر ليس إلا.

(ط) تنوع أسلوبه تبعا للأطر التى حددناها قبل :

* فالمقال الذى يعبر بأسلوب أدبى يهتم الأديب فيه باختيار الألفـــاظ الموحية ، والجمل الموسيقية ، والخيال الرائع ، والإيقاع المؤثر .

* والمقال الذى يعبر كاتبه بأسلوب علمى متأدب ، تظهر فـــيه الألفاظ الدقيقة ، وبعض المصطلحات العلمية ، بجانب بعض الصور التوضيحية ، والأسلوب الجميل .

* والمقـــال الذى يدور حول فكرة أو رأى ، يكون التركيز فيه على الجانب الفكرى من حيث الصحة ، والدقة ، والوضوح .

* والمقال الـــذى يدور حول مشهد ، أو ناحية نفسية ، أو اجتماعية ، يكون التركيز فيه على جمال العرض ودقته .

وقد ينصرف أكثر الكتاب إلى ما تقع عليه عيونهم ، مـــن شخصـــيات، أو مشـــاهد جميلة خلابة ، أو مواقف ، أو أفكار ، ويأخـــذ الكاتـــب يستنطق كل تـــلك المواقف والمشاهد والخواطر الـــبوح، ويفضـــى إليها بالأسرار ، وينصت إليها ، ومـــن هـــذا

يكــون لــنا ألوان مختلفة ومتعددة من ألوان المقال لا يمكن لأى إنسان أن يحصرهـــا مهما كان شأنه .

ألوان مختلفة من المقالة :

* المقال التصويرى :

وهــذا اللون من المقال يعنى برسم صورة قلمية لشخصية بعيــنها من الشخصيات ، ويأخذ يبرز محاسن تلك الشخصية ، أو عيوبها ، ويظهر أوجه الإعجاب فيها ، وما يحيط بها من بواعث السخرية ، أو الفكاهة ، وما إلى ذلك .

وهــذا المقال التصويرى إن هو إلا رسم لوحة تصويرية ، مثال ذلك الصور التى رسمها عبد العزيز البشرى ، ونشرها فى مجلة (السياسة الأسبوعية) ، وتناول فيها كبار الشخصيات التى عاصرها بأسلوب فكه ، فيه دعابة .

* مقالة النزال :

وهــذا اللون المقالى " هو الذى ينازل الكاتب فيه خصيمه فـــى الرأى ، ويناوئه فى عقيدة أو اتجاه ، ويصارعه من خلال مقالــه بطــريقة تدل على قدرته الصحفية ، ومهارته السياسية ، ودهائه العقلى " (١) .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٩٩ .

ويظهـــر هذا اللون المقالى عندما تكون هناك خصومة بين ناقدين أو أكثر حول قضية من قضايا الأدب أو الفن ، يحتدم فيها الـــنقاش بين أخذ ورد ، فى صور مختلفة من أساليب العرض ، والتدليل ، والإقناع .

أو هى تلك التـــى تختلف حولها وجهات النظر المتعاركة ، فهـــذا يرى ما لا يراه صاحبه ، وله معتقد يختلف كل الاختلاف عـــن معتقد زميله (١) .

ومـــثل هـــذا اللون المقالى مقالات الشيخ على يوسف التى كتـــبها فـــى صـــحيـــفة المـــؤيد بعنوان " قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء " ، والمعارك الأدبية التى ثارت بين كل من (العقاد) و (الرافعى) ، ونشرت بعض مقالاتها فى مجلة (الشروق) تحت عـــنوان (الســـفود) ، ومثل ما جاء فـــى الجـــزء الأول مـــن كـــتـــاب الدكتـــور / طـــه حسين (حديث الأربعاء) ، ومثل ما جاء فى مقالات محمد حسين هيكل تحت عنوان " حديث اليوم " .

* المقالة الفلسفية :

وهى لون مقالى رحب متشعب ، متعدد النزعات ، تختلط فـــيه دقائـــق الفهـــم والتأمل بسبحات الخيال والتصوير والمثال ،

---

(١) انظر : المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه ، د / محمد جاد البنا ص ٧٣ ، دار الكتاب السعودى ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـــ .

تـبحث فى النفس وتكوينها ، والخلق والوجود ، وإثبات الحقيقة ، أو نفى نتيجة، كل ذلك فى إطار علمى موضوعى .

وكـتاب هـذه المقالـة يتناولون مسائل شتى من المنازع الفلسفية، التى تهم الإنسان أيا كان ، بما يكتنفه من تاريخ عقائدى ، وتراكم حضارى ، ومثاله المقالات التى عنى بكتابتها الدكتور / زكى نجيب محمود ، والتى حررها كفن قائم بذاته ، وليس جزءا من التحرير الصحفى .

ومـن كتاب هذه المقالة أيضا : أحمد لطفى السيد ، وعلى أدهـم، وأحمـد فـؤاد الأهوانى ، وغيرهم ممن اهتموا بالكتابات الفلسفية فى عصرنا الحاضر .

هـذا وينبغي أن نشير إلي أن هناك سمات أسلوبية عامة تشترك فيها جميع أنواع المقالات [1] ، وهي :

(أ) وضوح الأسلوب : وهذا يقضى بأن يبتعد الكاتب فـى أى مقال عن الألفاظ الغريبة ، وألا يعتمد على العامية ، أو

---

(١) انظر على سبيل المثال ما قاله الدكتور / عبد القادر رزق الطويل فى " الخصائص العامة لفن المقال عند العقاد " (المقالة فى أدب العقاد) ص ٢٨٧ وما بعدها .

يـــتكأ علـــى الخيال البعيد ؛ وذلك لأن الغاية من المقال إنما هى توصيل الرأى أو الفكرة إلى القراء .

(ب) قـــوة الأســـلوب : بمعنى أن يبتعد الكاتب عن العـــبارة الضعيفة ، وألا ترد فى كلماته وجمله حروف متنافرة ، ومن ذلك البعد عن الحشو والتطويل فى الجمل .

(د) جمـــال الأسلوب : ومن جمال الأسلوب استخدام الألفـــاظ والصور الخيالية المناسبة ، والمحسنات البديعية البعيدة عن التكلف .

المقالة الأدبية

مفهومها:

لا نغالــى إذا قلــنا إن النقاد لــم يتفقوا على مفهوم محدد للمقالـــة الأدبية ؛ ويعود ذلك فى نظرى إلى تأخر نشأة المقالة إذا ما قورنت بالفنون الأدبية الأخرى (١) .

فمـــن الدارسين من يرى أن المقالة الأدبية هى التى تعالج قضـــية من قضايا الأدب (٢) ، بينما يرى آخرون أنها المقالة التى تتـــناول الموضوعات التى يمتزج فيها الفكر بالعاطفة ، فى عبارة واضـــحة منتقاة ، مع ملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وما يشيعه من إيحاءات (٣) .

ومـــن الدارســـين مـــن يذهب إلى ما هـــو أبعد من ذلك وأوســـع مـــيدانا للمقالـــة مـــن التحديد السالف ، فيحلقون بها فى ســـماوات عالـــية من الإتقان ، والخيال ، والابتكار ، ويجعلونها

---

(١) انظر : محاضرات فى فـــن المقالة الأدبية ، د / محمد عوض محمد . معهد الدراسات العربية ــ جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٢) فى محيط النقد الأدبى ، د/ إبراهيم أبو الخشب ص ١٧٥ . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٨ م .

(٣) المقالة فى أدب العقاد ، د/ عبد القادر رزق الطويل ص ١٧٠ . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٧٨ م .

تخاصم الجفاف والخشونة ، ومن ثم يدعون كاتبيها إلى التفنن فى اختيار الألفاظ ، وانتقاء العبارة الموحية ، وتهذيب الأسلوب ، بحيث تخرج المقالة قطعة فنية قريبة من روح الشعر .

إنها لا تختلف فى نظر هؤلاء عن قصيدة الشعر الوجدانى ، بكل ما فيها من حلاوة التعبير ، وجمال التصوير ، والتوهج العاطفى ، والعرض الشائق الذى يجمع بين الإيجاز ، ودقة الملاحظة ، وخفة الروح [1] .

وأصحاب هذا الرأى الأخير يقسمون المقالة الأدبية إلى قسمين :

(١) المقالة الذاتية .

(٢) المقالة الموضوعية .

ومما يلاحظ على الذين يأخذون بهذا التقسيم أنهم ثقفوا شيئا من الآداب الغربية ، أمثال الدكتور / زكى نجيب محمود ، وليس بخاف علينا مقالاته التى ملأت صفحات الصحف فى أيامه .

وإزاء هذا الاضطراب والاختلاف نريد أن نحدد بكل وضوح المفهوم العام للمقالة الأدبية بأنها المقالة التى تبحث فى قضايا الأدب والنقد والثقافة ، وقد تخرج عن ذلك فتصور

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة ، أنيس المقدسى . ص ٢٣٠ وما بعدها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ عام ١٩٨٤ م .

قضايا المجتمع ، وتصف الرحلات ، أو ما يلفت النظر من جميل المشـــاهد ، وحسن التصاوير ، وغير هذا وذاك مما يخطر للنفس من مشاعر الفرح والحزن ، وأشواق وذكريات ، كل ذلك بأسلوب أدبى جميل ، يعرضه الكاتب مصطبغا بشخصيته [١] .

وعلى هذا الرأى فكل ما يكتب بروح علمية موضوعية فى كل ما يعرض للكاتب من مسائل ، كالطب ، وعلم النفس ، وعلم اللغـــة ، ومشكلات المجتمع مـــن ناحية علمية ، وقضايا السياسة والاقتصـــاد ، كل تلك مقالات لا صلة للأدب بها ، ولا يمكن أن ينعتها أحد بأنها مقالة أدبية ، لأنها لا تتصل بالصياغة الأدبية .

ويقـــول الدكـــتور/ محمـــد يوسف نجم فى تعريفه للمقالة الأدبـــية : " إنهـــا قطعة نثرية ، محدودة فى الطول والموضوع ، تكتب بطريقة عفوية سريعة ، خالية من الكلفة والرهق ، وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب " [٢] .

ويعـــرفها الأستاذ / سيد قطب بأنها : " فكرة قبل كل شىء وموضـــوع ، فكـــرة داعية ، وموضوع معين يحتوى قضية يراد

---

(١) مقدمة فـــى النقد الأدبى ، د/ على جواد الطاهر . ص ٢٦٢ . وانظر كذلك تعريف الدكتور/ أحمد هيكل لها فـــى : (تطور الأدب الحديث فى مصر) ص ٤١٦ . دار المعارف ، مصر ١٩٦٨ م .

(٢) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ٩٤ ، ٩٥ . دار الثقافة ، الطبعة الرابعة .

بحـــثها، قضــــية تجمع عناصرها وترتب بحيث تؤدى إلى نتيجة معينة ، وغاية مرسومة من أول الأمر ، وليس الانفعال الوجدانى هو غايتها، ولكنه الإقناع الفكرى " (١) .

ويصفها الأستاذ أنيس المقدسى بأنها :

" لا تخـــتلف كثيـــرا عـــن الشـــعر الوجدانى المعبر عن اختيارات الشاعر الخاصة ، فالقصيدة لا تـــعد مـــن الشعر الجيد إذا خلت من حلاوة العبارة وجمال التصوير، أو إذا جفت فجاءت بـــلا مـــاء أو رواء كـــذلك المقالـــة ، علـــى أن جمال التعبير والتصـــوير فـــيها لا يعنـــى تكلـــف البدائع البيانية ، والتوهجات العاطفـــية ، بل يراد بها الاستعراض السوى الشائق ، الذى يجمع بين الإيجاز ، ودقة الملاحظة ، وخفة الروح " (٢) .

وعلى هذا فمجمل وصف هذه المقالة ما يأتى :

١ـــ أنها قطعة نثرية .

٢ـــ أنها محدودة الطول .

٣ـــ تقدم فكرة ، أو موضوعا ، أو قضية جديرة بالتناول .

٤ـــ يكون فيه انفعال وجدانى بارز .

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه ص ٩٢ . بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ م .

(٢) الفنون الأدبية وأعلامها ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

٥ـ أن تتسم بالأصالة فتعبر عن ذات الكاتب ، وأسلوبه ، وانطباعاته .

٦ـ تتسم بالإمتاع والإقناع .

٧ـ عباراتها واضحة ومنتقاة .

٨ـ فيها ما فيها من خفة الروح ، ودقة الملاحظة .

والحقيقة أن الحديث عن مقومات هذه المقالة هو كالحديث عن تعريفاتها وملامحها ، وما ينبغي أن تكون عليه موضوعا و أسلوبا ، وما ينبغي توافره فى كتابها ، فالوصول إلى تعريف جامع مانع فى كل ذلك أمر صعب وشاق .

ومما لا ريب فيه أن هذا اللون من الكتابة قد تأثر بعلوم العصر الحديث ومعارفه المختلفة ، الإنسانى منها والتجريبى على حد سواء ، وتعددت المناهج فيها بقدر ما أفاد الكاتب من معارف العصر ، الأمر الذى يؤكد أن كل المحاولات التى نبذلها نحن ونغير إنما هى محاولات تقريبية .

مصادر المقالة الأدبية وروافدها

أولاً : مصادر المقالة :

من الإنصاف أن نقول إن نشأة المقالة الأدبية وتطورها إنما هو مرتبط بتطور الصحافة ، فلقد نشأت المقالة فى أحضان الصحافة ، وتكفلت الصحافة برعايتها وإذاعتها ، وخدمة أغراضها المختلفة ، لدرجة تجعلنا نقول إن قليلين هم أولئك الذين نشروا نتاجهم فى كتاب دون أن يطلعوه على الناس من قبل فى صحيفة من الصحف [١] .

والحق أن المقالة الأدبية فى مصر ، وفى الوطن العربى لم توجد إلا مع الصحافة ، فبها تغير مفهوم الكتابة من كونها تأريخا ودرسا ، وتحقيقا علميا ، إلى نزوع فنى جديد ، سماته الإحساس بمسئولية الأديب الوطنية ، والقومية ، والاجتماعية ، والدينية ، وما إلى ذلك .

ومن المناسب أن تكون الصحافة بداية حقيقية لبداية نشأة المقال الأدبى ، وتنوعه ، وتعدد مصادر كتابته ، ومن هنا رأينا روادنا الأوائل يجمعون بين الصحافة والأدب .

---

(١) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ، ص ٥٦ .

وللوقوف على ذلك بأمر تفصيلى سأعرض مراحل تطور المقالة الأدبية [١] :

المرحلة الأولى :

وهذه المرحلة هى مرحلة النشأة [٢] ، وكتاب هذه المرحلة يمــيلون فى كتاباتهم إلى أساليب عصر الانحطاط ، فهم يحتفلون بالمحسنات البديعية ، والسجع الغث ، والزخارف المتكلفة ، ومن أشهر كتاب هذه المرحلة : رفاعة رافع الطهطاوى ، وعبد الله أبو السعود ، وتنتهى هذه المرحلة بنهاية القرن التاسع عشر .

المرحلة الثانية :

وهــى مــرحلة التطور ، وتبدأ هذه المرحلة ببداية القرن العشــرين ، وكــتاب هــذه المــرحلة قد خطوا بالأسلوب الأدبى خطــوات عظــيمة ، فلقد خلصوه من السجع الغث ، والزخارف المتكلفة الممجوجة ، ومن بواكير كتاب هذه المرحلة : محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا .

---

(١) انظر الأدب العربى المعاصر فــى مصر ، د / شوقى ضيف ، ص ٢٠٥ ومــا بعدها .

(٢) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ٦٥ ، ٦٦ .

ولعل خير من يمثل أعلام هذه المرحلة المتطورة : أمين الرافعى ، ولطفى السيد ، وطه حسين ، والمنفلوطى ، ومحمد السباعى ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد القادر حمزة ، أولئك الذين كانوا يخلبون القلوب والعقول بمقالاتهم الشاملة ، التى تختلف باختلاف شخصياتهم ، ومقدراتهم البيانية .

وكان للكثير من هؤلاء مقالات أدبية تتناول شئون الأدب والثقافة ، تلك التى لم تلبث أن أفردت لها مجلات أسبوعية أو شهرية خاصة ، مثل : الهلال ، والمقتطف .

المرحلة الثالثة :

وهذه المرحلة هى مرحلة المقالة الحديثة ، وتبدأ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وتستمر طيلة خمسين عاما تقريبا .

وقد شهدت هذه المرحلة ظهور مجلات أدبية غاية فى الأهمية مثل : (الرسالة) ، و(الثقافة) ، و (الكاتب المصرى) و(الكتاب) ، بل إنه ليمكن القول إنه على امتداد سنين هذه المرحلة أخذت مجلات مختلفة تظهر على الساحة معلنة عن نفسها .

ومـــن كـــتاب هذه المرحلة : أحمد حسن الزيات ، وأحمد أمـــين ، وزكى مبارك ، ومحمود تيمور ، وزكى نجيب محمود ، ومصـــطفى صـــادق الرافعى ، وقد امتازت مقالات هؤلاء بأنها أصـــبحت أثرا فنيا قيما يتسم بظهور الذاتية العاطفية ، وميلها إلى المقـــال القصصـــى ، مع مراعاة الثقافة العامة التى تتكفل بتربية أذواق الناس وعقولهم .

ولا بد أن نشير هنا إلى الكتب التى جمعت مقالات ، كتبها رواد هـــذه المرحلة فى دوريات قبل جمعها فى كتاب ، وصارت تمـــثل هـــذه المرحلة ، مثـــل : (وحى الرسالة) وهو كتاب فى عدة مجلات ، يضم الافتتاحية التى كان يكتبها أحمد حسن الزيات فـــى مجلـــة (الرســـــالة) فـــى صدورها الأول (١٩٣٣ ـــ ١٩٥١ م) ، و(أباطـــيل وأســـمار) لمحمود محمد شاكر ، وهو يجمع مقالات له نشرها فى مجلة (الرسالة) .

المرحلة الرابعة :

وهـــذه المرحلة هى المرحلة الأخيرة ، وفيها تخلت المقالة الأدبية عن الصدارة ، وتركت المجال للمقالة السياسية ، والمقالة الفلسفية ، والمقالة الاجتماعية .

وتبدأ هذه المرحلة ببداية الثلث الأخير من القرن العشرين ، ومن كتابها : على أمين ، ومصطفى أمين ، وسلامة أحمد سلامة ، وأحمد بهاء الدين ، وإبراهيم نافع ، وفهمى هويدى ، وأحمد بهجت ، وصلاح منتصر ، وأنيس منصور ، وغيرهم .

ومن أهم ما يميز الأسلوب الكتابى عند هؤلاء ، هو الاهتمام بالمعنى ، وقصر العبارة ، والترسل ، والوضوح ، والبعد عن المحسنات البلاغية واللفظية ؛ لأن الكاتب ليس عنده وقت يمكنه من التفنن .

ولعل أبرز ما يميز المقالة الأدبية فى بداية النهضة — وعلى وجه الخصوص فى المرحلتين الثانية والثالثة — ذلك الإقبال الشديد من الكتاب المتمرسين وغيرهم على سبر أغوار المجتمع ، واستعراض مشكلاته على صفحات الصحف فى هيئة نصوص أدبية — على رأسها المقالة — التى تشخص وتتأمل ، وتعالج ، وتقرح ، ومن هنا كانت المقالة الأدبية خير معوان على إظهار مكنون آمال أبناء البلاد وطموحاتهم وتطلعاتهم .

ثانيا : روافد المقالة :

والواقع أن روافد المقالة الأدبية كثيرة ومتنوعة ، ونحن فى هذا المبحث سنتناول كل تلك الروافد لنرى بعض ملامح

التأثير فى حركة هذا اللون الكتابى ، سواء أكان ذلك من مصادر قديمـــة ، أم كـــان من مصادر أخرى حديثة ، أم كان من روافد تتصـــل بطبيعة الكاتب ، وعصره وبيئته ، والأجواء التى أوحت بالـــنص الكتابى ، وسنحاول أن نتتبع ذلك من خلال تقسيم تأثرى لكل لون منه سماته المتميزة فى التأثير .

وفى رأينا أن كل هذه الروافد إنما هى أطر فنية مساعدة ، وروافـــد أدبـــية مكونة ومجددة ، يمكن أن تسمى جميعها بحركة تطـــور المقالـــة الأدبية ، وكلها فى الصميم عوامل طبعت المقالة وصبغتها ، فخرجت تشكل استجابة لها .

وهذه الروافد وإن أمكن عدها ضمن عوامل تهيئة ونهضة المقالـــة ، كالتعليم ، والصحافة ، والإذاعة ، والمكتبات ، وحركة الطـــباعة والنشـــر ، والبعثات والترجمة ، وغيرها ــ لكنها فيما نـــرى ذات أثر قوى فى توجيه فكر الكاتب ، ولها كذلك تأثير فى مضـــمون المقالة ، يسير جنبا إلى جنب مع الأثر الذى أحدثته فى إطارها ، وأشكالها ، وألوان صورها ، وغيرها ، وهذا ما يجعلها تخالف عوامل النهضة الأدبية العامة .

وتأسيســـا علـــى هـــذا نقول إن هذه الروافد قد انفعلت بها نفوس الكتاب ، واستجابت لها ، وفى خضم ذلك كله وجد الكاتب نفســـه يدفع دفعات كبيرة إلى إطار تطورى بعينه ، ويساعد بشكل

أو بآخـــر على أن يتفنن فى أدائه الفنى ، وفى موضوعاته الكتابية ، فأخذ يسوقها بصورة تنم عن موهبة أدبية ، وفن رفيع .

وهـــذه هــــى الـــروافد التـــى أمـــدت المقالة الأدبية فى الموضوعات ، والمناحى الفكرية ، والملامح الفنية .

١ـــ العوامل السياسية والاجتماعية :

فلـــيس يخفـــى أن العالم العربى فى هذه الفترة ـــ أى فى الـــربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وفى بداية القرن العشرين ـــــ كـــان يجتاز فترة متميزة فى تاريخه الطويل ، فلقد عانى من اســـتبداد الحكم الفردى [١] ، وقامت الدول العربية بمحاولات عدة للـــتخلص مـــن هـــذا الحكم التعسفى ، وما تبع ذلك من ثورات ، وتيقظ الوعى فى كل مكان من العالم العربى .

كمـــا أن الأمة العربية قد منيت بالاحتلال الأجنبى ، الذى كان سببا فى قطعها عـــن أسباب النهضة [٢] ، كما كان سببا فى

---

(١) راجع على سبيل المثال فى مصر : مذكرات أحمد عرابى ، أحمد عرابى ، دار الهلال فبراير ومارس ١٩٣٥ م .

(٢) تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات ص ٤١٨ . مطبعة الرسالة ، الطبعة الثالثة والعشرون .

تعـــرض مصر للصراعات الدولية التـــى كانت كارثة على الأمة ومصيبة عليها .

وهـــذه الأحداث والاضطرابات السياسية كانت ذات فضل علـــى مسيرة الأدب ، ذلك لأن تفاعل هذه الأحداث مع بعضها قد أثر فى الحياة الأدبية بشكل أو بآخر . يقول الدكتور/ زكى مبارك : " إن الأدب فـــى مصر لم يرتق إلا بفضل الفوضى السياسية ، وهى صورة من الفوضى الاجتماعية " [١] .

وما يقال عن المشكلات السياسية يقال كذلك عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، لقد انتشرت الطبقية [٢] ، وبذر المحتل كثيـــرا مـــن الأمـــراض والآفات ، مما دفع بالأمة إلى الثورة ، واتساع دائرة الدعوات الإصلاحية .

هـــذه هـــى معالم التطور البارزة فى النواحى السياسية ، والاجتماعـــية ، والاقتصادية ، وما واكب ذلك من مؤثرات دفعت إلـــى دعـــم الكيان العربى . وكان لهذا كله أثره البالغ فى توجيه الحركة الأدبية بشكل أو بآخر .

---

(١) الرسالة ، عدد ٣٥٠ ص ٤٨٧ فى ٩ صفر ١٣٥٩ هـــ ١٨ مارس ١٩٤٠ م .

(٢) انظر : فى أعقاب الثورة المصرية ، عبد الرحمن الرافعى : ٢ / ٣٢٩ . مطبعة الفكر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٩ هـــ ـــ ١٩٤٩ م .

إن الواقع الذى كان يتمثله كتاب المقالة قد طرأت عليه ـــ بواسطة هذه العوامل ـــ تغييرات كثيرة ، وتحولات اجتماعية ذات أثـــر ، وكـــان لهـــذا الواقـــع أثـــره فـــى تغير مسار المقالة فى موضوعاتها ، وفى المعالجات التى تمت حيالها .

٢ـــ العوامل الفكرية والأدبية :

كـــان العـــالم العربى ـــ وعلى وجه الخصوص مصر ـــ مسرحا للحركات الفكرية طوال تاريخه الطويل ، وكان للفكر دور واضـــح فـــى مقاومة الاستبداد ، وكان للمفكرين الدور نفسه من أمثال : الأفغانى ، والنديم ، ومحمد عبده ، لقد حملوا جميعا لواء الـــثورة علـــى الاســـتعمار ، وشاركوا فى إشعال الروح الوطنية والدينية والأدبية .

كما كان للطباعة والصحف دور كبير فى الحركة الفكرية والأدبـــية ، لقـــد وقفت الصحافة جنبا إلى جنب مع الكتب ، تعنى بـــالأدب ، وتصـــبح عامل جذب للجماهير إلى القراءة والاطلاع والتثقـــيف ، وتحمل لواء التجديد فى الدين ، والدعوة إلى الحرية والإصلاح [١] .

---

(١) الفكر العربى المعاصر ، أنور الجندى ، ص ٥٢ . مطبعة الرسالة .

ويهمـــنا بعـــد أن حددنا دور العوامل الفكرية والأدبية أن نجمـــل الحديث عن مصادر هذه العوامل ، والتى كانت ذات أثر خـــاص فـــى فن المقالة بصفة عامة ، وفى المقالة الأدبية بصفة خاصة :

(أ) التراث العربي القديم

وهـــذا التراث كان له أثره فـــى المقالة الأدبية : تنشئة أو تكويـــنا ، أو تجديدا لروحها ، وتطويرا لمضمونها وصورتها وما إلى ذلك .

وليس من شك فى أن كتاب المقالة كانوا على متابعة دائمة ، واتصال مستمر بأمهات الكتب التراثية العربية ، وفى هذا دلالة واضـــحة علـــى اعتدادهم بالتراث العربى ، واعتمادهم عليه فيما يكتبون .

ومـــن الإنصاف أن نقول إن التأثر بالتراث العربى يختلف فـــى درجة قوته وسعته بين الكتاب ، فالكتاب المحافظون يهتمون بالتراث أكثر مـــن غيره ، بينما الكتاب المجددون الذين يجمعون بـــين المحافظة والتجديد يطبعون هذا التأثر بأرواحهم ، ويضيفون إليه من عواطفهم ، ويشكلون ذلك كلـــه من تكوينهم وتصوراتهم للكون والحياة .

(ب) الثقافة الأجنبية

لا يستطيع أحد أن ينكر سريان تيارات الأدب الأوربى فى كتابات العرب ، وعلى وجه الخصوص تلك التى وصلت إلينا عن طريق القراءة للآثار العربية المتأثرة بالثقافة الغربية .

وما من شك فى أن كل ظاهرة أدبية حديثة فى المضمون أو فى الشكل تأثر بها كتاب المقالة العرب ، لها مصدرها فى الآداب الأجنبية .

ولو ذهبنا نلتمس أثر الأدب الأوربى ، أو الثقافة الأجنبية فى النثر الحديث لوجدناه ملموسا عند كثيرين على رأسهم : العقاد ، والمازنى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود تيمور ، وطه حسين ، ومحمد مندور ، وسلامة موسى ، وعلى أدهم ، وغيرهم .

وقد سبق أن قلنا إن الأدب العربى ظل خاليا من هذا اللون الفنى إلى العهد الذى بدأنا فيه نتأثر بالغرب ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بوادر للمقالة فى محاولات بعض الكتاب فى العصور القديمة ، إلا أن هذه المحاولات لم تتبلور بعد ، ولم تؤد بأصحابها إلى درجة التخصص فى فن المقالة .

ولا يعيب أدبنا العربى أنه مسبوق بهذا الفن ، أو أن يكون قد أخذه بمفهومه الفنى عن الأدب الغربى ، ذلك الذى بدأنا

نهضـــتنا الأدبـــية الحديـــثة بـــنقل آثاره إلينا ، وبترجمة روائعه ومحاكاته فى بعض أشكاله .

٣ــ التأثيرات الأدبية الحديثة :

وهناك تأثيرات أدبية حديثة أثرت فى كتاب المقالة الأدبية ، وهذه فى الواقع ظاهرة وملموسة فى كتابات الأدباء المجددين ، وهى تحتاج لمن يدرسها ، ويبحث عن أسبابها ، ويدرك أسرارها ، ونحـــن نظـــن أن ذلـــك أمـــر غايـــة فى السهولة وعلى وجه الخصـــــوص حيـــنما نستحضـــر مـــا كان للكتاب من علاقات وصداقات .

وأهم هذه التأثيرات ما يلى :

- ــ الأدب المهجرى .
- ــ الصحف والمجلات العربية .
- ــ المصادر الأدبية .
- ــ الجامعات .
- ــ المنتديات والصالونات الأدبية .
- ــ المعارك الأدبية .

كـــل هـــــذه العوامل كانت بمثابة مثيرات حركت مواهب الكـــتاب ، وأثرت فى أفكارهم ، وأذواقهم ، وأفهامهم ، وأشعلت

المعـــارك والخصـــومات الأدبية بينهم [١] ، تلك التى دارت " فى مخـــتلف الأجـــناس الأدبـــية ، وأفـــادت الأدب كثيرا ، وطوعت الأســـلوب الرصـــــين لحمولة من الفـــكر الواسع ، المعبر عن النفس .. " [٢] .

إنـــنا حـــين نتحدث عن المقالة الأدبية ، فإننا نرى أنها قد بـــدأت مـــع الظـــروف الجديدة ، والتغير الحضارى والاجتماعى والفكـــرى الـــذى بدأ يسود المجتمع ، حين أخذت عوامل النهضة تؤتى ثمارها ، وتؤثر فى حياة الناس وعقولهم وسلوكهم ، وتحدث تطـــورا كبيرا فى الذوق الأدبى ، وتسهم فى إذكاء النهضة الأدبية التى بدأت فى الازدهار فى بداية القرن العشرين الميلادى .

٤ــ النهضة التعليمية :

ونحن إذا رجعنا إلى الدور الذى لعبته العوامل السابقة فى ســـبيل تنمـــية المقالة والإعلان عنها ، والأخذ بيدها حتى تتطور وتصـــبح فنا مستقلا ، نقول إن هذا ليس وحده بل ارتبط بالعوامل الســـابقة عامل آخر قوى ، تسبب فى ازدهار المقالة وتطورها ، وهذا العامل يتمثل فى النهضة التعليمية الشاملة ، ووسائل الإعلام المختلفة كذلك .

(١) انظر : المعارك الأدبية ، أنور الجندى ، مطبعة الرسالة ، مصر ١٩٥٨م .
(٢) المقالة فى أدب العقاد ، د/عبد القادر رزق الطويل ، ص ٨٨ .

هـــذه كلهـــا تعـــد على رأس العوامل التى أمدت المقالة ، فانتشـــار التعلـــيم يزيد من قراء المقالة ، وهذه الطبقة المثقفة من القـــراء عامل إيجابى يساعد بلا شك على كشف الألوان الفنية فى المقالة ، وبخاصة الألوان المرغوب فيها .

هـــذا مـــن جهة ، ومن جهة أخرى فإن التعليم يعمل على تكـــوين الفـــرد ثقافـــيا ، ويجعلـــه يعبر بسهولة عـــن إحساساته ومشاعره وخلجاته ، وهذا الظرف هو الذى يناسب المقالة ، فهى خيـــر وسيلة يعبر بها الفرد المثقف عن رغباته وخلجات نفسه ، وهـــى أقدر الفنون النثرية على الإطلاق استيعابا للعوامل الثقافية والحضارية .

وبعد هذا العرض نستطيع أن نقرر دون تردد أن المقالة قد أصـــبحت دعامة كبرى من دعائم الأدب العربى الحديث ، وهى كفـــن تشـــكل ضربا قائما بذاته من ضروب الأدب وفنونه ، وقد شـــاعت كتابـــتها شيوعا واسعا ، حتى غدت فى وقت وجيز أهم فـــنون الكتابة ، وأضحت ممارستها طلبا للشباب ، لدرجة أنك إذا طالعـــت صحيفة يومية ، أو مجلة أسبوعية أو شهرية لا بد وأن تقـــع عيـــناك علـــى مقالـــة أو مقالات تتبوأ مكانها بين صفحاتها وأبوابها .

بـــل إن المرأة قد شاركت فى ميدان المقالة بمقالات يتوفر لهـــا العناصر الفنية ، والحق أنه كان لإسهام المرأة فى هذا الفن أمـــر يـــبعث عـــلـــى تطورها وذيوعها كفن أدبى يصور الحياة تصويرا صادقا، وهذا التصوير الصادق للحياة الإنسانية، ولتباين العلاقات البشرية والتجارب الحية،لا سبيل له حقيقة ما لم تشترك المرأة فيه .

ألوان المقالة الأدبية

توطئـــة

إن من يطيل النظر فى بواكير ومصادر المقالة الأدبية [١] من صحف ومجلات وكتب وغيرها ، سيجد ألوانا مختلفة من هذا اللـــون الأدبـــى ، يصعب على الباحث أن يلاحقها جميعا بالرصد والدراســـة والتحلـــيل ؛ ذلـــك لأن الأدب فى مصر ــ كغيره من الآداب العـــربية ــ يحـــوى فـــى فـــنونه النثرية مشارب فكرية وأسلوبية مختلفة ، تقترب حينا وتتباعد أحيانا أخرى .

ونحـــن نود فى هذا الفصل أن نجمع الألوان المختلفة من المقالـــة الأدبية ، وأن نتعرف على مناحيها ، واتجاهات كتابها ، وأن نتتـــبع ذلـــك فى كل الفترات التى مرت بها المقالة ، ثم نقوم بتصنيف ما يقع بين أيدينا من كل ذلك .

وبعد استقراء طويل أمكن أن نحصر مناحى المقالة الأدبية فى الألوان الأربعة التالية :

ــ المقالة الذاتيـــة .

ــ والمقالة الاجتماعية .

ــ والمقالة النقدية .

(١) انظر : تطور الأدب الحديث فى مصر ، د / أحمد هيكل ، ص ٤١٦ وما بعدها .

ـ والمقالة الوصفية .

أما ما سوى هذه الألوان الأربعة فكثير ومتفرق ، وإن كان لا يســتقيم إلــى حــد كبير مــع السمات والشروط التى تتطلبها المقالــة الأدبــية ، ولا يمكن لكتابها أن يتمثلوا الخصائص الفنية تمثلا كاملا أثناء كتابتهم ، ومن أجل هــذا لم تكن موضع اهتمام الناقد أو الدارس ، لضعف مقومات الأدب فى أكثرها .

وسنســتعرض فيما يلى أمثلة ونماذج للألوان الأربعة التى ذكــرناها ، ثــم نتبع ذلك بأمثلة ونماذج أخرى لعدد من المقالات المخــتلفة عــن الألوان السابقة ، لعل فى ذلك وقوفا على جوانب أخــرى من ألوان مقالية ، صال وجال فيها الكتاب ، وارتقوا بها وبغيــرها إلى مراتب عليا فى استشعار وظيفتهم ، وأداء ما عليهم مــن حــق تجــاه مجــتمعهم وأمتهم ، فكان لهم إسهام طيب فى المقالات : السياسية ، والدينية ، والعلمية ، والفلسفية ، والخاطرة ، والرسائل ، وعرض الكتب ، وغير ذلك .

أولا : المقالة الذاتية

مفهومها :

من الصعب أن نضع تعريفــا محددا لأنواع المقالة بصفة عامــة ، فضــلا عن المقالة الذاتية ، ذلك لأن معظم آراء النقاد

والدارسين تتلاقى فى كثير مما تذهب إليه فيها من تمييز الملامح والسمات الرئيسة لكل لون .

ثـم إنـنا نجد شيئا من السمات والصفات الخاصة بالمقالة الذاتـية فـى كثير من ألوان المقالات الأخرى ، كالوصفية ، أو النقدية ، وغيرها ، وإذا كان كل أديب يخلع على كتاباته أيا كانت ـــ وهذا أمر ضرورى فى الأدب ـــ شيئا من ذاتيته ، فإن الحال يقضـى بنا إلى أن نقول إن الخصيصة المتصلة بالذات لا بد من توافرها فى كل ألوان المقالة الأدبية .

وعلـى هذا فحال المقالة الأدبية ـــ وعلى وجه الخصوص الذاتـية مـنها ـــ هـى نفسها حال القصيدة الشعرية ، فالقصيدة والمقالـة الذاتية صنوان ، وليس بينهما مـن فرق إلا فى درجة الحـرارة ، فهذه الحرارة تعلو وتتناغم فتكون القصيدة ، أو تهبط فتكون المقالة الذاتية [1] .

والمقالة الذاتية فى نظر الدكتور محمد يوسف نجم هى تلك التـى " يصـطنع كاتـبها النثر الفنى وسيلة للتعبير عن إحساسه بالحياة وتجربته فيها " [2] .

---

(١) انظر : جنة العبيط ، د/ زكى نجيب محمود ص ١٤ . دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ـــ ١٩٨٢ م .

(٢) فن المقالة ، ص ٩٨ .

وهـــى مـــن وجهة نظر أخرى : " المقالة التى تعتمد على تأمـــل عمـــيق ، وتجـــربة ذاتية ، وعناية بالأسلوب من النواحى الجمالـــية ، وأنها أوفى طولا ، وأكثر انطلاقا ، وأرقى سلاسة ، وأن محـــورها الأساســـى الذى تدور حوله هو ذات المقالى ، بما تختزنه من تجارب ، وما تموج به من انفعالات " (١) .

وعلى هذا فقوام هذه المقالة هو شخصية الكاتب ، وطريقته فـــى التعبيـــر عـــن نفسه ، وما يعتمل فيها من تجارب حيوية ، والغايـــة الأولـــى فيها هو تصوير البيئة المكانية التى يعيش فيها الكاتـــب كمـــا تتراءى فى إحساساته ، وهذا الامتزاج هو ما يميز مثل هذه المقالة عن مقالات العلماء وأبحاثهم (٢) .

وفـــى أدبـــنا الحديث الكثير من هذه المقالة ، فلطالما عبر أدباؤنـــا عن ذواتهم ، ووصفوا حالات نفوسهم بعيدا عن التعقيد ، وقـــد اختلفت أساليبهم فى تصويرهم هذه الحالات باختلاف أثر ما يســـتقبلونه ، ومـــا تموج به حياتهم من دواعى الفيض ، وعوامل إبداع الأديب البيئية ، وباختلاف الطبائع والملكات .

---

(١) المدخل لدراسة الفنون الأدبية ، من إصدار قسم اللغة العربية ، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، ص ١٠٥ . دار قطرى بن الفجاءة للنشر ، قطر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

(٢) فن المقالة ، د/ محمد يوسف نجم ص ١١٤ .

ومــن أشـــهر كتاب المقالة الذاتية : أحمد حسن الزيات ، ومصــطفى صادق الرافعى ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وغيرهم .

فجمـــيعهم يـــنطلقون فى غناء نثرى جميل ، يجنحون إلى الطبــيعة ، ويحملـــونها الأشـــجان ، ويـــبوحون لها بالأسرار ، ويفضـــون لهـــا بالـــنجوى ، وقد خرجوا على مجتمعهم التقليدى ســـاخطين ناقمين ، باحثين عن حياة أخرى جديدة ، ينشدونها فى الخيال والحلم ، بعد أن لم تكن فى الواقع والحقيقة .

خصائص المقالة الذاتية :

يختلف الكاتبون فى سمات أعمالهم الأدبية ومميزاتها حتى ولـــو كانـــت تـــلك الأعمال متفرعة من ينبوع واحد ، كاختلاف الأشكال ، واختلاف الأساليب ، وما إلى ذلك .

وهذه هى أهم خصائص المقالة الذاتية :

١- استعمال ألفاظ المعجم الرومانسى فى سهولة وعذوبة .

٢- الولـــع بالصور المبتكرة المتخيلة ذات الطابع النفسى الداخلى .

٣- الاهـتمام بالجانـب الإيقاعـى والجمالـى ، واللفظى الشـكلى .

٤- البعد عن الأسلوب العلمى .

٥- التصوير البيانى .

ويتـناول كـتاب المقالـة الذاتية ضروبا مختلفة من فنون الحـديث عن النفس ، وما يتصل بها ، أو يؤثر فيها ، من أسباب السـعادة ، أو دواعى الشقاء ، سواء كانت منبعثة من ذات الكاتب أو من المجتمع الذى يعيش فيه ويحيط به .

إنها فى الحقيقة تصوير من جانب آخر لطبيعة الصلة بين المـبدع ومجتمعه ، وما يسر فيها ويبهج ، وما يبعث على العتاب والتذمر .

والمقالـة الموضـوعية هى قسـيم المقـالة الذاتـية ، حيث قسم بعض الأدباء والنقاد المقـالة إلى قسمين : (ذاتـية) و (موضـوعية).

فأمـا الذاتـية : فكمـا سبق القول هى تلك التى ارتبطت بشخصية قائلها ارتباطا جعلها تصويرا لها أو لبعض أحوالها .

وأمـا الموضـوعية : فهى التى انصبت العناية فيها على الموضـوع نفسه ، وانفصلت عن شخصية بانيها انفصالا كاملا ،

وقــد عمت المقالات الموضوعية حتى شملت جميع فروع العلوم الطبيعية والإنسانية (١) .

والحقيقة أن هذا الفصل بين القسمين أمر قد تصل صعوبته إلــى حــد الاســتحالة ، والمقالــة والحالة هذه تنمى إلى أظهر الموضوعين فيها ، أو إلى الذى كان السبب فى إنشائها ، وهذا قد يخفى إذا لم يدل اللفظ عليه .

ثانيا : المقالة الاجتماعية

والمقالــة الأدبــية الاجتماعــية هى تلك المقالة التى تعالج أدواء المجــتمع وأمراضـــه ، مــثل الجهل ، والفقر ، والعادات والتقاليد البــالية ، كل ذلك بأسلوب أدبى راق ، خال من الابتذال والمباشــرة الفجــة ، وفى صياغة هى قريبة من الصياغة الفنية الرفيعة .

والكاتب فى المقالة الاجتماعية هو الكاتب الأديب ، وليس الكاتب الاجتماعى وحسب ، ومن ثم فلا بد أن يكون " ممتازا فى ثقافــته وعلمـــه ، وعقله وفكره ، وكياسته ورأيه ، يقف نفسه من الأمـــة أو الشعب موقف المصلح الذى يريد أن يصل نفسه بقومه

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ .

بغية الوصول بهم إلى مستقبل أفضل ، وحياة أكمل ، وعيش أكثر سعادة ورغدا .. " [١] .

ولـــيس يجهل أحد أن البلاد كلـــها ــ حينما بزغت أنوار النهضة ــ كانت تئن تحت وطأة الاستعمار ، وهذا هو السبب فى تأخر البعث الاجتماعى ، فلقد أقر المستعمر الأوضاع الاجتماعية السـيئة ، ولم يوجه سياسة الحكومة نحو الإصلاح الاجتماعى ، ولـم يجعلــه هدفا ينوى تحقيقه ، الأمر الذى جعل الأمة تتدهور اجتماعيا تدهورا بالغا .

ليس هذا فحسب ، بل إن المحتل قد بذر فى كثير من البلاد العــربية كثيــرا مــن الأمراض والآفات الاجتماعية ، مما سبب انحلالا اجتماعيا عم جميع الطبقات الشعبية فى مصر على السواء [٢] ، فقــد ذاع الــربا ، وكثــر المــرابون ، وانتشرت الخمور والخمارات ، وعم الفقر ، والمرض ، وغير ذلك .

وهــنا ظهر عدد مــن المصلحين ، وأخذوا يعكفون على دراســة أحوال المجتمع ، وجهر كثيرون منهم بدعوات إصلاحية تدعو إلى التمسك بالدين وبالمثل العليا ، وتحارب الفقر ، والجهل

---

(١) فى محيط النقد الأدبى ، د/ إبراهيم أبو الخشب ص ١٤٩ .

(٢) راجع فى أعقاب الثورة المصرية ، عبد الرحمن الرافعى : ٢٦٣/٢ وما بعدها . مطبعة الفكرة ، القاهرة الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤٩ م .

، والمــرض ، ودعــوا كذلك إلـــى إنصاف المرأة ، وإخراجها مـــن عــزلتها ، ونـــادوا بتعليمها ، وتثقيفها حتى تسـتطيع أن تـنهض بأعــباء الأسرة ، وإعداد أبناء الأمة إعـدادا يقفها فـي مصاف الأمم المتمدينة (١) .

وخيــر من يمثل هــذا اللــون مــن المقالات : قاسم أمين ، والمنفلوطــى ، وهــيــكل ، والرافعى ، وأحمد أمين ، وأحمد لطفــى الســيد ، وأحمــد حســن الزيات ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، والعقاد ، وغيرهم .

هذا هو الميدان الذى صالت فيه المقالة الاجتماعية وجالت ، إنهــا بمــثابة أبحــاث عامــة لكل الأدباء ، يتنوعون فيها فى الأسلوب ، وتختلف طرائق تعبيرهم .

فكــل كاتــب لــه أسلوبه الذى يلائم نفسه ، وكل أديب له وســيلته الخاصــة به فى العرض والتوضيح . فالمازنى يستخدم الأســلوب الفكــه الساخر ، معتقدا أن لهذا الأسلوب أثرا فى شد انتباه المخاطب ولفت نظره ، وأحمد أمين يكتب بأسلوب بعيد عن الهزل والسخرية ، ويجنح قاسم أمين إلى الأسلوب الخطابى الثائر العنيف ، ويميل أحمد حسن الزيات إلى الأسلوب الهادئ الرصين

---

(١) انظر : تاريخ المسألة المصرية ، ترجمة العابدى وبدران ص ٢٩٠ وما بعدها .

، وعلـــيه فالسمات الأدبية فى المقالة الاجتماعية هى المعيار الذى نـــدخل بـــه المقالة الاجتماعية فى دائرة (الفن الأدبى للمقال) ، بحـــيث إذا انتفـــى الشـــرط الأدبى خلت من إغرائها لنا بالدرس والـــتأمل ، وعددناها فى عداد النثر المقالى السريع الذى تمتلئ به الصحافة كل يوم .

ولا ينبغـــى أن يعنـــى دارس المقالة الأدبية الاجتماعية بما ينشـــره بعض الباحثين من دراسات علمية ، وأبحاث دقيقة تمس المجـــتمع فى كثير من أموره ، كالتربية ، والأسرة ، والزواج ، والنمو ، والطلاق ، وخلاف ذلك ، فمثل هذه الأبحاث تلتزم نهجا علمـــيا أكثـــر مـــنه أدبيا ، ومن هنا تبتعد عن الطبع ، والتدفق ، والعاطفة ، وتخرج من دائرة التناول الأدبى .

وتمتلـــئ المقالة الأدبية الاجتماعية بزخم اجتماعى يعكس للقـــارئ عمـــق العلاقة والصلة بين الأديب والمجتمع ، ومدى ما لدى الكاتب المقالى من حرص على أن يأخذ مكانته فى الإصلاح والتوجيه .

إن أهمـــية المقالـــة الاجتماعـــية إنما تكمن فى أنها تعطى الـــباحث إيحاء تاريخيا عن مراحل التكوين الاجتماعى ، وتصور بشـــكل أو بآخـــر أسلوب التفكير الاجتماعى ، وما هى المؤثرات

المخـــتلفة التى تقف وراء أفراد المجتمع فى أحلامهم ، وآمالهم ، وقبولهم ، ورفضهم ، وغير ذلك (١) .

إنها تقف بنا على أسلوب أدبى خال من التعقيد والإحالة ، وبعيد عن التكلف والوعورة ، فكاتب المقالة الاجتماعية هو أقرب مـــا يكون إلى الوضوح والانكشاف ، وأبعد ما يكون عن الحوشى والغــريب والغموض ، وفردية الهموم ، ولعله لذلك كانت المقالة الاجتماعـــية أقــل ألـــوان المقـــالات الأدبية احتفاء بالتجويد فى الأســـلوب الأدبـــى الـــذى كثـــيـــرا ما يعمد إليه الكاتب المقالى الموهوب .

خصائص المقالة الأدبية الاجتماعية

ســـبق أن قلنا إن هناك طائفة غير قليلة من الكتاب التزموا بمعالجـــة مشـــكلات الواقـــع الاجتماعـــى ، وأخذوا يسعون إلى الإصـــلاح ، لأنهم على قناعة من أن دورهم فى الحياة لا يقتصر علـــى الإبداع الفنى ، والابتكار فى الصور والأساليب ، وتنسيق القصائد ، وتدبيج المقالات .

إن إحســـاس هؤلاء الكتاب بالواقع كان بالغا ، بل إن هذا الإحســـاس كاد يفقد كثيرا من المقالات كل ميزة فنية ، وليس ذلك

---

(١) راجع : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، د/ عبد اللطيف حمزة .

إلا لاندفاعهم بشدة نحو الفكرة ، وإصلاح المعوج ،وتقويم المنحرف من أمور الحياة .

ويمكن أن نلخص أهم الخصائص الفنية للمقالة الاجتماعية فيما يلي :

١ ــ الاتكاء على الجملة الإنشائية .

٢ ــ العناية بالفكرة ، والاهتمام بالمعنى ، والاتجاه إلى التحليل والتعليل والإقناع .

٣ ــ الميل إلى السهولة والواقعية والوضوح .

٤ ــ البعد عن الخيال ، والدقة فى اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع .

٥ ــ عدم الاتكاء على عنصر الفن مثل : الخيال ، والعاطفة والصور الموحية الجميلة ، والتراكيب الممتعة ، والألفاظ الموحية وغير ذلك .

٦ ــ الصدق فى العاطفة ، والدقة فى التصوير ، والتحرر من المحسنات البديعية .

٧ ــ إقامة الأدلة على الفكرة التى يطرحها الكاتب ويعالجها .

على أن أساليب الكتاب متفاوتة فى هذه الخصائص ، فبعضهم يميل إلى السهولة وأحيانا إلى الضعف ، ومنهم من يميل

إلـــى الوضوح وسلامة العبارات ، ومنهم من يميل إلى الأسلوب الصـــحفى الخالـــى مـــن الإتقان والتأثير إلا فى لمحات بعينها ، وبعضهم يميل إلى اللفظ القريب من الشاعرية ، والمثالية فى ذلك كله أن تأتى استجابة الأديب لنزعات الفن ، ودوافع القول ، وجدا ، وتفكيرا ، وإصلاحا .

ومن نماذج المقالة الاجتماعية ما كتبه الأستاذ / على أدهم فـــى قضية " الصراع الدائم بين الرجل والمرأة " لقد عرض هذه المشـــكلة باعتبارها أبرز القضايا الاجتماعية [١] ، وعبر فى بداية المقالة عن خطورة الخوض فى هذه القضية ، ثم تحدث عن حالة المـــرأة فـــى العصور المختلفة ، وكشف عن إعجاب الكثير من الكتاب بسير النساء .

من كتاب المقالة الاجتماعية الطويلة

الأستاذ / مصطفى صادق الرافعى

ولـــد مصطفى صادق الرافعى فى (بهتيـــم) إحدى قرى محافظـــة القليـــوبية بمصـــر عام ١٢٩٨ مـــن الهجـــرة الموافق عـــام (١٨٨٠ م) ، وبهـــا قضـــى شطرا من صباه ، ثم التحق بمدرســـتها الابتدائية ، وقد حفظ القرآن الكريم وهو صغير . ولم

---

(١) لاحظ : نظرات فى الحياة والمجتمع ، على أدهم ، ص ٥٧ ومـــا بعدها . دار المعارف ، مصر ١٩٧٨ م .

يحصل الرافعى فى حياته على شهادات ذات قدر ، فالمعروف أن أعظـم شـهادة حصل عليها هى الشهادة الابتدائية ، وقد حصل عليها من مدرسة المنصورة عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) وكانت سنه آنذاك حوالى السابعة عشر عاما .

وعلى الرغم مما أصيب به الرافعى من مرض أضعف من صـوته وأفضـى بسمعه إلى الصمم ، فإنه قد انكب على القراءة والـدرس والمـراجعة ، وحصـل معـرفة ذات شـأن فى الفقه والأصـول ، والحديث ، وعلوم اللغة ، والتاريخ وعلوم الأدب ، والسـيرة وهـو يعـد معلما من معالم الشعر الحديث ، وقد ظل أنموذجا رائعا للصبر حتى توفاه الله عام ١٣٥٦ هـ (العاشر من مايو عام ١٩٣٧ م) .

والحقـيقة أنـه قـد دارت حـول الرافعى دراسات كثيرة ومتعددة ، ومن الأسف أن أغلب هذه الدراسات لم توف أديبنا حقه ، ولـيس فـيها من العمق ما يستحقه أدبه ، وقد ادعى كثير من الدارسين أن الرافعى ما كان يقرأ إلا الكتب القدمية ، وأنه لم يقرأ مـنها إلا كـتب اللغـة والأدب ككتب الجاحظ وابن قتيبة ، وأبى الهلال العسكرى .

وفضـــلا عـــن ذلك كله فإننا إذا تجاوزنا أولئك الدارسين المعـــادين للرافعي [١] ، الذين كانوا يصدرون فى رأيهم عن أدبه عن موقف مضاد له ، وكانوا يظلمونه ، ولا يعترفون له بفضيلة غيـــر مـــا يعيب ويسوء . أو تجاوزنا الدارسين المحايدين [٢] ، الـــذين كانت كثرة عداوات الرافعى تصدهم عن الكتابة المنصفة خشية الحرج ، أو تفاديا مـــن الوقوع فى خصومات وعداوات ، فإنـــنا نجد الدراسات التى دارت حول الرافعى قد وفت أبوابا فى أدبه ، وتركت أبوابا أخرى ـــ وبخاصة شعره ـــ الأمر الذى أدى إلى إسدال ستائر كثيفة من النسيان على (الرافعى الشاعر) .

ومـــن الدارســـين المحايـــدين الذين أحسوا بالرغبة فـــى الانتصـــاف للرافعـــى الدكتور / مصطفى الشـــكعة ، فقـــد ألف كـــتـــابا بعـــنوان : " مصطفى صادق الرافعى ، كاتبـــا عربيا ، ومفكـــرا إســـلاميا " [٣] ومـــن يقرأ الكتاب يلاحظ أنه ألم إلمامة

---

(١) من أمثال : سيد قطب ، والدكتور زكى نجيب محمود ، والعوضى الوكيل ، والدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، ومحمد خليفة التونسى ، وأحمد عبد الغفار عطا .

(٢) أمثال : عبد السلام هاشم حافظ ، والدكتور كمال نشأت ، ومصطفى نعمان البدرى ، والدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور على عبد الحليـم محمود ، والدكتور عبد العـــزيز المقالح ، وغيرهم .

(٣)صدر هذا الكتاب فى بيروت عام ١٩٧٠ م ، كما أنه طبع مرة ثانية عام ١٩٧٨ م .

سريعة ببعض فنون الرافعى ، وقد ركز الكتاب على الجانب الإسلامى فى أدبه ، كما ركز على الجانب البيانى عنده ، أما عن شعر الرافعى فإنه لم يذكر شيئا عنه إلا فى صفحتين ونصف هما ص ٢٣ و ص٢٤ وجزء من ص ٢٢ .

وهذا واحد يعد على رأس الدارسين الموالين للرافعى ، وهو تلميذه وصديقه الأستاذ محمد سعيد العريان ، وله عن الرافعى كتاب عنوانه " حياة الرافعى " كما أن له عددا كبيرا من المقاولات عن الرافعى . والحق أن كتابات العريان وإن كانت فاتحة الطريق ، وتمهيدا لمن جاء بعده من الدارسين لأدب الرافعى ، لكنها تتسم بصفة عامة بالسرعة ، وليس فيها من العمق ما يستحقه أدب الرافعى .

ولنضرب مثالا آخر لأحد الموالين للرافعى وهو الأستاذ حسنين حسن مخلوف ، فقد كتب متأخرا تحت عنوان " مصطفى صادق الرافعى – حياته وأدبه " [١] . ومع دفاعه عن الرافعى جاء كتابه على أحد عشر فصلا ، وقد أغفل شعر الرافعى ، ولم يأت فى الكتاب بفصل عن (الرافعى الشاعر) :

---

(١) نشرته دار الهلال فى سلسلة كتاب الهلال فى مايو ١٩٧٦ م .

والحقــيقة أن الرافعى صاحب موهبة فطرية متعددة ، وقد قرأ فى كافة الفنون ، وزود نفسه بما يستطيع من معرفة وثقافة ، وقــد اهــتم بالفكــر والفلسفة والاجتماع ، كما أنه مولع بالكتب المتــرجمة ، وكان يتوفر عليها قراءة وفهما ، وله ملكات تساعده علـــى الفهم والمراجعة والنقد وسبر أغوار ما يقرأ ، وهذا يتضح فـــى تناوله لنقد نص من النصوص ، أو فى تصديه لشرح فكرة ، أو بسط رأى من الآراء ، وهذا يعنى أن الرجل هو الذى يسيطر على ثقافته ، ولعل هذا هو السبب فى أنه عاش حياته فى معارك أدبـــية وفكرية متصلة ، وقد انتقد فى شعره المبكر الأوضاع التى لا تروقه ، وانتقد شعراء عصره ، وغير فى ترتيبهم .

والرافعـــى لم يخاصم ثقافة ، ولم يعاد معرفة . ورغبة منا فـــى تقديم الدليل ، وعدم الحكم على شىء من غير معرفة ودراية ، وتأكــيدا للــتخلص من أغلال المتابعة وخطل المشايعة ، وعدم الاكتفاء بترديد ما يقال وتكرار ما يشاع ، نأبى إلا أن نعيد النظر ، ونطــيل القــراءة والفهم فى أدب الرافعى ونركز الحديث حول جانــب من جوانب أدبه وهو (شاعريته) الذى أرى أن الرافعى غــبن فــيه كثيرا ، فحرى بنا أن نهتم (بالرافعى الشاعر) وأن نــدرس شــعره وبخاصـــة بعد أن زالت أسباب الإحن ، وامحت ضـــروراتها ، وذهبت منافسات مخالفيه ومخاصميه مع الزمن ،

ولـــم يعد بمقدور أحد أن يتهم الأستاذ الرافعى ، أو أن يقلل من شـــاعريته ، فهـــو شاعر نضجت وسائله ، واتضحت فى شعره معـــالم شخصيته ، ولم ينفصل فيه تحت أى ظرف من الظروف عـــن واقعه وعصره ، وغدا علما يشار إليه فى الشعر كما يشار إليه فى الأدب والنقد والبيان .

ثقافة الرافعى :

إذا عرفنا أن الرافعى لم يحصل من الشهادات غير الشهادة الابتدائية أدركنا آفاقه الثقافية ، وأنه لا يعتمد على الموهبة فحسب ، وإنمـــا أثرى نفسه بالقراءة وصقلها بالإطلاع . وإذا كان قد قال عـــن حفظـــه للقرآن الكريم وهو صغير : " كنت فى العاشرة من سنى وقد جمعت القرآن كله حفظا وجودته بأحكام القرآن " [١] ــ فإنـــنا نـــدرك أن الرافعـــى كان يأخذ نفسه بالشدة ، وأنه لم يدع القـــراءة ما وجد [٢] إليها سبيلا ، وأن ثقافته عربية أصيلة تجمع بين الحفظ والفهم والرواية ، كما ندرك ما يصدر عنه الرافعى فى أدبه ، وأنه قد أتقن وسائله الأدبية إتقانا تفوق به على لداته .

وقد دارت ثقافة الرافعى حول :

---

(١) وحى القلم ، للرافعى : ٣ / ٣١ . الطبعة السابعة .

(٢) راجع " حياة الرافعى " لمحمد العريان ص ٣٣ . المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٥٥ م .

(١) الثقافة العربية القديمة .

(٢) الثقافة العربية المعاصرة .

(٣) الثقافة الإنسانية العامة .

والحق أن الرافعى قد صال وجال فى هذه الألوان ، وأبرز ثقافة ومكانة ، وتبوأ مكانا اجتماعيا بمقالاته ما كان ليتبوأها لولاها ، ومن الذين شهدوا له بالثقافة والبراعة فى الإحاطة والمعرفة الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة . فهو يقول : كان الرافعى رحمه الله حجة على علوم اللسان ، ثقة فى فنون الأدب ، عليما بأسرار اللغة ، بصيرا بمواضع اللفظ ، خبيرا بمواقع النقد ، ومحيطا بمذاهب الكلام ، وقلما تتهيأ هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء " [١] .

وتتضح ثقافة الرافعى فى أعماله المبكرة والتى تتمثل فى :

(١) **مقدمة ديوانه الأول** : وقد كتبها وهو دون الثانية والعشرين من عمره ، وقد أثارت هذه المقدمة العلماء بما فيها من إحاطة وبيان ، وفهم وتمكن ، لدرجة أن عالما من علماء ذلك الزمان ظن أنها ليست من إنشاء الرافعى وإنما هى مسروقة [٢] .

---

(١) وحى الرسالة ١٩٣٧ .

(٢) حياة الرافعى ص ٤٩ .

كما كشفت هذه المقدمة عن مدى فهم الرافعى لمعنى الشعر ، ومــدى إدراكـــه للاتجاهات الفنية التى سلكها الشعراء والفروق الإبداعــية التى كانت بينهم ، والواقع الذى لا شك فيه أن وقوف الرافعـــى على مثل تلك الأمور وهو فى مقتبل حياته الثقافية يؤكد موهبـــته الفطرية ، كما يؤكد غزارة اطلاعه ، وتوفره منذ وقت مبكر على القراءة والتحصيل .

(٢) **آراؤه الجــريئة** : والمعـــروف أن الرافعى قد نشر آراء جريئة كانت لها آثار جليلة ، فقد نشر عام ١٩٠٥ م رأيا فى مجـلـــة " الثريا " تناول فيه شعراء عصره ، وخالف فيه العرف الأدبى ، فغير فى ترتيب الشعراء وجعلهم فى طبقات ثلاث :

* الطـــبقة الاولى : عبد المحسن الكاظمى ، والبارودى ، وحافظ إبراهيم ، والرافعى .

* الطـــبقة الثانية : إسماعيل صبرى ، وشوقى ، وخليل مطران ، ومحمـــد توفيق البكرى ، وداود عمون ، ونقولا رزق الله ، وأمير الحـــداد ، ومحمـــود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال ، وحفنى ناصف .

* الطـــبقة الثالثة : أحمد الكاشف ، والمنفلوطى ، وأحمد محرم ، وإمام العبد ، والعربى ، وأحمد نسيم .

ونشر فى شهر مارس من السنة نفسها (١٠٩٥ م) مقالة فـــى المقتطف بمناسبة وفاة البارودى فى ذكراه الأولى قال فيـــها عــنـــه : " إنه شاعر فحل مجود ، ضيق الفكر ، ضعيف الحيلة فـــى إبراز المعانى واختراعها [١] .. وقد كرر هذا الرأى الجرئ عن البارودى مرة ثانية عام ١٩١٦ م فى رسالة بعث إلى تلميذة " أبى رية " [٢] .

ولـــيس مـــن شـــك فـــى أن مثل هذه الآراء تدل على ثقة الرافعـــى بنفســـه ، وعلى تمكنه ومقدرته ، كما توقفنا على ثقافته الواســـعة ، ولم يكن له أن يتصدى لمثل ذلك لولا تكوينه الثقافى الـــرحب ، ومعـــرفته المكينة ، وقدرته الواثقة ، تلك التى تجعله يتصدى لآراء جريئة ينأى عنها من يتقدمونه سنا وخبرة من أبناء عصره .

(٣) مؤلفاته العلمية والأدبية الجادة :

وهـــى مـــؤلفات عالم باحث ، يديم النظر ، ويعمل الفكر ، ويكثـــر التنقيب ، عالم له عقلية نقدية متحركة ، تطمح إلى التفوق والسموق .

---

(١) المقتطف مارس ١٩٠٥ م .

(٢) انظر " من رسائل الرافعى " ٤٣ ص ٢ . دار المعارف .

والمعـــروف أنـــه قـــد صدر للرافعي ديوان النظرات عام ١٩٠٨ م . والعجـــيب أنـــه قـــد صدر له ــ وهو في الثلاثين ــ الجـــزء الأول مـــن كتابه (تاريخ آداب العرب) عام ١٩١١ م ، وهو كتاب علمي جاد ، فيه جهد ونفاذ بصيرة ، وإحاطة ومنهاج ، كما أنـــه يـــعد تجديدا في الدراسات الأدبية ، وعملا جديدا في التألـــيف الأدبـــي ، فالرافعـــي نفسهِ هـــو الـــذى وضع منهجه ، وحـــرر خطته ، وجمع مادته ، وافتتن في إخراجه . والذى لاشك فـــيه أنـــه لـــولا مـــا كان للرافعي مـــن ثقافة واسعة لمـــا كان باســـتطاعتـــه أن يؤلـــف مـــثـــل هذا العمل العلمي الجاد ، الذى اســـتقبله المجـــتمع العلمي في مصر استقبالا ممتازا ، فأثنى عليه الأدباء ، وكتب عنه المبرزون مـــن النقاد .

وفضـــلا عما صدر للرافعي من مطبوعات [١] فإنه ينفرد دون غيـــره بأمرين : الأول بما له من أعمال مخطوطة ، وشعر مبـــثوث فـــي الصـــحف والمجـــلات . والثاني بما له من رسائل

---

(١) له في مجال الشعر سوى دواوينه التي ذكرناها " النشيد المصرى الوطني ١٩٢١ م " . وله في مجال النثر غير كتابه " تاريخ آداب العرب " : " إعجاز القرآن ١٩١٢ م وهو الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب في طبـــعته الثانيـــة ، و " حديث القمر " ١٩١٢ م و " المساكين " ١٩١٧ م ، و "رسائل الأحزان " ١٩٢٤م ، و " السحاب الأحمر " ١٩٢٤م ، و " تحت راية القرآن " ١٩٢٦ م ، و " أوراق الورد " ١٩٣٠ م ، و " على السفور " ١٩٣٠ ، و " وحى القلم بأجزائه الثلاثة .

ومقالات ، وأعمال علمية كاملة ، كتبها بخط يـده وأودعها عنـد غيـره ليضـع عليها اسمه (١) ، هذا بالإضافة إلى أفكاره وآرائه التى انتحلها الناس ، ولا سيما الأفكار الدينية الإسلامية .

ولعـل أظهـر ما يوقفنا على ثقافة الرافعى الواسعة والتى خـرجت عـن حدود معرفة الأدب العربى إلى الفكر العالمى تلك الرسـالة التى أرسلها الرافعى عام ١٩١٢ م إلى تلميذه أبى رية ، والتـى تحـث الطالب على ألا يدع القراءة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهى رسالة توقفنا على أستاذية الرافعى ، كما توقفنا على جانب من جوانب تكوينه الثقافى والأدبى (٢) .

أدب الرافعى :

أدب الرافعى أدب معبر عن صاحبه وعالمه ، وما يجيش به وجدانه ، وذلك الأدب ينظم الحياة التى عاشها الرافعى ، ويعبر عن نفسه وعصره تعبيرا رقيعا خاصا .

وأدب الرافعى وإن اختلف النقاد والدارسون حوله فإنه يعد صـوتا قـويا للأصالة والتجديد القائم على فهم القديم ، وقد أجمع الباحـثون علـى أن معارك الرافعى الأدبية كان لها أثر بالغ فى تنشيط الحياة الثقافية وإيجاد جو من الحرية والنقاش .

---

(١) انظر " من رسائل الرافعى " ص ١٠٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ .

يقول الدكتور عبد العزيز المقالح عن أدب الرافعى :

" والأعجب أن طه حسين والعقاد وغيرهما قد نصبوا من أنفسهم ســدنة للجديد ، وأنصارا للتجديد ، فى الوقت الذى سعوا بكل ما ملكــوا مــن شهرة أدبية أن ينصبوا من الرافعى صنما للتقاليد ، وداعــية للتقيــيد والجمود وهو ما كان إلا داعية للتحول وهادما لصــروح الجمــود ، ولكــن من داخل التراث ومن قلب الثقافة العــربية ، وبعد أن اتسعت معرفته بهذا التراث واستوعب أصوله وأدواتــه ، حتى لم يفته منه شاردة ولا واردة ، وكان له بعد ذلك حق الاجتهاد والتنظير للجديــد فقط ، صار بحق أحد أئمة اللغة ، وأجل أساتذتها فى العصــر الحديث [١] .

والحــق أنــه من الصعب على أى باحث أن يحيط بأدب الرافعــى وأن يقسمه إلى أقسام ، أو أن يتحدث عنه حديثا موسعا شــاملا ، لــذا فإننا سنختار شعر الرافعى ونربطه به من جهة ، وبالعصــر مــن جهــة أحرى ، ولا يؤثر فى بحثنا هذا أن هناك دراســات ــ تخــتلف كثرة وقلة ، واتجاها ومنهاجا ، قد اهتمت بــأدب الرافعى [٢] ، فالحال أن الكثير من هذه الدراسات لم يهتم

---

(١) عمالقة عند مطلع القرن ص ١٥٣ . دار الآداب بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـــ ١٩٨٤م .

(٢) انظر : مصطفى صادق الرافعى أديباإسلاميا ، د/ إبراهيم عوضين .

بالـــدور الـــذى اضطلع به (الرافعى الشاعر) ولم يتتبع أحد من الباحثـــين ذلـــك الدور تتبعا دقيقا ، ولم يعرضه أحد عرضا يلتزم بالموضـــوعية إلا فيما ندر ، وكثير من المعادين للرجل المخالفين لـــه الذين يقفون منه موقفا مضادا ، يلتزمون بالظلم فى دراستهم لـــدوره ، وينظـــرون إلـــيه بعين البغض ، ويسعون للطعن عليه ورميه بكل نقيصة .

وقـــد كـــتب الرافعى عدة مقالات ضمنها كتابه (السحاب الأحمـــر) ومنها مقال عنوانه : (الصغيران) والذى يصور فيه حب الأم لأولادها ، ومدى إعجابه بهذا الحب ، وقد سيطرت على الكاتـــب فـــى الـــنص عاطفة الإشفاق والعطف ممتزجة بالحزن والأسى .

ومن هذا النص يقول :

" ... يا من لا إله إلا هو .. من سواك لهاتين النملتين فى جنح هذا الليل الذى يشبه نقطة من غضبك ؟

لقد أخرجتهما فى هذا الضياع مخرج أصغر موعظة للعين تنـــبه أكبر حقيقة فى القلب ، وعرضت منهما للإنسانية صورة لو وفـــق مخلـــوق عبقـــرى فرسمها لجذب إليها كل أحزان النفس ، صـــورة الحـــب يمشـــى متســـاندا إلى صدر الرحمة فى طريق

المصـــادفة المجهـــولة من أوله إلى آخره ، وعليهما ذل اليتم من الأهل ، ومسكنة الضياع بين الناس ، وظلام الطبيعة وكآبتها .

رأيـــت الطفلـــة وقد تنبهت فيها لأخيها الصغير غريزة أم كاملـــة ، فهـــى تشـــد على يده بيديها معا ، كأنها مذ علمت أنها ضـــائعة تحاول أن تطمئن أخاها إلى أنه معها ، ولن يضيع وهو معها ـــ فيا لرحمة الله .

وقد أسندت منكبه إلى صدرها وهى تمشى ، فلا أدرى إن كـــان ذلك لتحمل عنه بعض تعبه فلا يتساقط ، أو ليكون بها أكبر مـــن جسمه الضئيل فلا يخاف ، أو لأنها حين لم تستطع أن تفهمه مـــا فى قلبها بلغة اللسان ، أفاضته على جسمه بلغة اللمس ، أولا هـــذا ولا ذاك ، إنمـــا هـــى تســـتمد من رجولته الصغيرة حماية لأنوثتها بوحى الطبيعة التى رسخت فيها " .

فهـــذا النص من مقال اجتماعى طويل يوازن فيه الرافعى بين حب الأم وحب العاشقين ، وقد عرض فيه موضوعا اجتماعيا وهـــو ضياع طفلين من أهلهما ، وحيرتهما وخوفهما ، وقد اتخذ الكاتـــب من هذا الحدث منطلقا ليثبت من خلاله أن حب الأم هو أقوى ألوان الحب وأبقاها وأدومها من الحياة .

والحقـــيقة أن هذا النص قد تحقق فيه الكثير من خصائص أســـلوب الشـــعر ، حيث الدقة فى اختيار الألفاظ الموحية ، وقوة

العاطفــة وصدقها ، والصور الخيالية الرائعة ، والجمل الموسيقية ، والخيال الكلى والجزئى .

والنص يشير إلى الاتجاه الأدبى الذى يسير عليه الكاتب ، وهو الاتجاه المحافظ ، ذلك الذى يميل أصحابه إلى الثقافة العربية الأصــيلة ، وإحــياء التراث ، والتأثر بأساليب القدماء ، والتأثر كــذلك بالــثقافة الدينية . كما أنه يشير إلى إنسانية الرافعى ، تلك الــزعة التى جعلته يخوض فى تجارب أدبية جريئة شعرية كانت أم نثرية .

يقول الدكتور / أحمد الحوفى عن شاعرية الرافعى :

" يتجلــى لمن يتتبع حياة الرافعى ويدرس شعره ونثره أنه لــم يكن شاعرا فى قالب إنسان ، بل كان إنسانا فى قالب شاعر ، لأن الشاعرية قوامه وكيانه [١] .

ثالثــا : المقــالة النقديـــة

اخــتلفت وجهات نظر النقاد والدارسين حول مفهوم المقالة الــنقدية ، ففــريق يراها تلك المقالة التى تقنن للمسائل الأدبية ، وتضـــع للقضايا الأدبية والنقدية ضوابط ومفاهيم ، وأصحاب هذا

---

(١) أضواء على الأدب الحديث ص ١٩٣ . دار المعارف ، مصر .

الـــنهج يدققون فى النص المنقود ، لأن النقد عندهم علم قائم على قيم علمية نقدية .

وفـــريق آخر يراها المقالة التى يسعى بها كاتبها إلى إبانة رؤاه فى مسألة أدبية ، أو ما يقبله ذوقه أو يمجه فى نص إبداعى ، كـــل ذلـــك فـــى أســـلوب فنى متدفق لا يشوهه جفاف الحقائق العلمية .

علـــى حـــين يطلق آخرون المقالة النقدية على المقالة التى تعـــالج قضـــايا مختلفة : اجتماعية ، وسياسية ، وأدبية وغيرها ، ومن هنا تختلط الألوان المقالية فى ظل هذه التسمية ، ولا يعرف النقد فى الأدب من سواه .

والـــذى نعنـــيه بالـــنقد هنا هو ما يكتبه المقاليون من نقد للإبـــداع الأدبـــى أو لـــبعض آراء ومفهومات الأدباء ، وأساليب تعبيـــرهم فـــى أعمالهم الأدبية ، أو فى قضايا الأدب بعامة ، وما يصـــطرع حول ذلك مما يسمى (بالمعارك الأدبية) التى تتصل بقضايا الأدب والنقد والثقافة .

والمقالة النقدية بهذا المفهوم كثيرة ومتوافرة ، وهى تحظى بالنصـــيب الأوفـــر فـــى الأدب المقالى ، وقد أفردت لها مجلات خاصـــة أســـبوعية أو شهرية ، بيد أنها تختلف باختلاف مرجعية الكـــتاب ، فبعضهم يعتمد على المنهج التاريخى ، وبعضهم يعتمد

على المنهج النفسى ، والبعض الآخر يتكئ على المنهج الواقعى ، بيـــنما يلـــوذ الآخـــرون بالمنهج الرومانسى ، وسعى آخرون إلى التعبير عن مدرسة نقدية بعينها ، وهكذا .

خصائص المقالة النقديـــة :

ظهـــر فـــى أدب المقالـــة الـــنقدية مـــيل كبير إلى فهم ما تضـــطرب بـــه حـــياة كتابها من أحداث ومؤثرات ، وقد أخلص أصـــحاب هذه المقالات لها ، لأنهم رأوا أن مهمتهم فى الحياة هى الـــتقويم والنقد ، فهم يعتقدون أن وظيفة الأديب لا تقل عن وظيفة المصلح الاجدتماعى .

وهذا إجمال لخصائص المقالة النقدية :

١ ــ قد تتضمن المقالة النقدية جوانب إبداعية .

٢ ــ المقالـــة الـــنقدية تكـــتب للمتخصصين ، ومن ثم فهى تتسم بالاهتمام بوضوح الأفكار ، وقوة الصياغة ، واختيار الألفاظ .

٣ ــ تهـــتم المقالـــة النقدية ببيان وظيفة الأدب ، وتوضيح مكانة الأدبـــاء فى المجتمع ، ودورهم فى الرقى به إلى ما يحملونه من قيم ، وما يحلمون به من مثاليات .

٤ ــ ظهـــرت فـــى المقالة عند البعض دعوة إلى واقعية الأدب ، بمعنى أن يكون الأدب قريبا من الحقائق .

٥ ـــ تـــتطلب المقالـــة النقدية من صاحبها أن يكون محيطا بفنون الأدب المختلفة ، وأن يكون لديه حس قوى لتقديرها حق قدرها ، هذا فضلا عن الثقافة الواسعة والاستخدام الجيد للغة .

٦ ـــ تعتمد المقالة النقدية على التذوق الأدبى [١] ، كما تعمد على وضوح عاطفة الناقد .

٧ ـــ هذا فضلا عن الطبع ، والعفوية ، وامتلاك أدوات الكتابة .

كتابهـــا

وينبغى أن نقول قبل أن نختم الحديث عن المقالة النقدية إن هذه المقالة قد اتسعت آفاقها فى العصر الحديث لتوفى باحتياجات الأدب والأدباء ، فظهرت مقالات متعددة ذات موضوعات متفرقة ومتشـــعبة تشعب فروع الأدب وموضوعاته واتساعها ، ولاعجب فالقضايا الأدبية كثيرة ومتشعبة .

ومن أشهر كتاب هذه المقالة : أحمد أمين ، وأحمد الشايب ، فـــى (الأسلوب) وهيكل فى (أوقات الفراغ) ، وعبد الحميد حســـن فـــى (الأصـــول الفنية للأدب) وطه حسين فى (حديث الأربعـــاء) ، وعباس محمود العقاد فى (ساعات بين الكتب) ، وإبـــراهيم عـــبد القادر المازنى فى (حصـــاد الهشيـــم) ومحمد

---

(١) انظر : أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٣٤ وما بعدها .

حسن عواد [١] فى (خواطر مصرحة) ، فقد كتب كل هؤلاء وغيرهم عن " رسالة الأدب " وعن " الفن للفن والفن للحياة " ، كما كتبوا عن " التقليد والتجديد فى الأدب " ، وكتبوا " عن الشكل والمضمون " ، وعن " الأسلوب " ، وغير ذلك مما يتصل بالأدب بصلة مباشرة أو غير مباشرة .

ومما يلاحظ على كتاب هذا اللون أنهم فى غالبيتهم يمارسون النظم إلى جانب كتابة المقال ، كما يلاحظ أن جل مقالاتهم تعنى برصف الكلام وتنسيقه ، كما تعنى بضجيج الألفاظ ، وليس بخاف على أحد مقالات الدكتور طه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، تلك التى ملأت صفحات الصحف والجرائد فى أيامهم .

يقول محمد حسن عواد فى مقال بعنوان " تحليل ولى الدين يكن : " إعجابى بالكتبة العصريين أو الكرام الكاتبين يكاد يكون منحصرا فى أمثال ولى الدين يكن ، والمنفلوطى ، وأمين الريحانى ، والعقاد ، والآنسة مى ، وسلامة موسى ، وهيكل ، والمازنى ، من الكتبة الأحرار. وهؤلاء مع الرابطة القلمية : جبران ، نعيمة ، عريضة ، أبى ماضى ، .. إلخ ، كما أن

---

(١) أديب سعودى ولد عام ١٩٠٢ م .

إعجابـــى بالشـــعر الكلاســيكى العصرى أعنى النوع المعروف بالشـــعر الهندســـى منحصـــر تقريبا فى شعر الأول من هؤلاء ، وشعر بشارة الخورى ، وفؤاد الخطيب وآخرين لا أتذكرهم الآن . هـــؤلاء هم الشعراء الأحرار . سقيا لقلمك يا ولى الدين ، لولى الدين يكن بأدبه العام نفسيات ثلاث :ولى الدين الشاعر المبتكر ، ولـــى الـــدين الكاتب المفكر ، ولى الدين الناقد الحر ، فى أسلوب هـــذا الكاتـــب الشاعر النابغة رنة موسيقية تقيم الأنفس وتقعدها ، مصـــوبة بهـــا ومصعدة إلى الحقيقة لا إلى الخيال ، إلى فكر حى لامـــع ثمـــين ، كالجوهر فى أطباق الصدف ... الكاتب الجبان ، والكاتـــب الخيالـــى الصرف ، والكاتب الذليل النفس ، عقبات فى نمـــو الكتابة العصرية .. فى قلم ولى الدين كاتبا وشاعرا – وفى أفكاره الحرة تجد العبقرية والنبوغ .. (١) " .

هذه هى المقالة النقدية ، وهذا هو الجهد الكبير الذى قام به أدباؤنـــا ونقادنـــا المحدثون حيالها ، من حيث الرأى ، والذوق ، والانطـــباع الذاتـــى عـــن العمل الأدبى وآثاره فى نفس الناقد ،

---

(١) خواطر مصرحة ص ٦٤ . مطبعة المدنى ، الطبعة الثانية ١٩٦١ م .

والعاطفة، والخلق الفنى ، والتجارب الشعرية ، والشعر والفكر ، والشعر والفلسفة ، هذا فضلا عن النظريات النقدية وأثرها [١] .

ونختم هذا المبحث بجزء من مقال للأستاذ / مصطفى صادق الرافعي تحت عنوان : (نقد الشعر وفلسفته) يقول فيه :

" فأما الكلام فى فن الشعر ، فالمراد بالشعر – أى نظم الكلام – وهو فى رأينا التأثير فى النفس لا غير ، والفن كله إنما هو هذا التأثير ، والاحتيال على رجة النفس له ، واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه ، وإدارة معانيه ، وطريقة تأديتها إلى النفس ، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفا متلائما مستويا فى نسجه ، لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال ، ولا يحمل عليه تعسف ولا استكراه ، فيأتى الشعر من دقته وتركيبه الحى ، ونسقه الطبيعى ، كأنما يقرع على القلب الإنسانى ليفتح لمعانيه إلى الروح .

والشعر العربى إذا تمت له صناعته ، ووسائل التأثير ، وأحكم من كل جهاته ، كان أسمى شعر غنائى ، فتراه يطرد بألفاظه الجميلة السائغة ، وكأنه لا يحمل فيها معانى بل يحمل حركات عصبية ، ليس بينها وبين أن تنساب فى الدم حائل ، فما يكون إلا أن يغمرك بالطرب ، ويهزك من أعماق النفس ، ويورد

---

(١) انظر : عباس العقاد ناقدا ، عبد الحى دياب . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

علـــيك من نغمة الروح ما إن تدبرته فى نفسك ، وأفصحت عنه شـــعورك رأيـــته فـــى حقيقته وجها من نسيان الحياة الأرضية ، والانتقال إلى حياة أخرى من السرور والاهتياج والألم ، والشجو ، يحياها الدم الثائر وحده غير مشارك فيها إلا من القلب .. [١] .

رابعا : المقالة الوصفية

مفهومـــها :

وهـــذه المقالـــة من النثر الأدبى الجميل ، ونعنى بها ذلك اللون المقالى الذى يعمد فيه الكاتب إلى تصوير ما يقع تحت حسه فـــى الحـــياة ، ويأخذ يلاحق ذلك كله بالوصف كى ينقل أثره فى نفسه .

وهـــذا هـــو التعريف العام للمقالة الوصفية ، وهو تعريف يبـــتعد بها عن أن تكون مقصورة على وصف الطبيعة ، ومظاهر الكون ، ومعالم الحياة .

على حين يذهب كثير من النقاد إلى تمييزها بغرض واحد أو غرضـــين اثنـــين ، بحـــيث لا يمنح كاتبها الحرية المطلقة فى وصـــف ما يريد ، بل يتناول مشهدا من مشاهد الحياة ، أو مجالا من مجالاتها ، فيصفه ويصوره لمن لم يره قبل .

---

(١) الرافعى ، وحى القلم : الجزء الثالث .

والقيمة الحقيقية للمقالة الوصفية تقوم على " دقة الملاحظة ، وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة .. ثم على الوصف الرشيق المعبر الذى ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه بصدق وإخلاص " (١) .

وفى محاولة لتقسيم المقالة الوصفية (٢) حاول بعض الدارسين حصر أغراض هذه المقالة لكى يقسموها حسب هذه الأغراض ، وفاتهم أن من الصعب بل من المستحيل فعل ذلك ، لأن فصل الأنواع الأدبية فصلا كاملا أمر يستحيل فى علم النقد الأدبى الرصين ، ذلك لأن الفنون متداخلة ومتصلة فى سياق الفن الواحد .

وهذه هى موضوعات المقالة الوصفية :

ـ وصف الطبيعة ، من أودية ، وهضاب ، وجبال ، ومتنزهات ، وأحياء ، وغير ذلك من المشاهد .

ـ وصف الرحلة .

ـ وصف الذات .

ـ وصف الغير .

---

(١) فن المقالة ، د / محمد يوسف نجم ، بتصرف ص ١١٤ .

(٢) انظر : المقالـة فى أدب العقاد ، د / عبد القادر رزق الطويل ، ص ٧٩ وما بعدها .

ـ وصف الصور المعنوية .

والحقيقة أن طبيعة المقالة الوصفية لا تصلح للأفكار العلمية ، ولا للأداء الموضوعى الصرف ، فطبيعة هذه المقالة بموضوعاتها المذكورة قبل تتطلب استعدادا فنيا ، وتجربة صادقة عاشها الكاتب وتأثر بها وجدانه .

وممن برع فى هذا اللون المقالى فى الأدب المعاصر : أحمد أمين ، والعقاد ، والمازنى ، وميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران ، وإيليا أبو ماضى ، والرافعى ، وأمين الريحانى ، والمنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، ويحيى حقى ، وغيرهم .

فمن ينظر المقالات الوصفية لهؤلاء يجدها فى مجموعها مرآة تصف الحياة والطبيعة والأشياء كما رأوها . فمقالات المازنى الوصفية مثلا ترينا الحياة المصرية بمزاياها وعيوبها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وأوهامها وخيالاتها ، وأمثالها ، وألفاظها التقليدية ، وفكاهتها ، وتفاؤلها ، وتشاؤمها ، ومخاوفها ، وأمانيها .. الحياة المصرية بكل ما فيها منذ أواخر القرن الماضى إلى الحلقات الأولى من القرن العشرين [١] .

يقول يصف خريف العمر[٢] :

---

(١) أدب المازنى ، د / نعمات أحمد فؤاد ، ص ١٢٩ . نشر مكتبة الخنجى ، مصر .
(٢) الثقافة ، العدد ٦٠٤ ص ١٧ .

" متى جاء الخريف ، وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب لـــه فـــى عمره ، وأن ما تبقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكـــون وجـــودا منه بأن يكون حياة استمرار ، ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه ..

عرف المرء أن أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل ، أو طماح يخفق بلا احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام .

وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقـــد حلاوتهـــا ، وقـــوتها ، ونضارتها ، وتتعرى شجراتها من أوراقهـــا وتجف وتصفر ، وتتساقط على اليد ، ويطير النســـيم هنـــا وهـــا هنـــا ".

ومن يقرأ المقال يلاحظ أن الخريف عند الإنسان كالخريف فى الطبيعة ، تتعرى فيه الأشجار من أوراقها ، وتأفل فيه الشمس عـــن ســـمائها ، فإذا التمستها فإنها لا تلبث أن تختفى من جديد ، وتلـــوذ الطـــيور بأوكارهـــا فلا خروج ولا غناء ، وهكذا تحتشم الطبيعة فى تصرفاتها كما يتئد الإنسان فى خريف العمر .

ومـــن نماذج المقالة الوصفية ما قاله العقاد تحت عنوان : (جمال الطبيعة) [١] :

" وللطبيعة سر مقترن بسر الحياة لست أتعرض له ، وفيها جانـــب يتصل بإحساسنا ووعينا هو الذى أبحث فيه هنا ، ولست مســـتهديا فـــى البحث بالعلم الطبيعى وحده ، ولا بخيال الشاعر وحده ، ولكنى أمزج بينهما ، إذ لا غنى عن تدقيق العلم ، وعن ســـليقة الشاعر معالم يود البحث فى أمر ينظم طرفاه بين عناصر الطبيعة وسرائر النفس الإنسانية " .

ومـــن نماذجهـــا كذلك ما كتـــبه الرافعى فى كتابه (وحى القلم) تحت عنوان : (موت أم) يصف فيها موت زوج صديقه الأستاذ / حسنين مخلوف ، يقول [٢] :

" رجعـــت مـــن الجـــنازة بعد أن غبرت قدمى ساعة فى الطريق التى ترابها تراب وأشعة ، وكانت فى النعش لؤلؤة آدمية محطمـــة ، هـــى زوج صديق طحطحتها الأمراض ، ففرقتها بين علـــل الموت . وكان قلبها يحييها ، فأخذ يهلكها ، حتى إذا دنا أن يقضى عليها ، رحمها الله فقضى فيها قضاءه ، ومن ذا الذى مات

---

(١) انظر المقال فى : المؤيد ، بتاريخ ١٨ / ٥ / ١٩١٤ م .

(٢) وحى القلم : ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، الطبعة السادسة .

له مريض بالقلب ولم يره من قلبه فى علة كالعصفورة التى تهتلك تحت عينى ثعبان سلط عليها سموم عينيه .

كانـــت المسكينة فى الخامسة والعشرين من سنها ، أما فى قلبها ففى الثمانين أو فوق ذلك ، هى فى سن الشباب ، وهو متهدم فى سن الموت .

وكانت فاضلة تقية صالحة ، لم تتعلم ولكن علمتها التقوى الفضـــيلة ، وأكمل النساء عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الكتب ، فهى تنظر إلى الحياة نظرات تحل مشاكل وتخلق مشاكل ، ولكـــنها تلـــك التى تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان ، تقرأ فى كل شيء معناه السماوى ، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معا ، ومـــا تعطـــى من يد خالقها رحمة معروفة أو رحمة مجهولة ، وهـــذه عندى امرأة ... وتكون الزوجة ، ومعناها القوة المسعدة ، وتصـــير الأم ومعـــناها الـــتكمـــلة الإلهيـــة لصغارها وزوجها ونفســـها " .

- **خصائص المقالة الوصفية :**

إن المقالـــة الوصـــفية تـــتطلب مـــن كاتبها أن ينظر إلى مشـــاهداته علـــى أنها رحلة حية ، أو تجربة إنسانية يتعرف فيها علـــى أسرار الحياة ، ويستكنه فيها دقائقها وخفاياها ، ويلجأ إلى

معالم الكون والطبيعة باثا شكواه ، ومعبرا عن ذاته ، وهذا بعينه هو الرومانسية الحالمة .

ومن أهم خصائص المقالة الوصفية ما يلي :

١ – رسم لوحة ناطقة بالمشهد الموصوف وما يحيط به من بواعث .

٢ – استقصاء الصفات التى تحيط بالمشهد واستيفاؤها .

٣ – تجلية الصور بالبعد عن الحقيقة والجنوح إلى التأثير بالصور البيانية .

٤ – الاستعانة بالمحسنات البديعية التى تأتى عفوا .

٥ – العمق فى التفكير .

٦ – الرقة فى الإحساس .

٧ – العاطفيةغير المسرفة .

وبالموازنة بين أنواع المقالات السابقة وربط ذلك كله بميول الكاتب واتجاهاته الأدبية ، يمكن أن نلاحظ مايأتى :

أولا : من حيث الموضوعات :

– موضوعات الكتاب الرومانسيين هى الهروب إلى الطبيعة غالبا ، بينما موضوعات الكتاب الواقعيين تتجه إلى الواقع .

– إذا كان الكتاب الرومانسيون يستعينون بالرمز فى كتاباتهم ، فإن الوضوح هو السمة الغالبة عند الكتاب الواقعيين .

- بالغ الرومانسيون فى الحديث عن النفس ، وأحسوا بالوحدة فى كل أحوالها ، على حين التصق الواقعيون بالمجتمع ، وعبروا عن إحساسه الجماعى .

ثانيا : من حيث الأساليب :

- يتميز الكتاب الرومانسيون فى أساليبهم بالإغراق فى العاطفة ، بينما اعتد الكتاب الواقعيون بالعقل ، وغلبوه على جانب العاطفة .

- احـــتفل المقاليون الذاتيون بالشكل الفنى ، بينما مال الواقعيون إلى واقعية التعبير .

- لا يميل الكتاب الذاتيون إلى المباشرة ، بينما الفكرة عند الكتاب الواقعيين هى الأساس ، فمبلغ التوفيق لديهم أن تصل إلى المتلقى فى سهولة ويسر .

ألوان مقاليـــــة أخرى

ونود ها هنا أن نستعرض عددا من المقالات المختلفة عن الألـــوان التـــى سبق أن ذكرناها ، لعل فى ذلك استكمالا للصورة التـــى نـــود رسمها أمام القارئ ، وهذا يقضى بنا إلى إيراد بقية ألوان المقالات التى صال وجال فيها الكتاب .

ومن هذه المقالات :

(١) المقالة السياسية :

وقد ظهرت هذه المقالة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشـــر الميلادى ، وهى الفترة التى كانت تؤلف فى تاريخ الدول العربية بداية لمرحلة طويلة يصح لنا أن نصفها بمرحلة اليقظة ، أو مرحلة اليأس على السواء :

مرحلة اليقظة لأنها كانت بداية الطريق فى تقويض دعائم الاستعمار ، والإتيان عليه من أساسه ، وقد تحقق ذلك بفضل نفر من الوطنيين تحولت الكتابة على أيديهم إلى أسلحة ذات أثر فعال ، فأخـــذوا يكتبون مقالات طليقة كانت فيما نرى نقطة انطلاق فى تغيير المفاهيم السياسية ومولد الشعور بالقومية العربية .

والكـــتاب فـــى هـــذا اللون من المقال يعبرون عن شعور الشـــعب بالاســـتياء مـــن المحـــتل الأجنبى ، ولذلك أحست الأمة بكرامتها وكيانها واستشعرت بسبب هذه المقالات الثقة فى نفسها ، وأخذت تتطلع إلى عهد جديد تتخلص فيه من سيطرة الأوربيين ونفوذهم ، وتسترد فيه حقوقها الضائعة .

وتتميـــز هـــذه المقالة بجدتها،وقصر عباراتها ، ومواكبتها للحـــياة بمـــا يصـــطرع فـــيها من تيارات مضطربة ، كما تتميز بأسلوبها الخالى من التكلف المعتمد على الوضوح والدقة .

ويمــثل هذا النوع : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعــبد الله النديم ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، والمازنى ، وغيــرهم ، فكان لهم جميعا فضل بين فى بروز المقالة السياسية وازدهارها ، وشغلها لأكثر صفحات الصحف فى عهدهم .

يقول عبد الله النديم فيما أسماه (وصية وطنية) [1] :

" أى بنـــى مصـــر . ما أصدق الأحلام عند أهل السرائر الطاهــرة ، وما أحسن التعبير عنها من الخبير بها ، وقد كنا فى نومة خيم الظلم فيها على قلوبنا وعلى أسماعنا ، وألبس الاستبداد بصائرنا غشاوة لا نبصر معها حقيقة ولا نعرف حقا .

وكانـــت أرواحنا فى كهف الخوف تسرح فى ظلمة لا نور فيها وتجول فى مضيق لا باب له ، فكان يحدث عنا من يمر بنا حديــثه عــن الأموات ويقول لسائله : هم العمد المتحركة بإرادة مالكها ، تراهم ينطقون ولكن بلسان العبودية ، ويمشون ولكن فى طــريق الاســتبداد ، ويخضــعون ولكن لسيف الإذلال ، تظنهم أحــرارا وهــم عبيد ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، يجتمع اللفيف مــنهم بالإشارة ، ويتفرق الجيش بالإيماء ، إن طلبوا حقا ظلموا ، وإن دافعوا عن مال أبعدوا ، وإن اشتكوا حاكما سجنوا ، يكسبون

---

(١) المذكرات الوطنية : ص ١١٥ وما عبدها ، عن كتاب : النديم الأديب ، د / محمد السعدى فرهود ، ص ٧٢ وما بعدها .

الكثير من النقد وهم فقراء ، ويصنعون الثياب وهم حفاة عراة ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا حياة ولا نشورا ... " .

فالنديم يتحدث عن المصريين فى وصيته حديثا سياسيا ، وأوضح ما كانوا فيه من ذل ومهانة ، واستسلام وقنوط ، وحرمان ويأس ، وما إلى ذلك من واقع أليم .

خصائص المقالة السياسية :

- تتميز المقالة السياسية بقصر عباراتها وارتفاع صوتها .
- تعتمد على الأسلوب السهل الخالى من التعقيد .
- المزاوجة بين العاطفة المتأججة والعقل الهادئ المتزن.
- تتوج المقالة السياسية ببلاغة العبارة ، وقوة الألفاظ ، وحسن الجرس .
- تعكس الوطنية الصادقة التى لدى الكتاب .
- المقالة السياسية وثيقة الصلة بأدب الوجدان .
- لها أثر بالغ فى إيقاظ الروح الوطنية .
- أسلوبها مثال الوضوح الناشئ عن دقة الكلمات ، وسهولة التراكيب ، وتواصل الفقرات .
- المقالة السياسية هى من أزهى ألوان المقالة الصحفية وأشدها خطرا .

- العنف واللهجة الحماسية ، وقد تمثل هذا بصفة خاصة عند العقـــاد حتى فى كل أغراض الفن المقالى عنده ، فهو كما يقـــول الدكـــتور / محمـــد يوسف نجم : " العقـــاد كاتب مـــتجهم القــــلم ذو طبـــيعة حديـــة ، يكتب كمن يحمل أعبـــاء التاريخ على كاهله .. [١] " .
- كثيـــرا مـــا تعتمد على الطرق والدراسة القانونية كوسيلة للمنطقـــية وترتيب المعانى ، كما كان الحال عند الكاتب / محمد حسين هيكل [٢] .

(٢) المقالة الدينية :

لعـــل المقالة الدينية هى التى احتلت مقام السيادة بين سائر ألـــوان المقـــالات ، لســـبب جوهرى وهو أن الدين الإسلامى هو العقـــيدة الرسمية للبلاد العربية ، والعاطفة الدينية هى التى أمدت الكـــتاب بذلك الفيض الزاخر من المقالات . وهذه العاطفة لها من القـــوة فـــى عصـــرنا الحاضـــر ما لها ، لدرجة أن المفكرين لم

(١) فن المقالة : ص ٨٥ .

(٢) انظر : محمد حســين هيـــكل الأديب السياسى المؤرخ ورائد الكتابة فى السيرة الذاتية د . محمد رجب البيومى ، ص ٤٥ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـــ ٢٠٠١م .

يســتطيعوا فــى الــبداية إحداث تأثير سياسى فى الناس إلا عن طريقها .

والمقالــة الدينــية هى الموضوع الرئيس فى كل الطوار ، ولهــا الصدارة فى كل الصحف والمجلات ، وهذا يحمل الكتاب مســئولية عظــيمة تجــاه الدين الإسلامى من جهة وتجاه العالم الإسلامى من جهة أخرى .

ونحــن إذا ما استعرضنا هذا الفيض الزاخر من المقالات الدينية فى عصرنا الحديث وجدناها تدور حول العقيدة وشرحها ، وتدور كذلك حول بيان مزايا الدين الإسلامى ، وتمجيد البطولات الإســلامية . هــذا بالإضــافة إلى مشاركتها الإيجابية فى علاج المجــتمع ، وكــان هذا دون شك بفضل ما كتبه الشيخان : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وما بذلاه من جهد فى نشر الوعى الإســلامى ، وإظهــار حقائــق الإسلام بمظهر جديد ، وقد آمن الــرجلان بهذه المهمة إيمانهما بالله سبحانه وتعالى ، حتى لقيا فى سبيل ذلك ما لقيا من سجن ونفى وتشريد [١] .

ويهتم صاحب المقال الدينى بإبراز العاطفة الدينية نحو أمر يتصل بالعقيدة أو يمس قضايا المجتمع ، فتكون هذه المقالة بمثابة

---

(١) انظر : العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث ، د / سعد الدين الجيزاوى ص ٢٥٧ . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة .

إعلان عن رأى الكاتب فى الاعتقاد ، أو العبادات ، أو المعاملات ، أو الآداب العامة ، أوما إلى ذلك .

هـذا وينبغـى أن نشير إلى أن الملامح الأدبية تختلف فى المقالة الدينية باختلاف الكاتب ، من حيث إيثاره للأسلوب الأدبى الـرقيق ، أو خلوه من صبغات الكتابة الفنية ، وإخلاصه للفكرة دون سواها .

ولقـد نمت هذه المقالة فى مصر وازدهرت حين صدرت بعض المجلات الدينيـة المتخصصة مثل : (نور الإسلام) و (مجلـة الأزهـر) و (الهدى النبوى) وأمثالها . غير أننا نجد المقالـة الإسلامية منبثة فى جميع الصحف والمجلات ، يعالج بها أربابهـا قضـايا المسلمين والإسلام ، ويذودون بها عن الرموز الإسلامية ، ويقفون بها فى وجه أعداء الإسلام ، يصدون ضلالهم ، ويردون باطلهم .

ومـن كتاب المقالة الدينية : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومصطفى صـادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمـد أمين ، وملك حفنى ناصف ، والعقـاد ، وسيد قطب ، وغيرهم .

ومـــن الأمـــثلة علـــى حسن العاطفة الدينية وجمالها ، مع رشاقة اللفظة وخفتها مع ميلها إلى الطابع الدينى ما كتبه الأستاذ / مصطفى صادق الرافعى عن الرسول محمدﷺ [١] .

يقول [٢] :

" كان المعنى الآدمى فى هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر علـــيه ، يتحـــيفه ويمحوه ، ويتعاوره بالشر والمنكر ، فابتعث الله تـــاريخ العقل بآدم جديد ، بدأت به الدنيا فى تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان فـــى ذاتـــه ، فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح لها طريق المجئ من الجنة،والثانى فتح لها طريق العودة إليها ، كان فى آدم سر وجود الإنسانية ، وكان فى محمد سر كمالها .. ".

خصائص المقالة الدينية :

- تهتم المقالة الدينية بإبراز العاطفة الدينية .
- وأهم ما يجب فى المقالة الدينية هو الصدق والإقناع .

---

(١) انظر : مصطفى صادق الرافعى فارس القلم تحت راية القرآن ، د / محمد رجب البيومى ص ٥٧ وما بعدهـــا . دار القـــلم ، دمشـــق ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـــ ١٩٩٧م (أعلام المسلمين ٦٥) .

(٢) وحى القلم : ٢ / ١٢ نقلا عن المصدر السابق ص ٦١ .

- لـــيس شرطا فى المقالة الدينية أن تتصف بكثير مما يزين الأســـلوب الأدبى ، من العذوبة والرقة ، واختيار العبارات الموحية ، ونحو ذلك .
- كثيرا ما تهتم هذه المقالة بالمناسبات والمواسم الدينية .
- تبين عن الشعور الإسلامى الجماعى .
- إنها ضرب من ضروب النثر الوجدانى .
- المقالة الدينية قوية الصلة بالأدب عند الأدباء المطبوعين ، ممـــن يحسنون صناعة المقالة الأدبية بطبعهم ، ويخلصون لها ، ويتعبون أنفسهم فى سبيل تجويد الأسلوب وتنقيته مما يشـــوبه مـــن عيوب الفن المعروفة ، كالعامية ، والضعف اللغـــوى ، وســـوء التـــركيب ، واختلال موازين الكتابة ، كالجهل بالعبارة المناسبة ، وعدم التوفيق إلى اللفظة تجيئ فى محلها ، والسوقية فى الصياغة ، والابتذال فى الفكرة ، ورداءة الغرض " (١) .
- وتشـــمل المقالة الدينية ما يشمله الإسلام وحضارته وثقافته مـــن قضـــايا ، ومـــا أثـــاره المبشرون والمغرضون من

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ٢٠٨ .

الغـــربيين مـــن دعـــاوى باطلة ، ومزاعم مفتراه ، وهذا واضح غاية الوضوح عند العقاد خاصة [١] .

(٣) المقالة العلمية :

والمقصـــود بها ما تناوله الكتاب من مباحث فكرية تتصل بالعقـــل ، أو بالفكر الدينى ، أو الفلسفى ، أو مباحث علمية تتصل باللغة العربية : قيمتها ، ومفرداتها ، وفنونها ، وغيرذلك .

والمقالة العلمية تتقسم إلى نوعين :

(أ) مقالـــة علمية بحتة : وهى التى " تعنى بمعالجة قضية من قضايا العلم ، كأن تتحدث عن نظرية فى الطب ، أو فى الجبـــر ، أو الهندســـة ، أو الكيمـــياء ، أو الفيزياء ، أو الطبيعيات ، أو تعرض ما توصلت إليه هذه العلوم ، أو تعرف الناس بالمكتشفات العلمـــية الحديثة ، أو تحاول توضيح المعطيات التى ترتكز عليها الأبحاث العلمية عامة " [٢] .

والمقالة بهذا المعنى تمتاز بدقة الألفاظ ، وجفاف الفكرة ، وكثرة المصطلحات العلمية ، والبعد عن العاطفة ، والموضوعية الصرفة .

---

(١) انظر المقالة فى أدب العقاد ، د / عبد القادر رزق الطويل .

(٢) البلاغة والتحليل الأدبى ، د / أحمد أبو حاقه ص ٢٢٩ . دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

(ب) مقالة علمية متأدبة ، ومن خصائصها [1] تناول الموضوعات العلمـية ، ودقة اللغة ، وتحديد الألفاظ ، واستخدام بعض الألفاظ العلمـية والأرقام الحسابية ، والبعد عن الجفاف العلمى ، وذلك عـن طـريق الاستعانة بمؤثرات فنـية كالصـور التوضيحية ، وجاذبـية العرض ، يضاف إلى ذلك أن هـذه المـقالة تجمع بين الإفادة والتأثير .

والكاتـب فـى المقالـة العلمية يسعى إلى إثبات أكبر قدر ممكـن من المعارف ، وزيادة معلومات الناس وتوسيع ثقافتهم ، وتنمـية عقـولهم ومـنطقهم ، وتعـريفهم بما يجهلون ، وتقوية معرفتهم بما يعرفونه معرفة ناقصة .

وتكاد تكون المقالة العلمية هى المقالة الموضوعية ، من حيث التزامها بالتقسيم المتبع فى الكتابة المقالية عن أى موضوع علمى لتكون قضاياه متواصلة ، بحيث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها مقدمة لما بعدها حتى تنتهى جميعا إلى الغاية المقصودة [2] .

وقـد خصصـت بعـض المجلات قسما منها فى كل عدد للمـقالة العلمية ، ومن هذه المجلات : (المقتطف) و(العربى) الكويتـية و(الفيصـل) و (المجلـة العربية) و (القـافلة)

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى ص ٨٢ .

(٢) المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ٢١٩ .

السعودية و (الثقافة) السورية و (الدوحة) القطرية و (الثقافة العربية) الليبية و (البحرين الثقافية) فى البحرين .

ومن كتاب المقالة العلمية فى الأدب العربى الحديث والمعاصر : أحمد أمين ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والعقاد ، وفؤاد صروف ، ويعقوب صروف ، وأحمد زكى ، وعبد الحليم منتصر ، ومحمد حسن كتبى ، ومحمد سعيد عبد المقصود خوجه وغيرهم .

وكتاب المقالة العلمية يكتبون فى مسائل شتى ، ويسهمون فى التذكير بألوان من المعارف العامة فى تراثنا الأدبى والفكرى ، كالحديث عن العرب ومنازلهم ، والفصحى والعامية ، والأنساب ، والشعر والنثر ، والتأريخ ، وصلة الذوق باللغة ، ومدارس الأدب ، ونحو ذلك .

ومن الأساليب الأدبية العلمية فى هذا اللون من المقال ما كتبه مصطفى لطفى المنفلوطى حول ادعاء المتشاعرين ، وأثر ذلك على الأدب ، يكشف فيه عن حقيقتهم ، يقول فيه (١) :

" ما لهؤلاء النظامين لا يهدأون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا ، وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التى يمطرونها علينا كل

---

(١) انظرها فى : النظرات : ١ / ٩٦ ، ٩٧ .

يــوم من سماء الصحف حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ، ورأينا فـــى وسطها جدولا أبيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ، ففزعنا وألقيـــنا الصــحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

مـــن لـــى بذلك القلم العريض الذى يكتب كتاب الصحف السياســية عناوين مقالاتهم فى معرض التهويل والتفخيم ، فأكتب إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه الكلام المــوزون المقفـــى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ، ولا يعرفون من الشـــعر أكثر من إعرابه ، وبنائه ، واشتقاقه ، وتصريفه ، وإنما جـــروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه ، وقوافيه ، وعلله ، وزحافاته .

لا تظـــنوا أن الشعر كما تظنون ، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرا ، لأنه لا يوجد فى الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق .

أيهـــا القوم : ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان مـــن مبدأ نشأته ، ولاتزال كامنة فيه كمون النار فى الزند ، حتى إذا اشـــتد فاضـــت على أسلات أقلامه كما تفيض الكهرباء على

أسلاكها . فمن أحس منكم بهذه الروح فى نفسه فليعلم أنه شاعر ، أولا فليكف نفسه مؤونة التخطيط والتسطير ، ولبصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة ، فوالله للمحراث فى يد الفلاح ، والقدوم فى يد النجار ، والمسبر فى يد الحداد ، أشرف وأنفع من القلم فى يد النظام .

فإن غم عليكم الأمر ، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ، ويدلكم عليكم ، حتى تكونوا على بينة من أمركم .. " .

ومهما يكن من قيمة هذه المقالة من الناحية العلمية ، فليس يخفى على القارئ أن أسلوبها مثال الوضوح الناشئ عن دقة الكلمات ، وسهولة التراكيب ، وتواصل الفقرات لفظيا ومعنويا ، فكانت العبارة واضحة إن شئت فقل على الرغم من الإطار العلمى .

ومن كتاب المقالة العلمية الأستاذ أحمد أمين (١) ، فهو كاتب أفكار فى المقام الأول (٢) وليس صاحب ديباجة بيانية ، تحتفل بالتعبير المؤنق ، وبالموسيقى ، وبالصور الجمالية ، وقد

---

(١) انظر كتابه : (فيض الخاطر) ، وانظر مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) انظر : أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٩٥ .

تيســرت له هذه المقالة لتوفر حسن الاستعداد عنده ، من معرفة بأدوات البحث ، وأساليبه ومناهجه .

ولعــل كثرة مقالات الأستاذ أحمد أمين العلمية ، واشتهاره بالتألــيف العلمــى الرائع البالغ حد الريادة والتوجيه هو الذى حدا بــبعض الباحثين إلــى أن يعدوه كاتب مقالة علمية لا كاتب مقالة أدبــية [١] ، مــع ما فى هذا الرأى من تجاوز ، وهو السبب نفسه الــذى جعــل الدكتور زكى مبارك " ينكر أن لأحمد أمين أسلوبا متميزا ، ويعده باحثا لا يجيد تحليل الخواطر ، وتصوير النزعات " [٢] ، وإن تراجع الدكتور بعد عن هذا الرأى .

(٤) المقالة الفلسفية :

وهــى المقالة التى تعرض لشئون الفكر والفلسفة بالتحليل والتفسير ، فتحلل قضاياها ، وتفسر غامضها بلغة الأدب وأسلوب الأدباء [٣] .

والحقــيقة أن مهمــة الكاتب فى هذا اللون المقالى صعبة للغايــة ؛ إذ علــيه أن ينقب عن الأسس الحقيقية للموضوع الذى

---

(١) انظر : فصول فــى الأدب والنقد ، د / طه حسين ، ص ١٣ وما بعدها . دار المعارف ، مصر .

(٢) أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٩٩ .

(٣) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د/السيد مرسى أبو ذكرى ص ٧٧ .

يتـــناوله ، كمـــا أن عليه أن يعرض مادته بدقة ووضوح حتى لا يضـــل القارئ فى متاهات الموضوع الذى يسير فى سياق علمى موضوعى .

ومـــن كتابـــنا الذين لهم إسهام فى المقالة الفلسفية المتصلة بالمقالة الأدبية : أحمد لطفى السيد ، وأحمد حسن الزيات ، وعلى أدهم ، وأحمد أمين ، وأحمد فؤاد الأهوانى ، وزكى نجيب محمود ، وفـــؤاد زكـــريا ، وحسن حنفى ، ومحمد عبد الواحد حجازى ، وغيـــرهم . فقد كتب كل هؤلاء حول الفلسفة ، وكتبوا فى منازع شتى من المنازع الفلسفية التى تهم الإنسان أيا كان بما يكتنفه من تـــاريخ وعلـــى وجـــه الخصـــوص التاريخ العقائدى ، وتراكم حضارى .

كما كتبوا عن الخلافات فى الرأى ، وكيف يكون الخلاف ضـــرورة مـــن ضرورات الحياة ، ويأتى الواحد منهم بالدليل تلو الدلـــيل لكى يثبت أن الخلاف رحمة ونعمة من الله سبحانه ، وأنه لا يفسد للود قضية ، فهو مدعاة للاطمئنان والتفاؤل .

والحقـــيقة أن الغـــرض العلمى المجرد الذى قد تقوم عليه بعـــض المقـــالات الفلسفية ، وما يصحب هذه المقالات من كتابة علمـــية جافة أمر لا شأن لنا به ، فهذا الأمر لا يوصلنا إلى جديد فى الحديث عن المقالة الفلسفية الأدبية .

وقـــد كتب أحمد أمين مقالة فلسفية عنوانها : " جزيرة بلا سياسيين " وفيها يقول [١] :

" كان الشيخ محمد عبده يقول : " لعن الله السياسة وساس ويسوس وسائس ومسوس ، وكل ما اشتق من السياسة ، فإنها ما دخلت شيئا إلا أفسدته " .

كـــل شــــيء في العالم يتغير حتى الأهرام ، عريت بعد أن كانت مكسوة ، وحتى أبو الهول كسرت الأيام أنفه وعلته بالرمال ، إلا السياســـة الاســـتعمارية فإنهـــا لم تتغير بوجه من الوجوه . وعقلـــية الساســـة فـــي القرن الثامن عشر هي عقليتهم في القرن العشـــرين ، يظـــنون أن التهديد والوعيد يرعب الأمم ، ويقضي عليها ، وينفذ رغبة المستعمرين ، فبعد ضرب الإسكندرية بسبعين عامـــا ظلوا يفهمون أيضا أن ضرب الإسماعيلية أيضا ينتج نفس النتيجة مع اختلاف المقدمات اختلافا كبيرا .

فقـــد كـــان الرعب يستولي على النفوس ، ولم يكن وعي قومـــي يفهـــم ألاعـــيب السياسة ولاشيء من ذلك ، ولكن عقلية الإنجليـــز فهمت أن ما جرب بالأمس ونجح يجرب اليوم وينجح ،

---

(١) مجلة الهلال ص١٥ عدد فبراير ١٩٥٢ م . نقلا عن كتاب " التحرير الأدبي " ، د / حسين علي محمد ص ١٨٦ ، ١٨٧ . نشر مكتبة العبيكان ، الرياض ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

أمـــا الفـــوارق الكبيـــرة وخصوصـا الفوارق النفسية فقد أغمضوا أعينهم عنها .

ثم أود أن أعيش فى جزيرة مطمئنة هادئة ليس فيها ساسة ، ولكـــن مـــع الأسف لا يمكن أن يعيش الإنسان من غير حكومة ومن غير ساسة يسوسون الناس .

فكل مجتمع لا بد فيه مـــن مجرميـــن وأشرار ، وطامعين ونهابين ، فما لـــم تأخذ الحكومة علـــى يدهم عاثوا فـــى الأرض فســـادا ، فلا يمكـــن لجزيرة أن تعيش مـــن غير حكومة ، وكل كـــتاب " اليوتوبـــيا " (أو بعـــبارة أخرى " المدن الفاضلة ") ، وأفلاطـــون نفســـه فى " جمهوريته " لم يخلوا بلادهم التى عدوها مثلا أعلى من ساسة ومن حكومة .

غاية الأمر أنهم أملوا أن تكون الحكومة فيها حكومة عادلة ، حكومة ترعى الأمة ، ولا تستبد بها ، وتأخذ بيدها ولا تمحقها ، جكومة متسعة العقل ، مرنة ، تتطور مع الأحداث ، وتعلم أن ما صـــلح أمـــس لا يصلح اليوم ، لا كساسة الإنجليز والفرنسيين لا يتحولون عما فى أذهانهم مهما تغيرت الظروف " .

<u>خصائص المقالة الفلسفية</u> (١)

---

(١) انظر : المقالة فى أدب العقاد ، د / عبد القادر الطويل ، ص ٢٥٨ وما بعدها .

– تميل المقالة الفلسفية إلى التحليل الدقيق ، سواء أكان ذلك للنفس والمشاعر ، أو للكون وغيره .

– يتوافر فى المقالة الفلسفية الكثير مما يثير نهم الناقد إلى التحليل والاستشهاد .

– تهدف المقالة الفلسفية إلى توضيح مغزى ما ، أو فلسفة ما .

– تعنى المقالة الفلسفية بالكشف عن الحقيقة .

– تجنح إلى التفكير ، واستبانة المنهج الفلسفى والعقلى .

– قد تنطلق المقالة الفلسفية من الواقع وأحداثه ومعطياته ، لتتأمل مـن ثم حدثا ما ، أو قضية فكرية ، وهذا ما فعله أحمد أمين فى مقالـته السابقة ، فقد انطلق من الواقع (لا يمكن أن يعيش الناس من غير حكومة ، ومن غير ساسة يسوسون الناس) ليناقش هذه الفكـرة الجديرة بالنقاش ، ويوضح مغزى (أو فلسفة) أن يكون للناس حكومة وساسة ، ذلك أمر ضرورى فى حياتنا .

<u>(٥) مقالات أخرى :</u>

والحقـيقة أن فى أدبنا العربى ألوانا أخرى مختلفة ومتعددة مـن المقالات ، لا يمكن حصرها ولا عدها ، ويتأتى هذا من أن المقالة موكلة بكل مواضيع الحياة ، فمن الصعب على الباحث أن يحصرها أو يقسمها .

وسأكتفى هنا بالإشارة إلى ما تفرق من هذه الألوان ، ومنها :

(أ) المقالة الانطباعية : (١)

وهى المقالة التى تصور انطباعات الكاتب تجاه موقف من المواقف ، أو مشهد من المشاهد التى رآها ووقع نظره عليها .

وهذا اللون من الكتابة يحتاج إلى بصيرة نافذة ، وعقل لاقط ، قادر على الاكتشاف والرؤية ، ولم لا وهذه المقالة فى صميمها اجتزاء لفكرة عابرة يريد الكاتب من خلالها أن يسجل انطباعه .

ومن كتاب هذه المقالة : عبد العزيز البشرى ، وأحمد أمين ، والعقاد ، وميخائيل نعيمة ، ومصطفى أمين ، ومصطفى محمود ، ومحمد فهمى عبد اللطيف ، وأحمد بهجت ، وأنيس منصور ، وغيرهم .

(ب) الخاطرة : (٢)

وهى لون مقالى يقوم على اللمحة الذهنية ، يلتقط صورة خاطفة مرت بالذهن مصادفة ، ليس فيها عمق ، ولا فكرة ناضجة

---

(١) انظر : المقال وتطوره فى الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) انظر : أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامى ، د / محمد رجب البيومى ، ص ٩٩ .

، ويأخذ الكاتب هذه الخاطرة فيحيلها إلى قطعة فنية ، هي في صميمها مقالة أدبية من اللون الذاتي ، كما قد تكون من اللون العلمي ، أو الاجتماعي .

وفي أدبنا العربي الحديث ألوان كثيرة من أدب الخاطرة هي قمة في النثر الفني من حيث القيم الجمالية والفكرية ، ومن ذلك ما كتبه إبراهيم عبد القادر المازني في كتابه : (صندوق الدنيا) ، ومصطفى صادق الرافعي في كتابه : (السحاب الأحمر) ، و المنفلوطي في كتابيه : (العبرات) و (النظرات) ، والدكتور / زكي مبارك في كتابه : (الحديث ذو شجون) ، وجبران خليل جبران في كتابه : (دمعة وابتسامة) ، وأحمد أمين بمقالاته التي نشرها بمجلة الثقافة تحت عنوان : (مدرسة جديدة) [١] .

ويمكن أن نشير إلى أن خواطر المنفلوطي التي أوردها في كتابيه قد تسربت إليها الروح القصصية ، وقد حاول جاهدا أن يضفي على هذه الخواطر جو القصة ، كوسيلة منه لتجسيم تلك الخواطر التي ينشد معالجتها .

---

(١) انظر له : فيض الخاطر : ٩ / ٢٤٩ وما بعدها ، الطبعة الأولى ١٩٥٥ م .

ومن يقرأ هذه الخواطر يرى فيها من روح القصة : السرد ، بيد أنه سرد عادى لا فنية فيه ، والكاتب يخلق من نفسه شخصية قصصية ، ويجعلها محورا للحدث فى الخاطرة التى هى صيد اللحظة .

ومن الواضح أن الصحافة كانت على رأس العوامل الرئيسة التى ساعدت على نشأة الخاطرة ، فلقد أولتها اهتماما خاصا ، وأفردت لها أبوابا ثابتة فى أعدادها المختلفة ، لدرجة أنه لا تكاد تخلو مجلة من المجلات ، أو صحيفة من الصحف من زاوية أو زوايا خاصة بالخاطرة ، تلك التى عنت للكاتب ، وانبعثت لمرأى ، أو مشهد ، أو حادث ، أو ذكرى .

ومن كتاب هذا اللون فى صحافتنا المصرية : أنيس منصور ، وأحمد الصاوى محمد ، ومختار الوكيل ، ومحمد زكى عبد القادر ، ومحسن محمد ، وعبد السلام داود ، وصلاح منتصر ، وإبراهيم سعدة ، وعبد الرحمن فهمى .

(ج) الرسالة :

والرسالة فن أدبى يكتبه الناثرون فى أغراض شتى ، منها الإخوانى ، والإدارى ، والوصايا ، ورسائل المسائل العلمية ، ونحو ذلك .ومن ينظر التاريخ الأدبى العربى يرى أن الرسالة تعد

مــن الأصول الأولى لفن المقالة الأدبية ، والجذور التى نمت هذه الألوان المختلفة من النثر الفنى [١] .

وفــى أدبنا العربى نصوص كثيرة من الرسائل التى تجمع خصــائص المقالــة والخاطــرة ، وإن لم تأخذ حظها من الجمع والدراســة والتأمل ، وانظر على سبيل المثال ما كتبه عبد الحميد الكاتــب ، وابن المقفع ، وأبو حيان التوحيدى ، والجاحظ ، وابن زيدون [٢] .

ومن أهم مميزات الرسالة أنها نص سهل ، ينثر الكاتب فيه ذاتــه ، ويستقرئ دخيلة نفسه ، وينطلق فيه على سجيته وطبعه ، دون اتكاء على أسلوبه الأدبى المتقن .

ومــن نمــاذج الرسالة رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط سنة ست من الهجرة،وهذا نصها :

" بســم الله الــرحمن الــرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعــوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن تولــيت فإنما عليك إثم القبط . و " يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

---

(١) المقالة فى الأدب السعودى ، د / محمد العوين : ١ / ٢٤١ .

(٢) انظر الفصل الأول : (ملامح المقال فى الأدب العربى القديم) من كتاب الدكتور / السيد مرسى أبو ذكرى : (المقال وتطوره فى الأدب المعاصر) .

سـواء بينـنا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضـنا بعضـا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " (١) .

(د) ألوان أخرى :

ويمكـن أن نضـيف إلـى هـذه الألوان السابقة عشرات النصـوص المقالـية الأخـرى المتعددة الأغراض ، مثال ذلك : المقالة الرمزية الساخرة ، والمقالة القصصية ، والمقالة الساخرة ، والفكاهة ، والسيرة الذاتية ، ومقالة الحوار والمناقشة (٢) .

وفـي مقالـة السيرة الذاتية يترجم الكاتب لسيرة إنسان ، ويعكـس فيها انطباعه عنه ، ومدى تأثره به ، كل ذلك في تعبير جيد لائق ، وحسن تنسيق ، وذلك كما فعل أحمد أمين في كتابه : (فيض الخاطر) .

---

(١) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، أحمد زكي صفوت : ١ / ٤٢ . المكتبة العلمية ، بيروت .

(٢) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ، د / السيد مرسى أبو ذكرى ، ص ٧٣ وما بعدها .

من كتاب السيرة الذاتية

أحمد أميـــن

يعد أحمد أمين من أعظم الكتاب الذين ترجموا لأنفسهم فى العصـــر الحـــديث ، وله كتاب بعنوان "حياتى " وهو من الكتب العظـــيمة فى مجال الترجمة الشخصية ، وليس أدل على ذلك من طباعة هذا الكتاب أكثر من خمس طبعات .

ولد أحمد أمين فى مدينة القاهرة فى أكتوبر عام ١٨٨٦ م فى وسط مثقف ، إذ كان والده مصححا بالمطبعة الأميرية ببولاق (حـــى من أحياء القاهرة) أحيانا ومدرسا فى المدارس الحكومية أحيانا أخرى .

وكـــان والـــده مولعا بجمع الكتب فى مختلف العلوم وفى جمـــيع التخصصات ، فى الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والتاريخ والصرف والبلاغـــة ، ولعل عمـــله الذى كـــان يقوم به (وهـــو مصحح بالمطبعة الأميرية) قد مكنه من أن يقتنى كثيرا من مطبوعات هذه المطبعة ، ولا شك أن هذه الكتب كانت أطيب غـــذاء لأحمـــد أمـــين ، وليس أدل على ذلك من أنه كان يمضى السـاعات بل الليالى والأيام يقرأ هذه الكتب ويستفيد من دورها ، وقد صارت هذه الكتب بمرور الأيام نواة لمكتبة أحمد أمين نفسه .

ورث أحمـــد أمين عن أمه قصر النظر ، ولقى بسبب هذا عناء كبيرا فى حياته ، يقول فى ذلك :

" فإذا تقدمت للدخول فى دار العلوم حرمت من ذلك لقصر نظـــرى ، وإذا تقــدمت للدخول فى مدرسة القضاء فكذلك إلا أن تحــدث معجـــزة ، وإذا أريد تثبيتى فى وظيفة سقطت فى امتحان النظر ولم أثبت إلا بمعجزة أخرى ، وتحدث أحداث كثيرة مخجلة وغيـــر مخجلة نتيجة لقصر نظرى ، فقد لا أسلم على أحد يجلس بعـــيدا عنـــى فـــيظن بى الكبر ، وقد أكون على موعد فى مقهى فأدخل ولا أرى من وعدتهم إلا أن يرونى ، وقد أمر فى الشارع على من أنا فى حاجة إليه فلا أراه .

وقـــد أحب أن أذهب إلى السينما أو التمثيل للاسترواح فلا أذهـــب ، وهكذا من أحداث سيئة لا تحصى صادفتنى فى حياتى إلـــى أن اضطررت منذ شبابى إلى لبس نظارة ، وكنت من سنة إلى أخرى أغير النظارة بأخرى أسمك منها حتى صارت فى آخر الأمـــر نظارة سميكة ، واعتادت عينى هذه النظارة ، وكانت لها كذلك سيئات ، فإذا كسرت أو نسيتها فى البيت صرت كأنى أعمى ، وقـــد رأيتنـــى فـــيما بعـــد أحتاج إلى نظارتين ، نظارة للقراءة ونظـــارة للسير والعمل ، ولا تسأل عن متاعب ذلك ، ومع قصر النظـــر هـــذا كان النظر القصير نعمة كبيرة إذا قارنت بينه وبين

العمى ، فكل الأشياء الجوهرية من رؤية أشخاص ورؤية مناظر جميلة كان يكفى قصر نظرى فى إدراكها " (١) .

أدخلــه والده الكتاتيب ، ولبث فى هذه الكتاتيب نحو خمس ســنوات حفظ على أثرها القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ، ثــم أدخله مدرسة ابتدائية نموذجية هى الآن مدرسة " بنبا قادن " وقــد تعلم فى هذه المدرسة اللغة العربية وبعض مبادئ الحساب وبعض اللغات الأجنبية .

ولــم يلبث والده أن يختار له الأزهر الشريف ليدرس فيه الفقه الحنفى بجانب العلوم الدينية الأخرى ، ولكنه لم يصبر على دراسة الأزهر ، لأنه لم يتقبل طريقة هذه الدراسة فى الحواشى ، وإنمــا صــبر على تدريس والده له وبخاصة فى الأجازات ، ولا شك أن والده كان شيخا عظيما وكان قادرا على الإفهام ، وقد قرأ لابنه كتب " قطر الندى " و " شذور الذهب " و " شرح ابن عقيل " ولقــى أحمــد بســبب من هذا نجاحا كبيرا ، لدرجة أن بعض زملائــه كانوا يطلبون منه أن يقرأ لهم شرح ابن عقيل فى بعض أوقات الفراغ وكان يفعل ذلك .

---

(١) حياتى ، أحمد أمين ، ص ٢٥ ، ٢٦ . مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السادسة .

عين مدرسا للغة العربية في مدرسة راتب باشا بالإسكندرية ، ثم لم يلبث بعد سنتين أن عين في مدرسة والده عباس باشا الأول ، وهي المدرسة التي تعلم فيها صغيرا والتي كان يحن إليها أيام تعليمه بالأزهر .

والتحق بمدرسة القضاء ، وتلقى فيها التفسير والحديث والتوحيد وأصول الفقه ونحو ذلك ، فكان أن تثقف ثقافة لغوية أدبية من نحو وصرف وأدب ، وثقافة قانونية عصرية مثل أصول القوانين الحديثة ونظام القضاء والإدارة وغير ذلك ، وثقافة أخرى في الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء وما إلى ذلك .

والتحق آنذاك بالجامعة المصرية الأهلية ، واستمع إلى محاضرات في الفلسفة الإسلامية ، ومحاضرات في الجغرافية العربية ، وكان يحضر هذه المحاضرات لماما في غير التزام ولا انتظام .. وعلى كل حال فإنه استفاد من الجامعة في عملية البحث والاستقصاء والرجوع إلى المراجع وغير ذلك .

عمل قاضيا في " قويسنا " ثم في محكمة " الأزبكية " وحين طلب منه الدكتور طه حسين أن يعمل مدرسا في كلية الآداب قبل ، لأنه كان ينفر من وظيفة القضاء ، وكانت هذه فرصة كبيرة ينطلق بسببها في ميدان اللغة والأدب .

واشــترك فــى مشــروع بحثى واسع وضعه هو وزميلاه الدكــتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى ، وخلاصة هذا المشــروع كانت تدور حول دراسة الحياة الإسلامية من نواحيها الــثلاث فى العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام ، فاختص الدكــتور طــه حســين بالحياة الأدبية ، واختص الأستاذ العبادى بالحياة التاريخية ، واختص الأستاذ أحمد أمين بالحياة العقلية .

أخــذ يترقــى فى مجال التأليف ، فألف فى سنتين كتاب " فجــر الإسلام " عام ١٩٢٨ م ، وسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحــج عــام ١٩٣٧ م مع بعثة الجامعة المصرية ، ثم اتيحت له فرص للسفر إلى أوربا للاطلاع على العلوم والآداب الأوربية .

ترقــى فى كلية الآداب من مدرس إلى أستاذ مساعد ، ثم صــار عضــوا فــى مجلس إدارة الكلية ، ولكنه حيل بينه وبين الترقية إلى درجة أستاذ بحجة أنه لم يحصل على درجة الدكتوراه ، فــتقدم بكتابيه : فجر الإسلام " و " ضحى الإسلام " لينال بهما درجــة الدكتوراه ، لكن إصرار وزير المعارف على رفض ذلك حال بينه وبين رغبته .

أقــام له زملاؤه من أساتذة الجامعة وأعضاء لجنة التأليف حفــلا تكريميا عام ١٩٢٥ م حضرها أعضاء لجنة التأليف وكبار رجــال المعارف ، وكبار رجال السياسة من مختلف الأحزاب ،

وكان من بين الحاضرين مدير الجامعة آنذاك / أحمد لطفى السيد ، وأحمد ماهر ، والدكتور على إبراهيم ، والدكتور إبراهيم الهلباوى ، وعبد العزيز فهمى ، والشيخ محمد مصطفى المراغى .

وحين خلا مركز عميد كلية الآداب فى أبريل عام ١٩٣٩ عينه محمود فهمى النقراشى عميدا لها ، ومكث عميدا لها لمدة عامين ، ترك العمادة بعدها وعاد ليعمل أستاذا فى الكلية ، وظل يكتب المقالات ويؤلف الكتب ، وكان يكتب فى مجلات " الرسالة " و " الهلال " و " المصور " وغيرها ، ولما كثرت مقالاته جمعها وأودعها ثمانية أجزاء من كتبه وسماها " فيض الخاطر " .

انتدب وهو أستاذ بكلية الآداب ليعمل مديرا للإدارة الثقافية بوزارة المعارف ، وكان وزير المعارف إذ ذاك الدكتور / عبد الرازق السنهورى ، وعنى وهو فى هذا العمل بتشجيع ترجمة أمهات الكتب الغربية إلى اللغة العربية ، وكان هذا العمل نواة توسعت فيها الوزارة فيما بعد .

وحين ألم به المرض استقال من رياسة الإدارة الثقافية ، وأخذ يتخفف من الكثير من أعماله ، ثم أحيل إلى التقاعد بعد أن بلغ سن الستين ، وفى عام ١٩٤٨ م قرر مجلس كلية الآداب

ومجلس جامعة فؤاد الأول منحه الدكتوراه الفخرية ، ولقب من وقتها بالدكتور / أحمد أمين .

وله مؤلفات كثيرة منها : فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، وفيض الخاطر ، وزعماء الإصلاح ، والشرق والغرب ، ويوم الإسلام ، ومبادئ الفلسفة ، والأخلاق ، والنقد الأدبى ، وقصة الفلسفة اليونانية ، وقصة الفلسفة الحديثة .

ويكفى أحمد أمين أنه أهدى إلينا كنوزا من أقوم الكنوز وأعظمها ، فسلسلة " فجر الإسلام وضحاه وظهره " من أروع ما يحلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين ، ومن يقرأ هذه المؤلفات يلمح أنها نقلت من أصح المصادر ، واشتملت على أدق الآراء العلمية ، وحللت الحياة العقلية تحليلا جعلها تظفر بالذيوع والانتشار حتى أصبحت مرجعا لكل باحث أو دارس ، وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على صبر أحمد أمين على القراءة والكتابة .

" حياتى " لأحمد أمين :

يعد كتاب " حياتى " من الكتب التى ظفرت بحظ كبير من الذيوع والانتشار فى مجال الترجمة الشخصية ، وقد صدرت الطبعة الأولى له عام ١٩٥٢ م ، وما يزال الكتاب يواصل

طبعاته المختلفة . والكاتب فى بعض الطبعات كان يعيد القراءة فيزيد فى بعض المواقف زيادة يراها ضرورية .

والكتاب يدل على صراحة أحمد أمين وصدقه ، وإن كان قد عبر فى مقدمته عن تهيبه من هذه الترجمة وإخراجه لمثل هذا الكتاب ، يقول :

" لم أتهيب شيئا من تأليف ما تهيبت من إخراج هذا الكتاب ، فإن كل ما أخرجته كان غيرى المعروض وأنا العارض ، أو غيرى الموصوف وأنا الواصف ، وأما هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف ، والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة ، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته ، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق ، أو بمحاولة للتجرد ثم توزيعها على شخصيتين : ناظرة ومنظورة ، وحاكمة ومحكومة ، وما أشق ذلك وأضناه .

ومع هذا فكيف يكون الإنصاف ؟ إن النفس إما أن تغلو فى تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها ، أو تبالغ فى تقدير ما صدر عنها ، أو تبرر ما ساء من تصرفها ، وإما تغمطها حقها ويحملها حب العدالة على تهويل شأنها فتلبها ما لها ، أو تقلل من قيمة أعمالها ، أو تنظر بمنظار أسود لكل ما يأتى منها ، أما أن تقف

مـن نفسها موقف القاضى العادل والحكم النزيه فطلب عز على الفلاسفة والحكماء [١] .

ومـع أن أحمـد أمين قد بذل كل جهده فى هذا الكتاب ، وتحـرى فيه الصدق والأمانة ، مع هذا كله فقد تهيب من نشره ، يقول :

" وترددت — أيضا — فى نشره : ما للناس و " حياتى " ؟ لسـت بالسياسى العظيم ، ولا ذى المنصب الخطير الذى إذا نشر مذكراته أو ترجم لحياته أبان عن غوامض لم تعرف أو مخبآت لم تظهـر ، فجلـى الحـق وأكمل التاريخ ، ولا أنا بالمغامر الذى استكشـف مجهولا من حقائق العالم ، فحال وصفه وأضاف ثروة إلـى العلـم ، أو مجهـولا من العواطف — كالحب والبطولة أو نحـوهما فجلاه ، وزاد بعلمه فى ثروة الأدب وتاريخ الفن — ولا أنـا بالـزعيم المصلح المجاهد ناضل وحارب وانتصر وانهزم ، وقـاوم الكبـراء والأمراء ، أو الشعوب والجماهير فرضوا عنه أحـيانا ، وغضـبوا عليه أحيانا ، وسعد وشقى ، وعذب وكرم ، فهـو يرى أحداثه لتكون عبـرة ، وينشر مذكراته لتكون درسا . لست بشىء من ذلك ولاقريب من ذلك ففيم أنشر حياتى " [٢] ؟ .

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى " من حياتى " ص ٣ .

(٢) مقدمة الطبعة الأولى " من حياتى " ص ٥ .

على كل حال فكرة الترجمة للنفس قد راودت الأستاذ أحمد أمين وهو فى أول عهده بالشباب ، فقد دون مذكرات يومية عن حياته وعن رحلاته وأهم الأحداث التى تمر عليه ، وأهم الأحداث السنوية ، ما يسر منها وما يسوء .

يقول فى مقدمة كتابه : " فلماذا — إذن — لا أؤرخ " حياتى " لعلها تصور جانبا من جوانب جيلنا ، وتصف نمطا من أنماط حياتنا ، ولعلها تفيد اليوم قارئا ، وتعين غدا مؤرخا ، فقد عنيت أن أصف ما حولى مؤثرا فى نفسى ونفسى متأثرة بما حولى .

نبتت عندى فكرة تاريخ حياتى منذ أول عهد شبابى ، فقد رأيتنى أدون مذكرات يومية عن رحلاتى ، وعن حياتى فى الأسرة أيام زواجى ، ووجدتنى أسجل فى المفكرات السنوية أهم أحداث السنة ، وما يسوء منها وما يسر ، ولكن لم يكن كل ذلك عملا منظما متواصلا ، بل كان يحدث فى فترات متقطعة — ثم نمت الفكرة وشغلت بالى فى العام الماضى ، فكنت أعصر ذاكرتى لأستقطر منها ما اختزنته منذ أيام طفولتى إلى شيخوختى ، وكلما ذكرت حادثة دونتها فى إيجاز ومن غير ترتيب — فلما فرغت من ذلك ضممته إلى مذكراتى اليومية ثم عمدت فى

الأشـــهر القريبة إلى ترتيبه وكتابته من جديـد على النـــحو الذى يـــراه القارئ مـــن غير تصنع ولا تأنق [١] " .

وأحمـــد أمـــين ـ على ما قال ووضح ـ يعود إلى أيامه الماضـــية فيســـتبطنها ويكشف نفسه من خلالها ، ويقف على أيام طفولته وصباه ، كما يشرح بيئته ، ودخوله الكتاتيب بغرض حفظ القرآن الكريم .

وتحـــدث كذلك عن دخوله المدارس الابتدائية ، كما تناول الأيام التى قضاها بالأزهر ، وعرض للمصاعب والمعوقات التى كانـــت تـــواجهه كما تواجه غيره ، وأبان عن مشاعره تجاه والده الـــذى كان بمثابة أزهر آخر والذى كان يعكف على الشرح لابنه فى فترات الأجازات الصيفية .

وأشار الكاتب إلى أسرة أبيه الأسرة الفلاحة ، التى هى من بلدة " سمخراط " من أعماق البحيرة ، كما أشار إلى أسرة والدته التـــى هى من " تلا " من أعماق المنوفية ، ثم ذكر هجرتهما إلى حى من أحياء القاهرة بسبب الظلم أو لأسباب أخرى لم يذكرها .

ثـــم أشـــار إلى آلام أسرته لوفاة أخت له محروقة ، وكان ذلك وهو ما يزال حملا . يقول عن ذلك : " وكان ذلك وأنا حمل

---

(١) مقدمة حياتى ص ٦ ، ٧ .

فــى بطن أمى فتغذيت دما حزينا ورضعت بعد ولادتى لبنا حزينا ، واســتقبلت عند ولادتى استقبالا حزينا ، فهل كان لذلك أثر فيما غلــب على من الحزن فى حياتى فلا أفرح كما يفرح الناس ، ولا أبــتهج بالحــياة كما يبتهجون ؟ علم ذلك عند الله والراسخين فى العلم " . (١)

وتحدث عن قصر نظره ، وعما لقيه من عناء حيال ذلك ، وأشــار إلــى أن هــذا الذى أصيب به إنما كان السبب فى إيثاره للعــزلة حتــى لا يقــع فى مثل هذه الأغلاط التى يقع فيها أمثال هؤلاء ، ونظره مع قصره هذا كان سليما ، فقد احتمله على كثرة قراءته ومداومته للنظر فى الكتب .

مــنذ ذلــك الوقت تكونت معالم شخصيته ، وهى شخصية نشــأت فــى بيت تغمره النزعة الدينية . يقول : " فإن رأيت فى إفراطا فى جانب الجد وتفريطا معيبا فى جانب المرح ، أو رأيت صــبرا على العمل وجلدا فى تحمل المشقات ، واستجابة لعوامل الحــزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور ، فاعلم أن ذلك كله صدى لتعاليم البيت ومبادئه .

---

(١) حياتى ــ ص ١٩ .

وإن رأيت دينا يسكن فى أعماق قلبى وإيمانا بالله لا يزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاتى فى كتب الملحدين ، أو رأيتنى أكثر من ذكر الموت وأخافه ، ولا أتطلع إلى ما يعده الناس مجدا ولا أحاول شهرة ، وأذكر فى أسعد الأوقات وأبهجها أن كل ذلك ظل زائل وعرض عارض ، أو رأيت بساطتى فى العيش وعدم احتفائى بمأكل أو مشرب أو ملبس ، وبساطتى فى حديثى وإلقائى ، وبساطتى فى أسلوبى وعدم تعمدى الزينة والزخرف فيه وكراهيتى الشديدة لكل تكلف وتصنع فى أساليب الحياة ، فمرجعه إلى تعاليم أبى وما شاهدته فى بيتى " . (١)

وقد حفظ فى طفولته القرآن الكريم ، وتحدث عن الكتاب الذى حفظ فيه آيات القرآن الكريم فقال : " كتاب يكاد يكون على باب حارتى ، هو حجرة متصلة بالمسجد ، وبجانبها دورة مياهه ، وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال ، قد انسلت منه بعض عيدانه ، وزير فيه ماء يكاد يسود من الوسخ ، عليه غطاء من الخشب ، قد ثبت فى الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليستقى منه الشارب ويتناول الكوز ليشرب منه النظيف والقذر والمريض والصحيح ، وصندوق صغير من صناديق الجاز وضعت فيه

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٢٧ .

ألـــواح بعضها صفيح قد صدئ وبعضها خشب قد زال طلاؤه ، وكـــتب علـــيها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود فلا تكاد ترى ، وشـــيخ قـــد لبس العمامة وقباء من غير جبة وبيده عصا طويلة ، ومســـمار كبيـــر فى الحائط علقت فيه "الفلقة" وهى عصا غليظة تـــزيد قليلا عن المتر ، ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حبل ، فإذا أراد ســـيدنا ضـــرب ولد أدخلت رجلاه فى هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة ، فلا تستطيع القدمان حركة " . (١)

وقد صنع موازنة بين كتاتيب أيامه التى يحفظ الأطفال فيها القرآن ويتعلمون القراءة والكتابة ، وبين ما عليه أطفال اليوم فقال : أيـــن ذلـــك ممـــا نحن فيه الآن ، لأطفال فى مثل طبقتى ، إنهم يذهـــبون إلـــى رياض الأطفال فتعلمهم سيدات مهذبات أو آنسات ظريفات ، يعلمن على أحدث طراز ، ويتدرجن بهم من اللعب إلى القراءة ، ويتحايلن على تشويق الطفل إلى الألف والباء ، ويسرقن التعلـــيم عن طريق الصور أو القصص أو نحو ذلك ، ويقلبن ما كـــنا فـــيه من عيش جاف إلى حلوى ، وأكثر أوقات النهار مرح ولعـــب ، ودروس كأنها لعب ، وأناشيد ظريفة وموسيقى لطيفة ، وطبـــيب يزور المدرسة كل يوم ، ومريض لا يأتى إلى المدرسة

---

(١) حياتى ــ ص ٤٥ .

إلا بعـــد أن يأتـــى بشهادة أنه صحيح ، والعلم يعطى كما يعطى كـــوب مـــن الشـــربات وبسكويت ولبن وشاى بدل الفول النابت والمخلـــل ، وضـــرب على " البيان " بدل الضرب على الأبدان ، ونحـــو ذلـــك من ضروب النعيم . ولكن على كل حال أخشى أن نكون أفرطنا أيامى فى الخشونة وأفرطنا أيام أبنائى فى النعومة ، والحـــياة ليســـت جدا محضا ولا نعيما صرفا ولا شقاء صرفا ، وخير أنواع التعليم ما صور صنوف الحياة " . (١)

ويصـــاب أحمد أمين بمرض التيفود وذلك بعد أن نقل من الإســـكندرية إلـــى القاهرة ، وعن هذه الصدمة يقول : " مرضت بحمـــى التيفود مرضا شديدا حتى أشرفت على الهلاك ، ولم يكن هـــناك عناية بالمرض كما يعنى اليوم ، ولا يرضى الأهالى عن إرسال المريض إلى مستشفى الحميات كما يرسل اليوم ولا عزل لـــه عن سائر من فى البيت حتى لا تنتشر العدوى ، ولا استدعاء طبيب مختص يشرف إشرافا دائما على العلاج ــ لا شئ من ذلك ــ ولكن فرشت لى حشية على الحصير ، فى وسط الغرفة وترك أمـــرى لله ، فلـــم يـــدع أهلى طبيبا ، وكل ما فى الأمر أن نفسى عافـــت الأكل . ومن حين لآخر تأتى عجائز الحارة فتصف لأمى

---

(١) حياتى ــ ص ٤٨ ، ٤٩ .

وصفات بلدية للشفاء من المرض ، فأقبلها حينا وأرفضها أحيانا ، ويزورني أبي قبل خروجه إلى عمله ، فيجلس على رأسي ، ويضع يده على جبهتي ، ويقرأ الفاتحة ، وآية الكرسي ، والمعوذتين ويختم ذلك بقوله : " حصنتك بالحي القيوم الذي لا يموت أبدا ، ودفعت عنك السوء بألف ألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . " ثم ينفث في وجهي ، وإذا عاد من عمله في المساء كرر هذا الدعاء . ونجوت منها بأعجوبة بعد أن كان الموت أقرب إلى من حبل الوريد ، ومكثت بعد ذلك مدة طويلة في دور النقاهة " . (١)

كان يعيش في بيت هادئ ، يخلو في كل أوقاته من الضجيج ، وكان لحب والده للعزلة وعكوفه على القراءة أكثر وقته هو السبب في خلو بيتهم من مرح الحياة ، وكان يعيش في البيت معه أبواه وأخ وأخت يكبرانه ، وأخ وأخت يصغرانه .

يقول عن أخيه الأصغر : " كان أخي الأصغر شابا مرحا ذكيا مملوءا بالحياة ، كثيرا ما يثور على تقاليد البيت التي وضعها أبي ، فهو يتأخر عن موعد العودة ، وهو يذاكر ويلعب ويجد ويهزل ، وكان ذلك يغيظ أبي فيكثر بينهما الجدال والخصام

---

(١) حياتي ــ ص ٩٢ ، ٩٣ .

ويـزداد ذلـك فيصل إلى حد الضرب ـ علمه أبى كما علمنى ، والتحق بمدرسة تابعة للأوقاف تجمع في تعليمها بين العلوم الدينية والمدنية ، ثم تخرج منها والتحق بمدرسة القضاء فى القسم الأول ، إذ كانـت مدرسـة القضاء تنقسم إلى قسمين ، فقسم أول ومدته خمس سنوات ، وقسم عال ومدته أربع سنوات ، وهذا الأخير هو الـذى التحقت أنا به ، وكان أخى فى السادسة عشرة من عمره ، وقضـى السـنة الأولى فى الدراسة بنجاح . وتفوق فى الرياضة فنال جائزتها " .[١]

وقـد حـدث فى بيته حادث غير طعم الحياة ، فقد مرض أخوه الأصغر هذا وارتفعت حرارته ارتفاعا شديدا ، وكل من فى البـيت قلق على هذا الشاب لقد أصيب بالحمى التيفودية تلك التى كان أحمد أمين قد أصيب بها ، لكن حالته كانت أخطر من أحمد ، واسـتدعوا له الطبيب ، ولكن المرض قد اشتد على أخيه الصغير ، ولـم يغن الطبيب ولم يغن الدواء ، وأخيرا وبعد سوء حال لفظ أخوه أنفاسه ، وقامت قيامة البيت .

يصـف أحمد أمين الحال بعد وفاة أخيه وكأنه يصف نمطا مـن أنماط حياة المصريين فيقول : " فأما أمى فتلطم وجهها حتى

---

(١) حياتى ـ ص ١٢٢ .

تسقط مغشيا عليها ، وأما أبى فيحترق قلبه فى الباطن ويتجلد فى الظاهر ، وتعد العدة لدفنه وتسير جنازته إلى الأمام حيث أعد أبى مدفنه ، ويرفض أن يقيم مأتما ، وأن يقابل أحدا ، فأقيم المأتم وأقابل الناس وينقلب بيتنا محزنة ، وكل خميس يجتمع النساء للعويل والصراخ وتدعى (المعددة) تغنى غناء حزينا بكلام يثير الشجون ، ويقطع القلوب ، فلما فرغت (خمساننا) التزمت أمى أن تذهب كل خميس إلى بيت مأتم ، تعرف أهله أو تعرفهم ، فكل المآتم سواء ، وكل الحزانى أصدقاء ، وتنفرد بنفسها (فتعدد) كالمعددة ، وكل شىء يلهمها البكاء ، ـ حجرته التى كان ينام فيها ، وأصدقاؤه الذين كان يلقاهم ، وكل شىء يذكرها به موعد الأكل ، وموعد الخروج إلى المدرسة ، وموعد العودة منها ، فأما أبى فقد صبر على حزن دفين ، حتى أبى إلا أن يغسله بيده ويدفنه بيده وكانت سلواه أن يكثر من تلاوة القرآن ويهب ما يقرؤه إلى روحه ، وسمع بكتاب للسيوطى " فضل الجلد عند فقد الولد " فنسخه بيده ، يتصبر بقراءته وكتابته .

وأما أنا فقد وضع هذا الحادث على عينى منظارا أسود ، فلا أرى فى الدنيا إلا السواد ، ولا أحب أن أسمع من الأصوات إلا صوت البكاء ، فالشجرة الناضرة إلى ذبول ، والحياة المبتهجة إلى فناء ، والحمامة إذا غنت فإنما تبكى ، والسعيد إنما يسعد

ليشقى ، وانقلبت فى عينى قيم الأشياء ، فهذا الذى يكسب المال لم يكسبه ؟ وهذا الذى يعمل لم يعمل ؟ والناس مجانين إذا تخاصموا ، ومجانين إذا لهوا أو ضحكوا ، فالدنيا لا تزن جناح بعوضة وخير للناس أن يقضوا حياتهم من غير اكتراث حتى يدركهم الموت ، واستولى هذا الحزن على أسابيع بل أشهرا حتى سميت فى مدرستى (بمالك الحزين) فإذا نسيت الحزن بعض الوقت فى مدرستى ذكرته فى بيتى من منظر أمى ، ولا تسل عن موقف دقيق وقفته وحرت فى التصرف فيه ، فقد أتى موعد صرف مكافآت المسابقات فى المدرسة ، وكان أخى هذا الذى مات يستحق مكافأة الرياضة وهى لا تصرف إلا بإمضاء مستحقها فإذا لم يكن فإمضاء أبيه ، وأنا واثق أنى إذا أخبرت أبى فإنما أشعل فى قلبه نارا جديدة وأعيد عليه يوم مأتمه من جديد ، ففضلت أن أترك المكافأة وألا أخبر بها أبى " . (١)

وأحمد أمين بهذا يجيد تصوير البيت الذى كان يسكنه ، وكان حديثه فى كل ما مر حديث الواعى البصير ، فوصف كل هذه الأحوال وتلك الظروف وكأنه يعيشها من جديد ، أو كأنه يراها ويشاهدها .

---

(١) حياتى ــ ١٢٣ ــ ١٢٥ .

ثـــم تضـــاعف حزن البيت ، وكثر همه حين أصيب أخوه الكبيـــر بانفجار فى المخ نشأ عنه شلل فى النصف الأيسر ، وتبع ذلك كله وفاته ، وظلت الأسرة تعيش فى قلق لا يوصف وبكاء لا ينقطع وحزن يذكر بحزنهم على ابنهم الذى مات قبل . [١]

وحين صدر مرسوم لتعيين أحمد أمين قاضيا ، كان المكان الـــذى عين فيه هو " الواحات الخارجية " وهو مكان بعيد يحتاج إلى سفر طويل وإلى غربة عن الأهل والأصحاب ، وسافر أحمد أمـــين إلـــى الواحات وقضى فيها مدة ثلاثة أشهر ، ودون أثناءها مذكرات يومية نقلها بنصها فى كتابه " حياتى " . [٢]

وهذه اليوميات استمرت ثلاثة أشهر ، وكانت هذه الأشهر الـــثلاثة تمـــثل فـــراغا كبيرا فى حياة أحمد أمين ، لأن القضايا المعروضـــة فـــى هـــذه المدة كانت قليلة جدا ، فلم تزد عن تسع قضـــايا وكانت جميعها من القضايا البسيطة التى لا تضيع الوقت ولا تحتاج إلى إعمال فكر .

يقـــول الكاتـــب : " فملأت فراغى بشيئين : الرحلات إلى الآثـــار الموجودة بالخارجة ، وقراءة الكتب . فأما شغفى بالآثار فكـــان عجيـــبا ، لأن الآثـــار الموجـــودة آثار قديمة وثقافتى فيها

---

(١) حياتى ــ ١٢٥ ــ ١٢٧ .

(٢) حياتى ــ ١٣٥ ــ ١٤٥ .

محـــدودة أو معدومـــة ، وربما كان السبب فى شغفى بها ما تولد عـــندى مـــن حـــب الآثـــار والإعجاب بها يوم كنت أزور الآثار الإســـلامية مـــع صديقى أحمد بك أمين ، وقد كنت فى كثير من الأحـــيان أصـــحب مفتش الآثار ليدلى إلى بمعلوماته عنها ، وقد كنت أدون يومياتى وأصف كل أثر رأيته وما تركه فى نفس مـــن أثـــر ، وكانت هذه الآثار بعضها فارسية من عهد احتلال الفرس لمصر ، وبعضها من آثار قدماء المصريين ، وبعضها رومانية ، وبعضـــها مقابر مسيحية لا تزال تحتفظ بجثث الموتى وأكفانها ، بل لا يزال بعضها محتفظا بشعر الرأس والذقن من جودة التحنيط ، وبعضـــها أسود الوجه غائر الجبهة بارز الأسنان . وبعضها — وهو الأكثر — أبيض الوجه منفرج زاوية الوجه " .[١]

ثـــم يتحدث عن السيدة الإنجليزية (مس بور) تلك التـــى كـــان لها فـــى نفس أحمد أمين وعقله أكبر الأثر ، ودرس علـــى يـــديها اللغة الإنجليزية ، ودرس علـــى يديها أيضا الجزء الثالث مـــن كتب (بيرليتز) وكتبا أخرى فى الأخلاق والاجتماع ، كما قـــرأ معها فصولا من جمهورية أفلاطون الإنجليزية ، وظل أحمد

---

(١) حياتى — ص ١٤٦ — ١٤٧ .

أمـــين يـــلازم هذه السيدة لمدة أربع سنوات ، واستفاد كثيرا من عقلها ومن كثرة تجاربها .

وهكـــذا يســـير الكتاب (حياتى) فيصور حياة أحمد أمين طفلا وشابا ، حياة ملئت بالكد الدائب والسعى المتواصل فى طلب العلـــم ، فقل أن يفارقه الكتاب ، ورزقه كان فى كل أطوار حياته متصلا بعلمه من درس يدرسه أو كتاب يصححه أو نحو ذلك ، لا يمنعه عن ذلك مرضه ولا قصر نظره الذى لازمه منذ طفولته ، ولقـــد من الله عليه بالتوفيق فى كل أعماله التى أسندت إليه سوّاء فـــى الـــتدريس أو فى القضاء أو فى لجنة التأليف أو فى الجامعة الشعبية ، أو فى عمادة كلية الآداب .

وقد نعته كثير من أعلام العصر نعتا يعد شاهدا على أثره فى الحياة العقلية والعملية [١] .

يقول الدكتور طه حسين : " لقد أهدى أحمد أمين إلى العالم الحـــديث بتألـــيف (فجر الإسلام وضحاه وظهره) كنزا من أقوم الكـــنوز حفظـــا مـــن الفنى وأقدرها على البقاء ومطاولة الزمان والأصراح .

---

(١) حياتى ــ ص ٣٦١ وما بعدها .

ويقول الأمير مصطفى الشهابى : " إن السلسلة الرائعة من تـــاريخ الأدب العربـــى التى تبدأ بفجر الإسلام وتنتقل إلى ضحى الإسلام فإلى ظهر الإسلام ، كنوز من المعرفة كتبت بأسهل لسان ، ونقلت من أصح مصـادر ، واشتملت على أدق الآراء العلمية .

يقـــول الأستاذ أحمد حسن الزيات : " حسب أحمد أمين أنه حلـــل الحـــياة العقلـــية للعرب والمسلمين فى كتبه : فجر الإسلام وضـــحاه وظهـــره ، تحليلا لم يتهيأ لأحد من قبله ، وستظل هذه الكـــتب الخالـــدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضـــل ، والبصـــيرة التـــى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت إليها فى مسالك متشعبة . "

ويقـــول الأستاذ محمود تيمور : " اقرأ كتاب فجر الإسلام وصـــنويه الضـــحى والظهر تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامـــع الروح الأصلية التى تميط الغبار عن معالم الفكر العربى وتريك الضوء من مصابيحه . ".

الفصل الثالث

فن القصة

أهمية القصة :

ليس يخفى أن فن القصة هو فى مقدمة الفنون الكتابية رواجا وشيوعا وانتشارا ، لدرجة تجعلنا نقول إنه أخذ يزاحم فن الشعر ، ذلك الفن الذى يعد بكل المقاييس الفن الأصيل فى أدبنا العربى ، بل وفى الآداب الإنسانية قاطبة [١].

ويبدو أن هناك عوامل بعينها جعلت القصة تروج ، ويقبل الناس عليها ، ويعنى الكتاب بها ، فهى أيسر مئونة من معالجة الفنون الأخرى ، هذا فضلا عن سهولة طبعها فى كتب ، ونشرها فى صحف يومية ومجلات أسبوعية .

ثم إن القصة تصور جانبا من جوانب حياة صاحبها ، أو تصور حدثا من الأحداث وقع لشخص من الأشخاص ، وهذا معناه أن الحدث الذى يتناوله القاص بالتصوير موجود فى الحياة [٢] ، أو فى جانب من جوانبها ، وهذا هو السر فى أن

---

(١) انظر أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ، ص ٣٣٢ وما بعدها . نشر وطبع مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣ م .

(٢) انظر اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ، د/ محمد نايل ، ص ١٤٥ .

الســـواد الأعظم من الناس يحسون متعة القصص وهم يقرءونها ، بـــل ويأخـــذون العبرة منها من غير جهد يبذل كما هو الحال فى بعـــض الفـــنون الأدبية الأخرى ، تلك التى تحتاج فى تذوقها إلى درجة من الثقافة المعينة .

وعلى هذا فالقصة فن أدبى بالغ الأهمية فى الأدب العربى ، بل وفى الآداب العالمية قديمها وحديثها ، كما أنها بالغة الخطر فـــى حياة الإنسان ، إنها تمثل قطعة حياتية بكل مالها من حوادث ومشـــاهد، وأطـــوار ، ومشاعر ، ودور الكاتب إزاء ذلك كله أن يصـــور تصويرا فنيا رائعا ، ممتعا مثيرا ، أى أن ينقل مشاهداته وإحساساته من عالم الحس إلى عالم الأدب .

تعريف القصـــة :

من الإنصاف أن نقول إنه ليس من الميسور وضع تعريف علمى محدد للقصة ، ولعل ذلك راجع لتنوعها ، واختلاف سماتها مـــن لـــون إلى آخر ، واختلاف الأطوار والعصور ، والمدارك والـــثقافات ، هذا فضلا عن اختلاف المنابع التى تستسقى منها ، فمـــنها مـــا يستمد من المجتمع الذى يعيش فيه الكاتب ، ومنها ما يســـتلهم التاريخ بأحداثه وشخصياته ، ومنها ما يعتمد على رؤية القاص الذاتية ، ومنها ما يعتمد على خاطرة مرت بذهن القاص ، أو خبر سمعه أو قرأ عنه ، ومنها ما يصور فحسب نفسية القاص

، وما يعتور إحساسه وتوازعه [١] ، والقاص فى كل ذلك يغوص فى أعماق المنبع ، ويعكس عليه من أفكاره وخيالاته ما يحيله إلى عمل فنى خالص .

وفـــى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن القصة تقوم على أحـــداث ، وتجـــارب ناجمة عن المشكلات التى تواجه الإنسان ، ومـــن هـــنا كـــان خطرها فى الحياة الإنسانية عظيما ، وكان لها سلطان فى نفوس الكتاب والقراء على السواء .

وأيـــا ما كان الأمر فالقصة فى جميع أحوالها حكاية تقوم علـــى سرد أحداث وقعت ، أو محتملة الوقوع ، اختارها القاص ليصـــورها تصويرا فنيا ، بعد أن وقف منها موقفا معينا ، وقدمها لـــنا بأســـلوب يناسب الأشخاص الذين وقعت لهم تلك الأحداث ، لتبقى ما شاءت له قيمتها الفنية .

وفـــى جميع الأحوال ليس للقصة موضوع محدد ؛ فمجالها فى الحوادث الواقعية اليومية التى نشاهدها لا ينضب ، ثم إن لها مـــددا آخـــر لا يمكن وضع حد له ألا وهو خيال الكاتب ، الذى يبتكـــره ويؤلفه من أفكاره وتصوراته ، سواء أكان على مثال ما يقـــع حقيقـــته ، أم أن تكون الأحداث لم تقع إلا فى مخيلة الكاتب

---

(١) انظـــر إبـــراهيم عـــبد القادر المازنى ، د/نعمات أحمد فؤاد ، ص ٢١١ . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

ووجدانـــه ، فالأهمـــية كلهـــا " فى تنسيقه للحوادث وترتيبه لها ، وربطه بينها وبين أشخاصها على نمط حى مثير ، يمنحها القدرة علـــى اجــتذاب القارئ وشد انتباهه ، حتى يندمج فى حوادثها ، ويعــيش مـــع أشخاصها ، يتحرك معهم ، وينفعل بانفعالهم ، كأن القصة وقعت حقا ، وكأنها يشهدها فعلا ، لا يقرؤها قولا " (١) .

ولعلـــنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن القصة لم تعد اليوم كمـــا كانـــت علـــيه فى الماضى " يدور موضوعها حول أبطال الـــتاريخ ، ورجـــال المغامرات ، وضحايا الحب ، أو يدور حول الطبقة الإرستقراطية ، والموضوعات الغيبية والأسطورية ، وإنما اتجهـــت إلـــى الطـــبقات الشعبية ، تصور مشاكلها الاجتماعية ، وتجاربهـــا النفسية ، وتعبر عن مشاعرها واتجاهاتها وتطلعها إلى الحياة..." (٢).

<u>نشأتهـــــا :</u>

يـــذهب كثير من الأدباء والنقاد إلى أن القصة فن استحدث فـــى الأدب العربـــى المعاصر نتيجة الاتصال بأوربا فى عصر النهضـــة الحديـــثة .. وهذا يترتب عليه مقولة خطيرة مؤداها أن الأدب العربى يخلو أو يكاد من القصة ، مع أن كتب الأمثال تدل

---

(١) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ، د/ محمد نايل ص ١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٦ .

على أن العرب عرفوا فن القصة منذ أقدم العصور وإن كانت فى أول أمـــرها أخـــبارا مـــروية وكانت تمتزج فيها الحقيقة بالخيال والتاريخ بالأسطورة .

وأصـــحاب هـــذا الرأى يرددون دعاوى المستشرقين من أمـــثال (جـــب) الذى يقول عن القصة العربية : لقد حاول بعض الكتاب العرب أن يثبتوا أن القصة العربية ترجع فى أصولها إلى الأدب العربـــى القديم ، ولكن كل محاولة من هذا القبيل لا بد وأن تـــبوء بالإخفـــاق لأن للقصة خصائص معينة تفرقها عن ضروب الأدب القديم (١) .

ولـــم يقتصر المستشرق (جب) فى تناوله لهذا الموضوع عـــند حـــد الأسباب الموضوعية ولكنه تجاوز ذلك كله إلى درجة تحط من شأن حضارتنا العربية وأدبنا العربى حينما ذهب إلى أن السر فى عدم نضج القصة العربية يرجع إلى عدم مباشرة العرب أعمـــال المخـــيلة أمـــدا طويلا . فإن ضروب الأدب الخيالى عند العـــرب كالقصيدة والرسالة والمقامة كلها قصيرة لا تكلف مخيلة

---

(١) أدب المازنى : د/ نعمات أحمد فؤاد ص ١٣٥ مطبعة دار الهنـــ١٧١-ا القاهـــرة ١٩٥٤ م .

الكاتب إلا مجهودا يسيرا لأنه يعالج مواضيع معروفة أو ضيقة [١] .

وقد أثار هذا القول جدلا ونقاشا بين الباحثين ، ووقف كثير منهم [٢] يدافعون عن حق العرب فى هذا المضمار ويؤكدون أن التراث العربى حافل بألوان مختلفة من القصص ، وأن القصة بدأت منذ العصر الجاهلى فى صورة قصص ترويها لنا كتب الأدب عن أيام العرب المشهورة كداحس والغبراء وأيام ذى قار وحليمة وغيرها .

وفى ظلال الإسلام شاعت قصص الوعظ وغيره من أقاصيص الفرس والروم والهند وغيرهم ، كما ظهرت كتابة السيرة والتاريخ ، ثم كتابة أيام العرب وأحاديث الخلفاء والولاة ثم أخبار الفتوح .. هذا إلى جانب ما تضمنه القرآن الكريم من قصص الأنبياء، ثم زاد الاهتمام فى عصر بنى أمية بالقصص الشفوى ، إذ كان الخلفاء يخصون بعض أوقاتهم لسماع أخبار

---

(١) أدب المازنى : ص ١٣٦ .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ١٦ ، ١٧ دار المعارف . وانظر كذلك : قصص العرب تأليف محمد جاد المولى وعلى البجاوى ومحمد أبو الفضل : الجزء الأول ص ٣ . دار أحياء الكتب العربية الطبعة الثالثة ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م .

الأمـم الماضـية كمـا كان يفعل معاوية ، وكانوا كذلك يتيحون لـبعض القصاص فرصة محادثة الناس فى المساجد ، الأمر الذى ساعد على رواج الحكايات و الروايات .

وفـى العصـر العباسـى الثانى اتسع مجال القصة ، لأن الـرواية آنـذاك قد ضبطت وأحكمت شروطها .. هذا من جانب ومـن جانـب آخر كثر التدوين في العلوم ، وحفلت كتب الأدب بالأخـبار عن المشاهير وغير المشاهير ، وألفت فى القصة كتب مـثل : " المحاسـن والأضداد " للجاحظ و " المكافأة " لأحمد بن يوسف ، وتضمنتـها كتب مثل " العقد الفريد " لابن عبد ربه و " الحـيـوان " للجـاحظ و " الأغانى " لأبى الفرج الأصبهانى ، ثم قصص المقامات وغيرها .. هذا إلى جانب ما نقل إلى العرب من قصص كثيرة من الأمم المجاورة لهم ، وذلك عن طريق الترجمة التى نشطت نشاطا لا بأس به فى عصر الدولة العباسية .

ومـع أن القصـة العـربية فـى عصورها الأولى لا تعد بأصولها لونا فنيا من الدرجة الأولى ، لأن معظمها لم يكن يقصد بـه إبراز حقيقة تاريخية فى قالب فنى ، وإنما كان الغرض منها هو التفكه حينا والنصح والوعظ حينا آخر ... وكانت هذه القصة تسـاق فى تضاعيف الكتب والرسائل .. هذا إذا عرفنا أن بعضا مـن هـذه القصص لم تكن تكتب باللغة العربية الفصحى ، وإنما

كانـــت اللغـــة العامية هى السائدة عليها ، وهذا باستثناء ما فعله القاضـــى التنوخى صاحب كتاب " الفرج بعد الشدة " فالكتاب كله مخصـــص للرواية والحكاية عن قوم أصابتهم النقمة ، ثم لم يلبثوا أن ألمت بهم رحمة الله تعالى فبدلت نقمتهم نعمة ، ويستثنى كذلك بديع الزمان الهمذانى بمقاماته التى أنشأها ، فهى تعد بلغتها تراثا أدبـيا يعتز به ، وقد راجت هذه المقامات رواجا عظيما ، وسار الكثيرون على نهجها وكان على رأس أولئك الحريرى .

وأيا ما كان الأمر فإن للقصة أصولا عامة وأصولا خاصة . والأصـــول العامة تقوم على ما يجرى فى القصة من الحوادث ســـواء أكـــان مـــدارها على الحب أو القتال أو غير ذلك ، وأما الأصول الخاصة فتقوم على التناول الفنى للحادثة أو الحوادث .

فأمـــا القصـــة فـــى أصـــولها العامة – أى بمعنى السرد والوصـــف– فهـــى قديمـــة قـــدم الإنسان نفسه ، وقد نشأت عند الشـــعوب البدائية مع البدايات الأولى للحياة بصورة أشبعت حاجة الإنسان ، وتصوراته عن الآلهة والطبيعة وما وراءها .

وقـــد ظهـــر النثـــر القصصى [١] أول ما ظهر فى الأدب اليونانـــى فـــى القـــرن الثانى بعد الميلاد ، ثم ظهرت القصة فى

---

(١) انظر : أصول النقد الأدبى للشايب ص ٣٣٢ وما بعدها الطبعة الثامنة ١٩٧٣ م .

الأدب اللاتينـــى فى نهاية القرن الأول بعد الميلاد ، ثم ظهر فى العصـــور الوســـطى نوع من القصص ذات طابع شعبى ، وهذا الـــنوع مـــن القصـــص إن هو إلا مجال من مجالات نفوذ الأدب العربى والشرقى إلى الآداب الغربية فى العصور الوسطى .

ومـــن المقطـــوع به أن هذا الطابع للقصة الأوربية قد نشأ علـــى أثر اتصال الغرب بالشرق إما فى الحروب الصليبية وإما عن طريق العرب فى الأندلس ، على أن القرائن التاريخية تحمل علـــى الاعـــتقاد أن طابـــع الحب والفروسية الذى لون القصص الشـــعبى فـــى العصور الوسطى إنما ظهر فى الآداب الأوربية بتأثيـــر من حب الفروسية العربى الذى ظهر عند العرب بعد أن أشربوا روح الإسلام وعبروا عن عواطفهم بطريقة عفيفة تتمشى والعواطـــف العربية الإسلامية الأصيلة التى تحترم المرأة وتحفظ لها مكانة كريمة تليق بها .

وفـــى عصر النهضة ظهر فى أوربا نوعان من القصص مثل قصص الرعاة وقصص الشطار ، وقصص الرعاة لا تختلف كثيـــرا عـــن قصص الفروسية والحب ، أما قصص الشطار فهى قصـــص تمثل العادات والتقاليد للطبقات الدنيا فى المجتمع ، وهى ذات صـــفة هجائية للمجتمع ، وقد ظهر هذا اللون فى أسبانيا .. ومـــن المرجح أن هناك وجوه شبه قوية بين قصص الشطار هذه

وبـــين المقامـــات العربية كما عند الهمذانى والحريرى ، فالقرائن التاريخـــية تقطع بأن مقامات الحريرى عرفت فى الأدب العربى فـــى أسبانيا ، وهذا التلاقى التاريخى هو الذى يفسر وجوه التشابه الكثيرة الواضحة بين المقامات وجنس قصص الشطار فى الأدب الأسبانى [١] .

ومـــن ثـــم أخـــذت القصـــة تنحو نحوا واقعيا وتخلو من الخـــوارق الغيـــر مألوفة ، وظهرت قصص العادات والتقاليد فى معناها الحديث، ثم تطورت هذه القصص فى أواخر القرن الثامن عشـــر وتأثـــرت بدعوة الرومانتيكية فى الاهتمام بقضايا الشعب والاعـــتداد بحقوق الفرد ، فظهرت من ثم القصص ذات القضايا الاجتماعـــية ، وهى قصص تصف عادات وتقاليد مختلف الفئات الاجتماعـــية بغـــية الرحمة بالبائسين والانتصاف لهم من الطبقات الأرستقراطية .

القصة الفنية :

وفى منتصف القرن التاسع عشر وبعد انتهاء الرومانتيكية تمت للقصة نواحيها العامة الفنية وذلك بفضل المذهب الواقعى ..

---

(١) الأدب المقارن د/ محمد غنيمى هلال ص ٢١ . دار نهضة مصر الطبعة الثالثة .

فالـــذى لا شك فيه أن القصة فى الآداب العالمية تأثرت بالواقعية تأثيرا عميقا فى الأسس الفلسفية والقواعد الفنية .

وقد عرف العرب – شأنهم شأن غيرهم من الأمم – القصة بالمعنى العام الذى سبق الحديث فيه – أى بمعنى السرد والوصف – كقصـــة عنتـــرة والمقامات والسير والأخبار والنوادر والأمثال وقصـــص الحب العذرى وقصص أخرى جاءتهم نتيجة الاتصال بثقافات الأمم الأخرى مثل كليلة ودمنة (١) وألف ليلة وليلة (٢) .. غيـــر أنهـــم لم يكونوا يميلون – لبساطة طبائعهم – إلى القصص المعقـــد الذى وجد كثيرا فيما أثر عن اليونان والذى ذاع وانتشر عند الأوربيين .

---

(١) تأثـــر الكاتب الفرنسى " لافونتين " بالأدب العربى فى نموذج " كليلة ودمنة " على حســـب تـــرجمتها الفارســـية ، وكان تأثره واضحا بكتاب " كليلة ودمنة " الذى ترجمه حســـين واعـــظ كاشـــفى ، ومن ثم فلم يكن الأدب اليونانى هو المصدر الذى أخذ من لافونتين . وفى القرن الثامن الميلادى – فى خلافة أبى جعفر المنصور – ترجم عبد الله بـــن المقـــنع كـــتاب " كليلاج ودمناج " من الإيرانية إلى العربية باسمه الحالى . ثم ترجمه فى العصر العباسى عبد الله بن الأهوانى مرة ثانية ، وصاغه نظما الشاعر أبان بـــن عـــبد الحمـــيد اللاحقى فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وحاكـــاه فى ذلك شعراء آخرون .

(٢) انظر كتاب " فى أصول الأدب " أحمد حسن الزيات .

وأمـــا القصـــة بمعـــناها الخاص – أى بمعنى الفن الأدبى الحـــديث- فهى وليدة النهضة الأوربية الحديثة [١] ، وقد أخذ هذا اللـــون من القصص يدخل فى أدبنا العربى الحديث كأثر من آثار اتصـــالنا بالقصـــة الأوربية فى عناصرها الفنية الحديثة ، وهكذا أخذت القصة العربية طريقها إلى القصص الأوربى ، واحتذته فى الأصول الفنية المتبعة وفى إطار المذاهب الأدبية الحديثة .

والذى لاشك فيه أن الترجمة أسهمت فى نقل ثقافة الغرب وعلومه إلى اللغة العربية ، وكان لها أثر فى تنوع الحركة الأدبية ســـواء فى الشكل حين ظهرت القصة بأنواعها ، أم فى المضمون حيث تأثرت القصة باتجاهات الغرب الفنية .

وقـــد ظهـــرت طبقة من بعض المتعلمين الذين لهم معرفة باللغـــات الأوربـــية ، وأخذت هذه الطبقة تعنى بترجمة الأعمال الأدبـــية الغـــربية ، فقـــام " رفاعـــة رافع الطهطاوى " بترجمة "مغامـــرات تليماك" الفرنسية ونقلها إلى العربية ، وسماها " وقائع الأفـــلاك فى مغامرات تليماك " . وفى أواخر القرن التاسع عشر يتـــرجم " محمـــد عثمان جلال " كثيرا من الحكايـــات الفرنســـية للافونتـــين فى كتاب أســـماه " العيون اليواقظ فى الحكم والأمثال

---

[١] انظر فن القصة ، لأحمد أبو سعد : ٧/١ . بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٩ م .

والمواعظ " .. ومع هذا فلم يتقيد بالأصل الذى ترجم عنه ، ولكنه أخـــذ يمصر بعض الأماكن فى الحكاية ، أو يجعلها وكأنها تجرى وتـــدور فـــى بلـــد عربـــى ، هذا بالإضافة إلى أنه أضفى على نصـــائحها طابعا دينيا اقتبسه من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشـــريف .. ولا يخفـــى أنه كان لبعض متعلمى الشام السبق فى معرفة اللغات الأوربية وبخاصة منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، ولـــذلك كـــان لهم فضل السبق فى الاتصال بالأوربيين والأخذ عنـــهم ، ومن أمثـــال هؤلاء " سليـــم البستانى " (ت ١٨٧٤ م) و " جرجى زيدان " (١٨٦١ – ١٩١٤ م) ، فقد استوطنا مصر وأخذا ينقلان ثقافة الغرب وعلومه .

وقد برع زيدان فى كتابة القصة التاريخية الإسلامية ، فله نـــيف وعشرون رواية تاريخية ، وكلها تؤرخ للحوادث الإسلامية الكبـــرى ، ويتميز دون صاحبه بأن مقومات فنه جمعت بين آثار الكاتب والصحفى والباحث التاريخى والأديب ، وجميع آثاره تدل علـــى نضج المفهوم الفنى للقصة عنده ، كما تدل على جمعه بين الناحـــية الأدبـــية والناحية التاريخية ، واطلاعه على الاتجاهات الحديثة فى القصة والنقد القصص الغربى .

هـــذا وقـــد ترجم بعض أصدقاء الكاتب " مصطفى لطفى المنفلوطـــى " (١٨٧٦ هــــ – ١٩٢٤ م) أعمالا قصصية عن

اللغة الفرنسية مثل : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كاروبــول وفرجينى (الفضيلة) لبرناردى سان بيير ، وسيرانود برجــراك (الشـــاعر) لأدمـــون رستان [1] ، وأعاد المنفلوطى صـــياغة هذه الأعمال بأسلوبه هو ، إذ لم يكن يعرف لغات غير العـــربية ، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب ، والمنفلوطى ـــ وإن لـــم يتقيد فى كتابة هذه القصص بالأصل المترجم ـــ له فضل الصياغة بالأسلوب الرصين ، مما يضيف إلى هذا الفن فى أدبنا العربى قوة ورصانة ، هذا بالإضـــافة إلى معالجتـــه لبعض القصـــص القصـــيرة فى كتابـــه " العبرات " وهى قصص تدور حول الفقراء والبائسين .

وللأديب اللبنانى ناصيف اليازجى (١٨٠٠ ـــ ١٨٧١ م) كـــتاب " مجمـــع البحرين " وهومجموعة مقامات (٦٠ مقامة) صـــاغها علـــى طـــريقة الحريـــرى فى مقاماته ، وقد ودع فيها اليازجـــى مـــا يجعلها طرازا تقليديا صميما وذلك بهذا الحشد من الزينة البديعية والذخيرة اللغوية التى تزخر بها هذه المجموعة .

ثـــم أخـــذت القصـــة العربية تنتقل من حال إلى حال حتى قيض الله لها كاتب عربى هو " محمد المويلحى " (ت ١٩٣٠م)

---

(١) تـــاريخ الأدب العربـــى ، أحمـــد حســـن الـــزيات ص ٤٦٢ ، الطبعة الخامسة والعشرون .

فخطا بها خطوات واسعة نحو القصة الحديثة بأصولها الفنية التى تعـرف الـيوم، وهذه الإضافات التى فعلها المويلحى خطوة جادة تخرج القصة من القالب التقليدى الذى كان عند اليازجى .

وظلـت القصة على هذا الحال إلى أن انقطعت المحاولات الجادة لإحياء فن المقامة بعد محاولة المويلحى فى " حديث عيسى ابـن هشـام " وظهرت آنذاك مجموعة قصص ركيكة الأسلوب ضعيفة البناء ، وفوق ذلك فهى تبعد تمام البعد عن الأصول الفنية للقصـة ... وظل الحال هكذا إلى أن أصدر الدكتور محمد حسين هيكل قصة طويلة تسمى " زينب " (١٣٣٠ هـ ــ ١٩١٢ م) .

وتعد رواية " زينب " بداية للرواية الفنية فى الأدب العربى الحديث ، ويتفق كثير من النقاد على أنها فاتحة القصص الفنى فى الأدب المصـرى الحديث ، وأخذت القصة طريقها إلى النمو إلى أن كانـت الحـرب العالمية الأولى فظهرت أنماط فنية جديدة فى القصـص، وذلـك عندما توفر على كتابة القصة عدد من الكتاب المجـيدين أمثال : طه حسين ، والمازنى ، والعقاد ، ومحمد فريد أبـو حديـد ، وعلى أحمد باكثير ، ونجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحلـيم عـبد الله ، ومـنهم فـى المملكة العربية السعودية حامد الدمـنهورى ، والشـيخ عبد القدوس الأنصارى . وقد استوحت الأعمال القصصية لكل أولئك وغيرهم التاريخ وتحدثت عن الواقع

الاجتماعـــى وعن النفس الإنسانية، كل هذا مع تنوع أنماطها تبعا للمـــادة التـــى يتناولها الكاتب وتبعا للفلسفة التى يريد لقصصه أن تنتهجها .

عناصر العمل القصصى (١) :

لاشـــك أن العمـــل القصصى يختلف تبعا لاختلاف البناء الفنى واللغة والأسلوب ، وحين ننظر نظرة متفحصة إلى أى عمل قصصـــى نجـــده يتضمن أحداثا كثيرة وخبرات متنوعة ، ووقوع هـــذه الأحـــداث لا بد أن يكون فى مكان وزمان ، ولابد أن تقع لأناس أو تحدث منهم ، ثم هناك الفكرة أو وجهة النظر ، كما أن هناك الأسلوب ... هذه وتلك هى العناصر والأدوات التى تكشف لـــنا طريقة المؤلف فى النظر إلى قضية من قضايا الحياة أو فى النظر إلى الحياة ذاتها .

وهذه هى أهم العناصر :

١ ــ الحادثة أو الإطار :

والحادثـــة هـــى مجموعة الوقائع المرتبطة والمنظمة على نحو خاص والذى به تختلف قصة عن أخرى ، فكل قصة ترتبط

---

(١) اعتمدنا فى كتابة هذه العناصر على كتاب " الأدب وفنونه " د/ عز الدين إسماعيل ص ١٨٥ وما بعدها ، دار الفكر العربى ، الطبعة الخامسة ١٩٧٣ م .

الأحـــداث فـــيها ارتباطا منطقيا يجعل من مجموعها وحدة ذات دلالة محددة .

٢ ــ السـرد :

والســـرد هو نقل الأحداث من الواقع والحقيقة إلى صورة لغــوية تقــرأ وتحكــى ، وهـــو يتمـــثل فى الحوار الذى يتم بين شخصيات القصة ، ولكل كاتب طريقته فى اختيار اللون المناسب منه لقصته .

٣ ــ البناء :

ويتمـــثل فـــى الوقائـــع التى يختارها المؤلف ويكون منها الحادثـــة، وتختلف الصورة البنائية تبعا لاختلاف نوع القصص ، فبـــناء الـــرواية لا يصلح للقصة وبناء القصة مثلا لا يصلح لبناء القصـــة القصيرة .. ومن ثم فبناء القصة لا يصلح لبناء الرواية ، وذلك لأن كل نوع يتطلب – بحكم طبيعته – صورا بنائية خاصة

٤ ــ الشخصية (١) :

إن القصـــة تعـــرض عـــن طريق السرد – أحداثا ما ذات دلالات خاصـــة ، فلا بد أن تشتمل على شخصيات تحدث وقائع

(١) انظر مقالات فى النقد الأدبى د/ رشاد رشدى ص ٧٩ وما بعدها . الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .

هـــذه الأحـــداث ، وللشخصـــية أهمية كبيرة فى العمل القصصى وهـــناك نـــوع مـــن القصة تظهر الشخصية فيها دون أن يصيب تكويـــنها أى تغييـــر ، وإنمـــا الـــذى يصيبه التغيير هو علاقاتها بالشخصـــيات الأخـــرى ، ومـــن ثـــم هناك قصة أخرى تتطور الشخصـــية فيها من تصرف إلى تصرف ومن حال إلى حال ومن موقـــف إلـــى موقـــف ، والشخصـــية فـــى النوع الأول تسمى " الشخصـــية الجاهزة " وفى النوع الثانى تسمى "الشخصية النامية "

٥ ــ الزمان والمكان :

حـــوادث القصـــة ينبغى أن تقع فى زمان بذاته وفى مكان محـــدد معلوم ، لأن هذه الحوادث ترتبط بعادات وتقاليد وظروف خاصـــة ومـــرتبطة بزمان دون سواه وبمكان دون غيره ، وهذا الارتـــباط لا يقلل من قيمة العمل القصصى ولكنه ضرورى لبث الحـــيوية فـــى القصة من ناحية ، ثم لفهم الحالة النفسية للقصة أو الشخصية .

٦ ــ الفـــكرة :

إذا كانـــت الفكرة هى الأساس الذى يقوم عليه البناء الفنى فـــى القصة فهى أيضا النتيجة التى تقررها أحداث القصة ، وأى قصـــة لا يـــتحدد لهـــا شكل معين أو نوع حتى تتحقق فيها فكرة

الكاتب ، وكما أن هناك أنواعا من القصة تعنى بالشخصية أو بالحادثة ، فهناك قصة تهتم اهتماما أكبر بالفكرة ويقل فيها الاهتمام بالتشخيص وبالسرد .

الأنواع القصصية :

يختلف العمل القصصى من ناحية اللغة والأسلوب والبناء الفنى تبعا لاختلاف نوعه ، فهناك القصة ، وهناك القصة القصيرة ، وهناك الرواية ، وإن كانت جميعها تحكى أحداثا واقعية أو متخلية .

* والرواية هى أكبر الأنواع القصصية من حيث الحجم ، وفى الرواية تكثر الشخصيات كما تكثر الأفكار والتفصيلات ، وكان ظهورها مرتبطا فى أوربا بالنظام الإقطاعى الذى ساد العصور الوسطى ، فالرواية كانت الأدب الارستقراطى غير الواقعى للنظام الإقطاعى . وهى لم تكن واقعية بمعنى أن الهدف منها لم يكن لمساعدة الناس مساعدة إيجابية فى حل المشكلات المتعلقة بأمور الحياة ، ولكن للانتقال بهم إلى عالم مثالى مختلف عن عالمهم هو أجمل منه وأحسن (١) .

---

(١) الأدب وفنونه د/ عز الدين إسماعيل ص ٢٠٣ .

وقد ظهرت الرواية فى عالمنا العربى بعد أن زاد الاتصال الثقافى بينه وبين الغرب الحديث خلال القرن التاسع عشر الميلادى وما تلاه ، وظهرت آنذاك حلقات من الروايات التاريخية والإسلامية، فاختار مثلا نجيب محفوظ موضوعا لرواياته يتفق وروحنا الجديدة التى تبحث عن التحرر السياسى والاجتماعى والثقافى ، وتمثل هذا فى رواية " كفاح طيبة " .

* وأما القصة القصيرة فهى أحدث الأنواع القصصية ظهورا، وربما هى أكثر هذه الأنواع رواجا فى القرن العشرين [1] .

وقد ظهر هذا اللون من القصص فى أدبنا العربى بفضل بعض الشاميين الذين انتقلوا إلى مصر ومارسوا فيها مهنة الكتابة ونذكر من هؤلاء خليل مطران ، وقد شارك بعض الكتاب – بما كتبوه على صفحات الصحف والمجلات – فى هذا الون ، ونذكر منهم الدكتور طه حسين ، وأحمد حسن الزيات وغيرهم ممن سافروا إلى أوربا وتثقفوا بآدابها أمثال محمود تيمور (١٨٩٤ – ١٩٧٣ م) ، الذى اكتمل هذا الفن عنده ، حتى أصبح مجموع ما كتبه يتجاوز العشرين عملا قصصيا ، هذا إلى دوره فى جعل

---

(١) انظر : فن القصة القصيرة للدكتور رشاد رشدى .

أقاصيصـــه تتسع للنزعات الإنسانية العامة ، ولعل هذا هو السبب فـــى أن ترجمت قصص كثيرة له إلى لغات أوربية عديدة . ولعل هـــذا نفســـه هـــو السبب فى قول الدكتور شوقى ضيف عنه إنه مؤســـس هذا الفن القصص فى الأدب العربى الحديث ، وهو فيه أستاذ دون منازع [١] .

وكل كاتب يصدر فى كتابة قصته باعتبار تصوره الخاص للمـــنهج والوسيلة والغاية ، فبعض الكتاب يؤثر تفصيل حوادثه ، وبعضـــهم يؤثـــر التركيز على الشخصية وبعضهم يؤثر التركيز علـــى الفكرة ، وغاية الجميع فى كل هذه الأحوال هى أن يبدعوا عملا فنيا يزداد ثراء وتنوعا .

* وأمـــا القصـــة فهـــى التـــى تكون بين الرواية والقصة القصـــيرة ، فإذا كانت الرواية من القصص تتطلب مهارات فنية خاصـــة ونفســـا طـــويلا ، فـــإن القصة هى التى تتوسط الرواية والقصـــة القصيرة ، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج فـــى القصـــة القصيرة ، ولكنها لا تصل إلى درجة الرواية فـــى تسلسل أحداثها وفى تعدد شخصياتها .

---

[١] الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٣٠٢ . دار المعارف بمصر .

* وأمـــا الأقصوصة فهى أقل من القصة القصيرة طولا ، ويسمونها " النادرة " ، وهى لا تتجاوز بعض صفحات .

القصـــة القصــيرة

القصـــة القصيرة نوع من الأنواع القصصية التى ظهرت فـــى أواخـــر القرن التاسع عشر الميلادى (١) ، وهى قصيرة من حـــيث الحجـــم لا من ناحية الخصائص الفنية ، ومن سماتها أنها تتـــناول موضوعا واحدا مـــن جانب واحد ، وتهتم بوصف حادثة واحدة لهـــا عناصرها الجزئية على طريق التركيز ، داخل إطار الزمان والمكان ، حيث لا تتعدد الأمكنة ولا يمتد الزمن (٢) .

وقد ظهرت بداية التيار الجديد فى كتابة الأقصوصة الفنية (٣) علـــى يـــد السوريين المهاجرين ، غير أنه بتتبع المجموعات القصصـــية التى ظهرت لهؤلاء يمكننا القول إنها اهتمت اهتماما

---

(١) انظـــر القصـــة القصـــيرة فى مصر ، لحمزة بوقرى ص ٦٢ وما بعدها . الطبعة الأولى .

(٢) انظر : الاتجاهات الواقعية فـــى القصة القصيرة حتى عـــام ١٩٨٠ م د / محمود الحسينى المرسى ص ٢١٦ دار المعارف ، مصر ١٩٨٤ م .

(٣) يكاد النقاد يجمعون على أن الأقصـــوصة قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبا من جوانب الحياة لا كل الجوانب (انظر محمود تيمور : دراسات فى القصة والمسرح ص ٩٩ . المطبعة النموذجية بمصر) .

بعـــيدا بالموضــــوعات الغرامية وبالمغامرات البوليسية ، ولم تكن تهـــتم إلا بعنصر المفاجأة والإثارة ، والمعتاد لقراءة هذه القصص سرعان ما يدرك نتائجها قبل قراءته لها .

وهـــناك عـــاملان ساعدا على رواج هذه القصة فى القرن العشرين . العامل الأول يعود إلى طبيعتها ، والعامل الثانى عامل خارجـــى . " أمـــا من حيث طبيعتها فقد أغرت كثيرا من الشبان بكتابـــتها رغم انها فى الحقيقة أصعب أنواع القصص ، وأما من حـــيث العـــوامل الخارجـــية فقد تميز عصرنا بالآلية والسرعة ، ومئات الصحف والمجلات تحتاج كل يوم لمئات القصص ، وهى بحكم الحيز والناحية الاقتصادية تفضل القصة القصيرة [١] .

هـــذا ولـــم يكتمل للقصة القصيرة الشكل الفنى إلا على يد كاتـــب مصـــرى هو محمود تيمور [٢] (توفى عام ١٣٩٣ هـــ) وآخر لبنانى وهو ميخائيل نعيمه ، فقد نشرت أول قصة فنية لكل منهما فى سنة واحدة وهى ١٩١٧ م .

ومـــع أن محمـــود تيمور من الأدباء الذين تشبعوا بالأدب العربـــى فإنـــه تطلـــع إلى الأدب الغربى ، وأعجب بالقصـــاص الفرنسى " موباسان " والقصاص الروسى " تشيخوف " وقد صدر

---

(١) الأدب وفنونه د . عز الدين اسماعيل ص ٢٠٥ .

(٢) انظر القصة القصيرة فى مصر ، حمزة بوقرى ص ١١١ وما بعدها .

عـــن هـــذين الكاتبين فى مستهل حياته الأدبية ، ولكنه سرعان ما نزع إلى الاستقلال والذاتية بفنه ، واستطاع أن يقدم لنا فنا مصريا صميما نهض بتمثيلنا فى ميدانه .

وأسلوب تيمور فى قصصه يحتفل برسم النماذج الإنسانية ، كمـــا أنه يهتم بالحبكة الفنية إلى حد كبير ، ولا يخفى أنه يستمد بواكيـــر قصصــــه من صميم الحياة المصرية ، فهو ينبع منها ، ويصـــدر عنها بكل مزاياها وعيوبها ، وهى دائما وراء أشخاص قصصه وكأنه يوحى لها ويسر إليها .

ومـــن قصصــــه " انتصار " وقصة " خلود " وقصة " إلى اللقـــاء أيهـــا الحب " وقصة " شمروخ " وقصة " الشيخ جمعه " ، وهـــذه القصة الأخيرة كانت صدى إعجابه بأقاصيص أخيه محمد تـــيمور ، كمـــا أنهـــا تمثل صدى تجاوبه مع الدعوة القومية التى تبـــناها أخـــوه ، وهـــى قصة تصور شخصية ريفية هى حارس الجـــرن ، كمـــا أنهـــا تمثل شخصية فلاح مصر بتقاليده وعاداته ومعتقداته وحضاراته .

وفى القصة يصور تيمور لوحة الشيخ جمعه فيقول : " وقد مـــرت السنون الطوال ، وتغير كل شىء على الأرض إلا الشيخ جمعـــه ، فهـــو هو الرجل ذو العمامة الحمراء والجلباب الواسع الأكمـــام هو هو بالعينين البراقتين والابتسامة العذبة ، ذو المشية

المستهلة والصوت الرقيق ، هو الذى يقوم من النوم مبكرا ميمما صوب الجامع ليؤدى فريضة الصبح قبل أن تشرق الشمس ، وهو الذى يقضى معظم نهاره فى المصلى الواقع على شاطئ الترعة يسبح ويقرأ الأوراد ويؤدى الفرائض ، إلى ذلك المصلى كنت أذهب فأجلس بجواره وأسمع له " .

... وللشيخ جمعه أوقات صفو كثيرة يمتع فيها نفسه ، فيطربه الشناء ، ويلتذ بسماع المزمار ذى الصوت الحنون ، وعندما يحمى وطيس الزمر والغناء ، ويشتد نقر الطبول يقوم الشيخ جمعه تهزه النشوة فيرقص فى غيبوبة وصمت ، ويده رافعة عكازه يلوح بها فى الفضاء .

وللرجل حديث عن أيام شبابه لا يمله السامع ، فكثيرا ما انطلق يصف هذا العهد ، ووجهه مشرق بتلك الذكريات الخالية وعيناه تلمع فيها أحلام الفتوة والصبا ، يفيض فى ذلك كله بتلك السذاجة الريفية الصافية ، فإذا ما أتم حديثه تنهد من أعماق قلبه ، والابتسامة العذبة تتضاءل رويدا على شفتيه ، ثم يقول فى حسرة : يا الله حسن الختام " .

.. هذه هى قصة " الشيخ جمعه أو حارس الجرن " . وقد اقتضت الظروف الكاتب أن يجدد فى هذه القصة كى تتناسب وتيمور رائد القصة فى مصر ، والذى منحه المجمع اللغوى

الجائزة الأولى عام ١٩٤٧ م ، ثم منح عام ١٩٥٠ م جائزة الدولة للآداب ، ولذلك حاول أن يجدد فى تعبيراتها ، وحذف منها مواقف وفقرات تدل على إحساسه بمواطن الضعف فيها ، وعلى كل حال فهو نموذج قصصى يمثل فكرة معينة .

وأيا ما كان الأمر فإننا يمكننا القول إن محمود تيمور قد أخرج القصة من قوقعة ضيقة كانت تعيش فيها ، وأنه فى كثير من قصصه الأخيرة يمثل نواحى جديدة لم تطرق قبله ، والحق أنه كان لثقافته الواسعة دور كبير فى محاولته التخلص شيئا فشيئا من عيوب الأقصوصة التى سبقته ، وإن كان لم يصل فى ذلك إلى القمة ، لأن رواسب التراث لم تتلاش عنده تماما .

الفصل السابع

فن الرواية

الــرواية هـــى أكبر الأنواع القصصية من حيث الحجم ، وهى كقصة طويلة تمثل مكانة ممتازة بين الفنون الأدبية الأخرى لاتصالها من ناحية بحياة الناس الماضية أو الحاضرة ، ثم لتشعب أغراضـــها واتســـاعها من ناحية أخرى ، وفوق ذلك فأسلوبها له جمال خاص .

والــرواية كقصـــة صاحبت الأمم من قديم الزمان ، وهى الصـــورة الأدبية النثرية التى تطورت عن الملحمة القديمة ، وقد كـــان ظهـــورها فـــى أوربا مرتبطا بالنظام الإقطاعى الذى ساد العصـــور الوســطى ، فالرواية كانت الأدب الأرستقراطى غير الواقعى للنظام الإقطاعى " (١) .

وكانـــت الــرواية تحكى قصصا حقيقية كما فى تصويرها لأحوال المجتمعات ولأحوال الملوك والأمراء والأدباء ، وقصصا أخـــرى خيالية مثل قصة كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء ، وغير ذلك من المغامرات الخيالية .

---

(١) الأدب وفنونه ، د / عز الدين إسماعيل ص ٢٠٣ .

وفـــى العصر الحديث أخذت الرواية تتطور إلى أن أصبح لهـــا وضع فنى خاص بها ، وفى محاولة لتتبع الرواية فى القصة العـــربية الحديـــثة نحـــن نـــرجع فضل ريادتها إلى رفاعة رافع الطهطاوى فى مصر ، وإلى سليم البستانى فى لبنان [١] . إذ كان الطهطـــاوى رائـــدا للـــرواية التعليمية فى مصر ، وبدأت جهود الـــرواية التاريخـــية فى الرواية العربية برواية (زنوبيا) لسليم البستانى عام ١٨٧١ م ، ثم أخذ هذا اللون ينحو نحوا تعليميا عند جورجى زيدان ، ومحمد فريد أبى حديد ، ثم وصلت إلى مرحلة النضج على يد نجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير .

وهكـــذا أخذت الرواية تتطور وتتقدم حتى أصبح لها كتاب فى كل بلد عربى تقريبا ، ففى لبنان كان سليم البستانى ، وجبران خلـــيل جبران ، وفى مصر كان طه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنـــى ، وعـــباس محمـــود العقاد ، وتوفيق الحكيم ، ومحمود تـــيمور ، ومحمـــد فريد أبو حديد ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعبد الحميد جوده السحار ، ونجيب محفوظ ، وعلى أحمد باكثير ، ويوســـف السباعى ، ويحيى حقى ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وغيـــرهم ، غير أن روايـــة " زينب " التى أصدرهـــا الدكتـــور

---

[١] انظر : تطور الرواية العربية الحديثة ، د / عبد المحسن طه بدر ص ٥١ وما بعدها ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

محمد حسين هيكل (١٣٣٠ هـ ١٩١٢م) تعد بداية للرواية الفنية فى الأدب العربى الحديث .

وقد توفر على كتابة الرواية فى المملكة العربية السعودية عدد من الكتاب المجيدين ، ومنهم الروائى عبد القدوس الأنصارى صاحب رواية " التوأمان " (١٩٣٠ م) والروائى محمد على مغربى صاحب رواية " البعث " (١٩٤٨ م) ، والروائى أحمد السباعى صاحب رواية " فكرة " (١٩٤٨ م) ، والروائى حامد دمنهورى صاحب رواية " ثمن التضحية " (١٩٥٩ م) ورواية " ومرت الأيام " (١٩٦٣ م) . غير أن أكثر الروايات السعودية وجدت طريقها إلى الصدور والنشر بعد عام ١٩٥٩ م وذلك بعد أن أصدر حامد دمنهورى روايته " ثمن التضحية " [١] ، فقد أصدر إبراهيم الناصر رواياته " ثقب فى رداء الليل " (١٣٨١ هـ) و " سفينة الموتى " ١٣٨٩ هـ ثم أصدر رواية ثالثة هى " عذراء المنفى " وهذه الروايات الأخيرة تمثل بلا شك اتجاها جديدا لم تألفه الرواية السعودية قبل ذلك .

---

(١) انظر الحركة الأدبية فى المملكة العربية السعودية د . بكرى شيخ أمين ص ٤٩٠ . دار العلم للملايين ، بيروت .

أما فى بقية الأقطار العربية فقد ظل الإنتاج الروائى الجاد قلـــيلا أو إن شـــئت فقـــل نادرا ، ولم تظهر محاولات جادة فى الـــرواية الفنية إلا فى العقد الرابع من هذا القرن (العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجرى) (١) .

أنواع الرواية :

يبقـــى أن ننظـــر إلـــى إنتاجنا الروائى لنرى تعدد ألوانه وتشـــعبها ، وطـــبقا للخصـــائص العامة التى تسود الرواية يمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية :

النوع الأول : الرواية التاريخية :

وهـــى تلـــك الـــرواية التى يهرب الكاتب فيها إلى التاريخ لأســـباب ودوافـــع قد تكون سياسية ، وقد تكون اجتماعية ، وقد تكـــون فكرية كما هو الحال فى الأزمان التى يكون فيها اضطهاد فكرى .

والحقـــيقة أن اســـتدعاء التاريخ وتوظيفه ليقوم بمهمة فنية أمـــر لـــيس بالميسور لكل كاتب وقد يتعذر حدوثه ، ولذلك نرى كثيرا من الكتاب يلجأون فى رواياتهم التاريخية إلى تغيير التاريخ

---

(١) انظر بانوراما الرواية العربية الحديثة . د . سيد حامد النساج .

شكلا ومضمونا ، وإلى إعادة صياغته وتكوينه من جديد ، وغير ذلك مما يراه ضروريا لبناء العمل الروائى .

واستحضار التاريخ للعمل الروائى فى فن من الفنون يهدف إلى غاية محددة يقصدها الكاتب ، وهذه الغاية لها أبعادها الواضحة وأهدافها المرسومة .. هذا بالإضافة إلى ما يجره هذا العمل من إمتاع ذهنى وعاطفى لصاحبه وقارئه على السواء ، ولا شك أن هذه المعالجة تفرض على الكاتب الالتزام بالتاريخ والحدث والطواف حوله زمانا ومكانا .

ومن الروايات التاريخية روايات جرجى زيدان ، ورواية " أمير الحب " للروائى السعودى محمد زارع عقيل (نشرت فى مجلة المنهل عام ١٣٨٥ هـ) ، وهو متأثر فيها بطريقة جرجى زيدان فى رواياته [(١)] .. غير أن أحدا من الكتاب العرب لم يبعث الأحداث التاريخية مثلما فعل " على أحمد باكثير " فقد سجل الأحداث التاريخية لا تسجيلا مجردا بكل تفاصيلها ، ولكنه ينتزع الحدث من التاريخ ، بحيث لا ترى من الأحداث التاريخية سوى هياكلها ، وكان فى كل ما كتب ينتزع من أحداث التاريخ الإسلامى حوادث معينة ، ويبعث من خلالها

---

(١) انظر : فن القصة فى الأدب السعودى الحديث د . منصور الحازمى ص ٤٧ .

مفاهـيم فكـرية معينة ، وقد قدم لنا هذا الكاتب التاريخ عملا فنيا رائعـا ، يقـودنا فيه إلى غايات سامية ومثل عليا .. وهو فى كل رواياتـه لـم يبعث التاريخ لذاته ، ولم يعرض الأصول التراثية لـذاتها ، وإنمـا كان يهدف بذلك كله إلى خدمة القضايا العربية المعاصـرة ، ولـذلك عبـر فـى رواياتـه عن القضايا العربية والإسلامية ، وتزايد عنده الشعور بالانتماء الغربى والإسلامى (١) ، وفـوق ذلك فهو من أبرز رواد العصر فى تنوع إنتاجه وتعدد محاولاته وجرأة تجارية .

النوع الثانى : الرواية الاجتماعية :

والـرواية الاجتماعـية هى الرواية التى تتعرض للأحوال الاجتماعـية مـن عادات وتقاليد ، كتصوير البؤس الاجتماعى ، وتصـوير الأوضـاع المضـطربة فى المجتمعات ، ولا عجب فالكاتب أدق الناس إحساسا وأرهف سمعا ، وأنفذ بصرا من غيره ، فهـو يشعر بمرارة الحياة فى أفواه الفقراء ، ويلمس كذلك وقع سهام الزمن فى أحشاء المنكوبين والمظلومين والمحرومين .

ومـن الروايات الاجتماعية " زينب " للدكتور محمد حسين هـيكل ، و " الأيـام " للدكـتور طه حسين و " عذراء المنفى "

---

(١) انظر روايته " وا إسلاماه " .

لإبــراهيم الناصر ، وهذه الروايات تصور عادات وتقاليد البيئة ، كما تصور طرق المعيشة وغيرها .. على أن هناك من الروايات الاجتماعــية ما يصور الحياة فى عصر من العصور ، كتصوير عــادات عصــر من العصور ، وتصوير تقاليده أو حضارته أو الآفات الاجتماعية فيه .. على أن الروائى الناجح هو الذى يوظف روايته ويستخدمها كأداة لنظرياته وآرائه فى الحياة ، وكذلك نرى بعض الروائيين يخصص لنفسه جانبا واحدا أو جانبين من الحياة بحــيث يمكنه أن يحلل الموقف تحليلا دقيقا يعكس ماله من نظرة فى الحياة وما عنده من فلسفة تجاهها .

رواية " زينب " لهيكل

يــتفق كثير من النقاد على أن رواية " زينب " لهيكل هى بداية الرواية الفنية فى الأدب العربى الحديث . وقد كتب الدكتور هــيكل روايــته هذه وهو مغترب فى فرنسا بسبب إعداده لرسالة دكــتوراه فــى الحقوق ، وقد تأثر الكاتب أثناء تواجده فى أوربا بالمــذهب الواقعى فنحا بقصته إلى هذا المذهب وعرض صورة واقعــية من الحياة المصرية فى الريف ، وعلى هذا فالقصة تدور فى مجال ريفى محض حيث نشأ هيكل وقضى طفولته الأولى .

أما ملخص الرواية فيدور حول " حامد ذلك الشاب المتعلم المشــبوب العاطفة والذى يعيش فى المدينــة ويتعلق عاطفيا بابنة

عمه " عزيزة "، ولكن التقاليد والأعراف الاجتماعية كانت تحول بيـــنه وبـــين ابنة عمه ، ولم تكن لتتيح له أن يفضى لها بحبه .. الأمـــر الـــذى أدى إلى زواج " عزيزة " من شاب آخر كانت لا تـــرغبه ولا تتمناه زوجا ..وهنا تحدث أزمة حرمان عاطفى عند حامـــد فيحاول أن يتخلص مـــن هذه الأزمة وذلك بتحوله عاطفيا إلى عاملة ريفية جميلة تدعى " زينب " وزينب هذه فلاحة بسيطة وتعمـــل أجيـــرة فـــى مزرعة حامد ، ولكن تحدث صدمة أخرى لحامـــد حينما ترفض الفتاة مشاركة حامد عاطفيا بحجة أن حامد مـــن طبقة الملاك (طبقة الأغنياء والإقطاعيين) بينما هى مـــن طـــبقة كادحة فقيرة وهذه طبقة دون طبقة حامد . وسرعان مـــا تقع أسيرة لحب فتى من طبقتها يدعى " إبراهيم " ، ولكنها تخطب لفتـــى آخـــر وتتـــزوجه لأن حبها لإبراهيم كان مكتوما فى قلبها وكانت التقاليد تحول دون بوحها به .

وهكذا يصدم حامد ولكنه يجد عزاءه فى تلك الفتاة الريفية التـــى تدعى " عزيزة " تارة وتارة أخرى " بزينب " . أما زينب فهـــى فى بيت زوجها حسن وقلبها ما يزال معلقا بإبراهيم وتكون نهايـــتها أن تصـــاب بمرض السل وتموت ، وسرعان ما ينفصل حامد عن أهله كرد فعل لصدمته العاطفية " .

فهـيكل يبـرع فى تصوير واقع الريف المصرى ، ولكنه تأثـر أيضـا بالنـزعة العاطفية الرومانسية التى قوامها إحساس المـراهق ، كمـا يتأثـر بالنزعة الإنسانية التى هى ظاهرة من ظواهـر الأدب الفرنسـى ، وفوق ذلك كله فقد نجح فى تصوير مشكلة اجتماعية ذات أهمية وهى مشكلة الحب والزواج ، وكيف تقـف التقالـيد الاجتماعية أمام زواج المرأة بمن تحب أو بمن لا تحب .

وأسـلوب هيكل فى قصته يمتاز بالسلاسة والمرونة ، فقد تخلـص من البناء المتهافت والأسلوب الركيك ، كما تخلص من المحسـنات البديعية التى كانت منتشرة فى كتابة معاصريه . وكل مـا يلاحظ على أسلوب هيكل فى روايته أن فيه قدرا لا بأس به من الألفاظ العامية التى قد لا يعلمها إلا القارئ المصرى لاتصالها بالعامية المصرية .

كمـا تأثـر هـيكل بالنزعة الرومانسية فى حب الطبيعة والشـغف بها ، وقد استغرق هذا حيزا كبيرا من الرواية ، بل إن الطبـيعة عـند هـيكل تمتزج بالعواطف الإنسانية من حب وكره وأمل ويأس وسعادة وشقاء وغير ذلك .

وهـذا نمـوذج يبـين شغف هيكل بالطبيعة . يقول : " قد أبدعت الطبيعة فى زينب وأعطتها بذلك تاجا معترفا به مـن كل

صـــويحباتها ، فـــإذا ساقك الحظ أيام الصيف ، وخرجت فى ليل غاب بدره ، وتألقت نجومه ، فخففت من سواد الليل وإن لم تقدر على تبديد ظلمته ، أو كنت أسعد حظا ، واتخذت القمر ، فأولجت بين تلك السطوحات الزراعية الكبيرة ، لم يكن لك بعد نقطة معينة إلا أن تسير فى طريق لا تعرف سبب سيرك فيه ، وتندفع مجذوبا بقـــوة لا قبل لك على مقاومتها ، وتسبق رأسك قدمك ، وتسوقك قـــدمك ، وذلـــك الجاذب وهواء الليل الجميل ، إلا أن تهمهم بين أســـنانك أو تنادى آلهة المستحسن الطرب ، أو تدعو الليل يجيبك صـــداه ، ولا تـــزداد فى كل ذلك إلا اتباعا لقائدك المحبوب ، ثم تصـــل إلـــى نقطة تقف عندها ولا تطاوعك قدمك إلى أية ناحية أردت أن تحركها ، وتمد عنقك وتسترجعه يستخفك الجمال ويلعب بقلـــبك الهـــوى . فتـــروح تائها فى كل ما حولك ، ثم يرتفع ذلك الصـــوت الذى جذبك إلى موقفك ثانية فتصيح له بأذنك وتصغى بكليـــتك ، فـــإذا زيـــنب تحدى والعاملات بعد ذلك يجبنها . تلك موسيقى الصيف فى ليله البديع ترسل فى أذن الخليقة النائمة نغمة الهوى ، وتبعث فى قلوب العاملين العزاء عن ليلهم الساهد . وهل هذا الصوت تردده الظلمة الصامتة إلا مهيجا فى النفس أجمل ما يعزيها عن كل مشقة ؟ .

فـــإن أنت تابعت سيرك واتبعت الصوت حتى صرت على مقربة منه رأيت البحر اللجى من شعاع حائر السماء ، والأطفال والفتيات وقد انثنوا فقبضوا بشمالهم على سيقان القمح النائم بعضه فوق بعض كأنه نشوان طرب بتلك العوامل الكثيرة التى تبعث إلى قلـــب المحزون ما يستحسنه ويستهويه ، وباليمنى على شراشرهم تلك النصف دائرة الحديدية التى وعت فرعون وتسللت مع الزمان إلى عصرنا الحاضر " .

والقصـــة مليـــئة بالمواقـــف العاطفية الرومانسية ، وتكثر الصـــور العاطفـــية حين توصف الطبيعة ، الأمر الذى يؤكد أن الطبيعة تتدخل فى كل شىء .

يقول هيكل مثلا : " صلى حسن الفجر وخرج قاصدا عمله فمـــر بهـــا وهى فى ذلك الذهول ، فسألها ماذا تنتظر ؟ ثم عاب علـــيها أنها غير منتظرة شيئا ، ورجعت إلى الوراء والأشياء قد بـــدأت تتميز ، والسكة يعمرها السائحون والرائحات " للملية " والنهار يطارد الليل العنيد ، لا يفيده عناده فى تلك الساعة شيئا ، فيطـــرده رويدا ، ثم رجعت دورها الثانى وقد بهت الشرق مبشرا بآلهـــة الـــنهار ، والـــنور يأخذ مكانه رويدا باعثا إلى مجاورات الأفـــق قـــبلة الصباح ، وكلما تقدمت هى فى خطواتها استضاءت السماء ، ثم بزغ القرص فى لونه الأرجوانى الذى وسع به أمسه

الدابـــر ، مـــتهاديا يتسلق العرش العظيم ، ويرسل على المزارع الهائلـــة التـــى تحـــيط به من كل صوب جلبابا جديدا يظهر منها بهاءهـــا ورونقها ، فغيطان القطن تزهو بخضرتها وزهرها الذى يـــنفض بساطها السندسى ، وأرض الغلة فى لونها الذهبى البديع اللامـــع تحدد فى الفضاء دفعات النور يزداد سطوعا كلما ارتخت الشـــمس فى دورتها ، والحصيد لشقوقه الواسعة مبهوت أن يرى نفســـه أجـــرد بعد أن كان بالأمس موطن النبات الجميل ، وانتظم علـــى طـــريق ســـلك طويل من الأشباح السوداء ، وهن جميعا يســـرعن وعلـــيهن ســـيما الهدوء يموج فيه النسيم ، ويبعث إلى رؤوســـهم النائمة عالما كبيرا من خيالات لا تنتهى ، فإذا وصلن المورد غسلن جراتهن فملأنها ، ثم نزلن بعد ذلك ليغسلن أرجلهن فيكشـــفن عـــن ســـيقان قوية بديعة وهى ملساء ناعمة ، وهن فى حـــركاتهن وحديـــثهن ومذكـــراتهن أخـــبار الليل والأمس أقرب للكســـالات الرائعات فى سعة سعادتهن منهن للعاملات الفقيرات ، وهـــى على تلك الأرض الغنية الكريمة أرض مصر فقيرة يؤلمها فقرها ؟ " .

وفـــى الـــرواية نـــوع من الواقعية ، ويظهر فى تصوير الشخصـــيات تصويرا طبيعيا وبخاصة فى تصوير زينب . يقول هـــيكل : " وتصل عند العمال فإذا بزينب بين الجمع فى الطليعة

وقد انسدل إلى جانبها جناحان من العاملات ، وكلهن فى جدهن وعملهن ، ويرددن حداءها بعد أن حمله الهواء على موجاته ، ونادى به الليل الصامت فى كل الأنحاء والقمر وقد انحدر إلى المغيب ينظر إليها نظرة الحب وقد ناله الشحوب فهو ذاهل فى سوته ، وأحاطت بذلك غيطان القطن الأخضر الذى لا يزال غفلا .

ها هى زينب فى تلك السن التى ترنو إليها الطبيعة وما عليها بعين العاشق فتغض طرفها حياء ، وترفع صوتها قليلا لترى مبلغ دلها على ذلك الهائم ثم تخفضه من جديد وقد أخذت عنا ما حونيا مالئا قلبها سرورا ، وأضاف إلى جمالها جمالا ورقة فزاد الوجود غراما بها ، وزادها به تعلقا ووجدا ، وهكذا كلما اجتلى أحدهما من صاحبه نظرة ذهبت منه إلى أعماق النفس فانطبع الكل فى قلب الفتاة ، وتوجت الفتاة حياة الوجود المحيط بها ، فهل قنع كل منهما بحظه ورضى بنصيبه ؟ " .

والمظهر المعنوى لأى رواية هو الصراع ، وقد ظهر صراع قوى فى رواية " زينب " وتمثل هذا الصراع فى شخصية زينب وفى شخصية حامد على السواء .

أما زينب فهى فى صراع عنيف بسبب تزوجها من شخص ما كانت لترغب فيه ، ثم من ناحية أخرى ينتابها صراع

آخـــر هو صراع الواجب نحو زوجها الذى بنى بها ، وهى الفتاة الريفية البسيطة التى لا تتمرد ولا تظهر جزعا ، بل تخشى العار والخيانة .

تقــول عن زوجها : " بالله ما أرقه وأحناه من إنسان ، كم فـــى عبارته ما يشف عن بياض قلبه وصفاء باطنه ، وهو الرجل القــوى القـــادر ، بيده كل أمرها ويملك عليها كل شىء ، ويقدر بكلمة منه أن يوقعها فى شقاء كبير ، مع ذلك يستسمحها ويقر لها بالحق عليه إن كان ثمة شىء منه أو من غيره ، يقر به من غير جدل ولا أخذ ولا رد ، أليس من الخيانة والغدر أن تصرف زينب قلـــبها عنه ؟ أليس عارا كبيرا عليها أن تفكر فى حب غيره ؟ ألا إنـــه لكاف أن يمحو كل زلة ، ويستوجب الصفح عن كل هفوة . ذلك الذى عمل فى موقفه هذا ، فإذا لم تكن هناك زلة ولا هفوة ، وكـــان كل ما فى الأمر سوء فهم منها جره إليه خطؤها ، وما فى نفســـها مـــن الشـــرور ، فلا يكون من الواجب أن تنصرف لحبه والخضوع ، أم تكون من القسوة بحيث لا تسمع كلمـــاته ؟ وبمثل هذه الأفكار ذهبت زينب إلى مرقدها " .

أما الحوار فقد تكرر فى الرواية وإن لم يأخذ صورة سؤال وجـــواب بـــين شـــخص وآخـــر أحيانا ، ولكننا نرى هيكل ينقلنا بالحـــوار إلـــى الحـــياة فتحيا من ثم الأشخاص أمامنا وفى حدود

عواطفها العامة ، ويجعلنا نتمثلها فى أزمانها ، ونتمثل صراعها كما نتمثل الأفكار ، وما أروع هيكل حين صور بدقة وعن طريق الحوار الشخصيات الريفية البسيطة .

والأحداث فى رواية هيكل أكثر حيوية وحركة ، فهو يربط الوقائـــع والأحـــداث الجزئية بطريقة منظمة وعلى نحو خاص ، ويميـــزها مـــن ناحية عن غيرها ، ومن ناحية أخرى يجعل من أحـــداث الـــرواية مجـــتمعة وحدة ذات دلالة محددة ، وما أجمل المواقـــف العاطفـــية التى جاءت فى الرواية والتى تفيض حيوية وحـــركة ، ممـــا يجعلـــنا نحـــس بعواطفنا تتجه نحو الأشخاص وبخاصة الأبطال .

وهكـــذا اتســـعت الرواية لتصور لنا بيئة الريف المصرى تصـــويرا يجعلنا نقرر أنه أول من أجاد تحليل هذا الريف وما فيه من تقاليد وأعراف تحليلا واقعيا ، على الرغم من اتساع الأحداث والشخصيات .ولا شك أن هيكل قد عالج فى روايته هذه موضوع الـــزواج ، حيث ينبغى ألا تكره فتاة على الزواج ممن لا تحب ، وإنما ينبغى أن يقوم الزواج فى جميع أحواله على المحبة .

هـــذا وقـــد تأثـــر باتجاه هيكل فى روايته " زينب " كتاب كثيـــرون ومنهم الكاتب السعودى محمد حامد دمنهورى ، وعلى وجـــه الخصـــوص فى روايته " ثمن التضحية " ، فعلى حين نجد

هـيكل يصور البيئة المصرية نجد كذلك الدمنهورى يصور البيئة الحجازيـة ، كـذلك عـالج الدمـنهورى فى روايته تلك القضية الاجتماعـية التى اهتم بها هيكل ، وهى قضية الزواج وما يحيط بها من صراعات من حب وكره وغير ذلك .

وقـد تشابهت الظروف والأحوال حول الكاتبين الكبيرين ، فلـئن كان هيكل قد شرع فى كتابة روايته وهو مقيم بباريس مما ملأهـا حنينا لوطنه مصر حبا وإعجابا بها ، إذا بالدمنهورى وقد تـبلورت قصته فى مخيلته وهو على أرض مصر يتلقى الدراسة الجامعية ، فالظروف إذن متشابهة .

والـروايتان مليئتان كذلك بالصراعات المتشابهة ، ولم لا وهمـا ينـبعان من موضوع واحد هو موضوع الحب والزواج ، والعجـيب أن الكاتبـين قد اتفقا فى معالجة المشاكل الاجتماعية ، كمـا اتفقـا فى الاهتمام بشخصيات الرواية على نحو يجعل كل عربى يعتز بهذين العملين ويفخر .

والحقـيقة - ونظـرا لأن هاتـين الـروايتين قد عالجتا موضـوعا مـن موضوعات الحياة - فإن ها هنا سؤالا مهما لا محـيد من طرحه والإجابة عليه لمعرفة حقيقة اتجاه الكاتبين هذا الاتجـاه وتصويرهما للحياة الاجتماعية ، وهذا السؤال هو : هل يكتب الكاتب للكتابة أم يكتب للحياة ؟

وهذا سؤال يندرج فى الحقيقة تحت قضية " هل الفن للفن أم الفــن للحياة ؟ " وكان هذا مدار نقاش طويل وجاد بين النقاد ، ويمكـــن أن يكـــون ظهـــور هذا الخلاف نتيجة لاحتكاك الأديب بمشكلات الحياة التى يعيشها ، وإدراكه لخطورة الدور الذى يقوم به إزاء هذه المشكلات ، وقد يكون سببه أن كثيرا منا يتمنون أن يـــتعجل الأدبـــاء مصـــلحة شعبية عامة ، وأن يستجيبوا للأصداء الاجتماعية القوية التى نسميها مسائل الساعة (١) .

ومـــن النقاد من رأى أنه ليس حتما على الأديب أن يوجه موهبـــته لما فيه خير الجماعة ، كما أنه ليس عليه أن يكون أداة إصـــلاح يؤثر فى الجماعة ويوجهها نحو الخير ، وإنما يرون أنه لـــيس علـــيه إلا أن يعبر عن الجمال المطلق ، لأن هذا هو الذى يسلبنا همومنا ، وهو الذى نجد فيه غذاء لعواطفنا (٢) .

ومـــنهم من رأى أنه ليس على الأديب أن يصم أذنيه عن الحـــياة ولا يطمح إلى ما تطمح إليه الأمة ، وإنما ينبغى أن ينشد

---

(١) انظر : الأدب الهادف ، محمود تيمور ص ٦ . المطبعة النموذجية . الطبعة الأولى ١٩٥٩ م .

(٢) فى الأدب والنقد ، د / محمد مندور ص ١٢٥ . القاهرة ١٩٥٦ م .

الأديب فنه للحياة ، وأن يكون أدبه فى خدمة المجتمع وفاء منه له ، وإيمانا منه بالمشاركة فى أحداث زمانه [١] .

والحقيقة أن الذين دعوا هذه الدعوة إنما أرادوا ألا ينعزل الأديب عن المجتمع وقضاياه ، وألا ينفصل عن أحداثه ومتطلباته ، كى يكون له دور فى بنائه وإرشاده ، وهؤلاء على صواب فيما ذهبوا إليه ، فالأديب الحق هو الذى يوازن بين نفسه وبين مجتمعه ، فيدرك أن مشكلاته الخاصة لا تنفصل عن مشكلات المجتمع .

وأيا ما كان الأمر فإن الفن متصل تمام الاتصال بالحياة ، والأدباء جميعهم متصلون بالمجتمع وإن حاولوا الانفصال عنه ، فحياتهم بعينها هى حياة المجتمع ، وشأنهم فيه شأن غيرهم من أفراده ، عليهم رسالة ، ويتطلعون إلى أهداف وغايات يسعون للوصول إليها وتحقيقها ، وهذا فى حد ذاته خدمة للمجتمع ونضال مع مجموع أفراده .

وإذا تناسى الأديب هذه الرسالة أو تجاهل تلك الأهداف ، فإن هناك سؤالا يقول : ماذا إذن يعود على المجتمع من الأديب وهو فرد فيه وعضو لا ينفصل منه رضى ذلك أم كره ، ثم إن

---

(١) انظر : الغربال ، ميخائيل نعيمه ، ص٧٢ ، ٧٣ . دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٢٣ م .

الأديـــب أولـــى مـــن غيره بأن ينفعل مع المجتمع ويتأثر بأحداثه وقضاياه التى أثرت فى جموع الناس ، ومن الخيانة للمجتمع الذى يعيش فيه الأديب ألا يتجاوب وقضاياه ، ويكتفى بأن يعيش لنفسه ، ويترنم بما يرضى ذاته وخاصته .

وفـــى رأيى أنه لماذا لا يقوم الأديب بهذا الدور وهو ليس ملاكا يعيش فى السماء ، إنما هو إنسان يعيش مع الناس ، ويعيش بـــين أمـــة ، ويحس – رضى أم كره – بما تحس به من سعة أو ضيق ، فلا سبيل إذن إلى الانعزال عنها ، بل إن مشاعره الذاتية لا يعقل إلا أن تكون صدى لأمته سواء رضى منها هذا الحال أم سخطه .

وعلـــى هذا فالخلاف فى هذه القضية أمر لا مسوغ له ، وكـــل مـــن الأدباء والنقاد فى غنى عنه ، ولم يكن لإثارته سبب يقتضـــيه ، والدعـــوتان كما نرى ميسورتان لدى الأديب الأصيل الـــذى ينطلق أدبه من داخل نفـــسه تلك التى بلا شك تتجاوب مع المجتمع وتنبض بنبضه .

يقـــول الأستاذ محمود تيمور : " فالفنان إن أخلص لفنه ، واستصـــفى شـــعوره ، اســـتجاب حتما لما يحيط به من مختلف الـــبواعث والمؤثـــرات ، فيصدق تعبيره عن البيئة والمجتمع فى الصـــورة التـــى تســـخو بها موهبته ، غير محدودة حريته ، أو

مسـلوبة طلاقته ، وغير مكره وملزم بتقاليد وأوضاع يعمل وراء أسوارها فى عبودية واعتقال " [١] .

والمتتبع لمسيرة الأدب يرى أنه لا يخلو أدب أمة من الأمم بوجه عام من ذلك اللون الذى يصور حياتها ومشكلاتها ، بل إنه ليرى أن الأدباء فى المجتمع الإنسانى هم أطباء النفوس والأرواح ، وهـم أقدر الناس على تهيئة حياة كريمة للفرد وللجماعة على السواء ، ويرى كذلك أن الأديب العظيم هو الذى ينظر بعين يقظة إلـى المجـتمع الإنسـانى فيناصر من هذه المجتمعات ما يتمشى والقـيم الإنسـانية ، فالأديب بلا شك يحرص على أن يكون لنظم المجـتمعات غاية تعكس ما فى نفوس البشر أو أفراد المجتمع من هموم وآمال خالدة [٢] .

النوع الثالث : الرواية التعليمية :

والرواية التعليمية رواية تهدف فى المقام الأول إلى التعليم والإصلاح ، بصرف النظر عن الوضع الفنى والصفة العامة التى تخضع لها خطة الرواية .

---

(١) فن القصص ، ص ٩ ، ١٠ . القاهرة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر : الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، د / محمد زكى العشماوى ص ٣٩٦ . مطابع عابدين ، الإسكندرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .

ومن نماذج هذه الروايـــة " علم الدين " للشيخ على مبارك ، و " مواقـــع الأفـــلاك فى وقائع تليماك " للطهطاوى ، و " الدين والعلم والمال " لفرح أنطون ، و " البعث ، لمحمد على مغربى ، و" فكـــرة " لأحمـــد الســـباعى ، و " الـــتوأمان " لعـــبد القدوس الأنصارى ، وغيرهم .

وهـــذه الـــرواية تقـــوم على قيم فكرية محددة لها أبعادها وأهدافها وغاياتها ، التى يقصد إليها الكاتب من خلال عمله الفنى ، فالأنصـــارى مـــثلا فى روايته " التوأمان " يريد أن يوقفنا على أضـــرار المعاهد الأجنبية فى الناحية التعليمية ، وتظل هذه الفكرة تلح عليه إلحاحا شديدا يجعله لا يتوانى فى شرحها وتوضيحها .

وكـــتاب الـــرواية التعليمية لم يكن لينصب اهتمامهم على الصـــفة العامة التى تخضع لها الرواية فنيا ، من حبكة ، وتطور الشخصـــيات ، وغير ذلك ، بقدر ما انصب اهتمامهم على بلورة الأفكـــار التـــى تلح عليهم وتجسيدها كدعوة إصلاحية من خلال الرواية .

النوع الرابع : رواية المغامرات :

وهـــذا الـــنوع مـــــن الروايات يتأثر بالنزعة الرومانسية الغـــربية التـــى تقـــويها عاطفة الذكرى وألوان الخيال ، وهـــذه

الرواية تعنى عناية خاصة بالحادثة وسردها ، كما تقــل عنايتهــا بالعناصر القصصية الأخرى ، لذلك كانت أبســط أنواع الروايات وأقلهــا فنيــة .

ومــن أمــثال هــذه الــرواية الرواية البوليسية ، وبعض الــروايات التاريخية ، وكثيرا من روايات الحب التى تعتمد على المبالغة ، وغير هذا وذاك من الروايات التى تثير الانفعال وتتميز بالعــنف ، ولــيس فيها أدنى اهتمام بالبيئة ولا بالشخصية ، ولا بأهداف إصلاحية أو تعليمية .

.. وينبغــى أن نشــير إلــى أن الباحث فى الفنون النثرية وتطــورها وبخاصة الرواية يمكن أن تقسم طبقا للعناصر السائدة فــيها والخصــائص التى تشترك فيها مجموعة معينة إلى أقل من هذا أو أكثر .. هذا إذا أضفنا أن من بين كتابنا من يتلمس كتابات الغــرب ويســتوحى الــنماذج الغربية ، وهذا بدوره يجعل النقاد يختلفون فى تقسيمهم لأنواع الرواية .

وضع الرواية الفنى :

الــرواية قصة ولكنها أكبر الأنواع القصصية مــن حيث الحجــم ، وحين نفحص الرواية نجدها تتضمن أحداثا كثيرة وهى فــى الواقــع المادة التى تكون منها هيكل الرواية ، والكاتب فى

الـــرواية يخـــتار الأحـــداث الكبيرة ، وقد تكون هذه الحوادث قد وقعـــت فى الحياة على النسق الذى ذكره الكاتب فى روايته على نفس الترتيب الزمنى والوضع المكانى .

وقد تكون الأحداث فى الرواية بدون ترتيب زمنى ، ولكنها تمـــثل أشتاتا من الحوادث التى مر بها الكاتب فى حياته أو عرفها بسبيل أو بآخر ، وتفاعل معها واتخذ منها فى حينها موقفا خاصا أو فلســـفة معيـــنة ... حتى إذا هم الكاتب بكتابة كل هذه الأحداث فإنـــه يســـتغل هذه الأحداث ويجعل منها مادته ، وقد يلجأ بعض الكتاب إلى تغيير التاريخ شكلا ومضمونا فيوسع فى الأحداث وفى الأفكار والمضامين .

وفى رأينا أن العمل الروائى لا يستوى حتى تتوافر له عدة أمور منها [1] :

١ – إذا كانـــت الـــرواية قصـــة طويلة فينبغى أن تخضع الـــرواية لمـــا خضعت له القصة من تسلسل أحداثها واطرادها ، حـــى يشـــعر المتلقى أنه أمام أحداث تسوق فى مجملها إلى غاية ونتـــيجة مرتقبة .. لذلك علـــى الروائى أن ينسق أحداث روايته وأن يـــرتبها ترتيبا منطقيا ، بحيث يكون كل فصل نتيجة طبيعية

(١) انظر أيضا ما كتبناه عن عناصر العمل القصصى فى حديثنا عن " فن القصة " .

لمـــا قبله ومقدمة أيضا لما بعده حتى تسلسل الحوادث وتؤدى إلى الغاية التى يترقبها القارئ وينتظرها .

٢ – ينبغـــى أن تكون الرواية ذات مغزى ، لأن كل عمل روائى يهدف فى المقام الأول إلى غاية محددة وإلى هدف منشود يـــتطلع إليه الكاتب ، وقد تكون معالجة لحدث تاريخى معين لغاية يقصدها الكاتب .. وعلى هذا فينبغى الاهتمام بالعنصر الأخلاقى ، فمعظم الروائيين فى العالم كانوا يهتمون بالمعانى الخلقية ، وليس معنـــى ذلـــك أن يـــنقلب الروائى إلى ناصح أو واعظ ، فالواعظ والخطـــيب يـــتلفظ بغاياته أولا بأول أما الروائى فغاياته تفهم من روايته بطريق غير مباشر .

٣ – يجـــب أن يكون أسلوب الرواية واضحا لا تعقيد فيه ولا لـــبس ، لأن القارئ يعنى أول ما يعنى بالأحداث وتسلسلها . وتظهـــر بـــراعة الروائـــى فـــى تنويعه لأسلوبه حسب المواقف والشخصيات ، فهو يبالغ حينما يريد التنبيه إلى أمر هام ، ويرمز حينما لا يكون أنسب من الرمز ، ويأتى بالحوار لأنه وحده الكفيل بتصوير الأشخاص وعلاقتهم بالحوادث ، وهـــو يتلاءم والرواية ولـــذلك ينبغى أن يكون الحوار طبيعيا وأن يكون ملائما للمواقف وأن يكون حيويـــا ، والروائى الماهر هو الذى يتفادى التكرار فى الحوار .

٤ – إذا كانت الرواية تهتم بالأحياء وبأمور حياتهم من أفكار وعواطف فينبغى للروائى ألا يعدم فى روايته نظرياته وآراءه فى الحياة وتجاربه فيها وفلسفته لها ، وهذا يلزم الكاتب أن يحلل الأمور تحليلا دقيقا ، والروائى القدير هو الذى يفوق غيره فى فلسفته وأفكاره .

٥ – إذا كان عنصر الحب – لسلطانه العام على النفوس وعلى الشباب بصفة خاصة – يدخل فى كثير من الروايات ، بل إنه قد ينفرد بالرواية جميعها .. إذا كان كذلك فينبغى أن تستخدم العواطف فى الرواية استخداما مهذبا ، والروائى القدير هو الذى لا تفنى عواطف روايته بعد قراءة القارئ لها .

٦ – ينبغى أن يعلم الكاتب أن الرواية لم تكتب لتكون دراما ، وعلى ذلك فعليه أن يجيد الحالات المختلفة فيضحكنا تارة ويستثيرنا إلى الحزن تارة أخرى ، وإذا كان ولا بد من الفكاهة فيجب ألا تكون للسخرية والفضيحة وإنما تكون سبيلا للعطف أو لتهذيب الطباع .

٧ – أن يلتزم الروائى بالصدق وبخاصة فى الروايات التاريخية ، فتأتى صادقة فى حكاية الحوادث ، وتكون أمينة فى نقل عادات وتقاليد عصر بعينه . والروائى الفذ هو الذى لا

يرضـــى التاريخ ويغضب الفن الروائى وهو الذى يلاحظ العلاقة القوية بين التصميم وبين البيئة .

٨ - يجـــب أن يكـــون تصوير الروائى للطبيعة تصويرا صادقا صحيحا ، فهو يصورها للقارئ وكأنها أمامه يراها وينظر إلــيها بعينه .. ولا يعنى هذا أننا نسلب الروائى تدخله بالأداة التى يراها مناسبة لتصوير الطبيعة وربطها ربطا محكما فى روايته .

الفصل الخامس

فن المسرحية

نظرة تاريخية عن نشأة المسرحية

لعل أقدم المسرحيات نشأة هى المسرحيات الإغريقية ، وقد ارتبطت نشأة المسرحية ارتباطا وثيقا بعقائد بلاد اليونان ، فقد توهموا أن ثمة قوى خفية وراء تنوع طبيعة بلادهم وتغيرها واختلاف مظاهرها ، فقاموا بتقديس بعض الآلهة ، واعتادوا أن يقيموا لها الحفلات الموسمية [١] .

وكان من نتائج هذه الحفلات – بما تتضمنه من حلقات رقص ومن أغانى وأناشيد دينية وغير ذلك – أن ظهرت الملهاة الكوميدية ثم المأساة التراجيدية ، وكانت هذه وتلك تمثل بطريقة بدائية لا يتجاوز التمثيل فيها بعض الرقص والأغانى والأناشيد الجماعية ، وظل الكيان المسرحى على هذا الوضع لا تتكامل جوانبه إلى أن وضع " أسخيلوس " له نظاما خاصا ، أظهر فيه ممثلين رئيسيين بجانب الفرقة التى تقدم الغناء [٢] .

---

(١) انظر : المسرحية ، عمر الدسوقى ، ص ٧ وما بعدها . مطبعة الرسالة ، الطبعة الخامسة .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٨ .

ثم جاء الشاعر اليونانى " سوفوكليس " (٤٩٥ – ٤١٦ ق م) فأضاف ممثلا ثالثا إلى الممثلين اللذين أدخلهما " أسخيلوس " . ولعل أول ما نلاحظه على مسرح " سوفوكليس أنه يقوم على الحوار ، الأمر الذى أدى إلى تنوع الحوادث وتباير الأشخاص .

هكذا كان اليونان أول من اهتم بالفن المسرحى ، وهم أول من وضع له نظاما خاصا ، ومن يتتبع نشأة المسرحية فى العالم بصفة عامة وفى أوربا بصفة خاصة يجد أن العالم كله قد أخذ عن اليونان هذا الفن ، ثم يجد أن المسرحية فى كل الدول الأوربية تنحو نحو المسرح الإغريقى وتقفو أثره (١) .

يقول الأستاذ عمر الدسوقى : " وهكذا لو تتبعنا نشأة المسرحية فى كل من إيطاليا وأسبانيا وألمانيا وسائر دول أوربا لوجدناها تقفو أثر المسرحية الإغريقية عن طريق الرومان بادئ الأمر ، ثم اتصلوا بها مباشرا فيما بعد " (٢) .

---

(١) انظر : المدخل إلى الفنون المسرحية ، ترجمة كامل يوسف وآخرين ص ٤٦ وما بعدها ، نشر دار المعرفة ، القاهرة .

(٢) المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها ، ص ١٣ .

المسرحيـــة فى الأدب العربى

عــرف الأدب العربــى القــديم الأدب المسرحى ، بيد أن أصوله لم تنم ولم تتطور كما نمت وتطورت عند غير العرب .

ولم تبدأ بواكير الأدب المسرحى فى عالمنا العربى إلا فى العصر الحديث ، حين قدمت الحملة الفرنسية على مصر والشام ، إذ كــان الفرنســيون يســتقدمون معهم فرقا مسرحية للترفيه عن الجــنود الــذين قامــوا بعبء الحملة ، ومع ذلك فلم تتأثر الحياة الأدبــية العربية بالأدب المسرحى كبقية الآداب ، ولعل السبب فى ذلــك يرجع إلى أن هذه المسرحيات كانت تمثل باللغة الفرنسية ، فمن الطبيعى إذن ألا يكون لها أى أثر يذكر .

ومهمــا يكــن من أمر فإن العناية بالمسرح لم تبدأ إلا فى النصــف الثانى من القرن التاسع عشر وفى عصر إسماعيل باشا خديوى مصر (١) ، فلقد كان مغرما بتتبع الحياة الأوربية وتقليدها ، وفــى أول عهده بالحكم افتتح مسرحا كوميديا ، ثم لم يلبث أن أنشــأ مســرح دار الأوبرا بالقاهرة ، وأخذ الممثلون والممثلات

---

(١) انظر : الأدب القصص والمسرحى فى مصر ، د / أحمد هيكل ص ٢٩٧ وما بعدها ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م ، وانظر كذلك : الاتجاهات الفكرية فى الأدب المســرحى ، د/ مصطفى على عمر ص ٩ وما بعدها ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٠ م .

الأجانـب الـذين استقدمهم من أوربا يعرضون على هذا المسرح المسرحيات الغنائية والتمثيلية .

وفـي عهد إسماعيل بدأت بالفعل نواة المسرح المصرى ، ولعـل هـذا راجع إلى أن إسماعيل نفسه قد عنى بالمسرح أيما عـناية ، لأن كل همه كان ينحصر فى محاكاة الحياة الأوربية ، ولا عجب فقد تربى فى بلد من البلاد الأوربية وهى فرنسا ، وقد شـيد بعـد ذلـك مسرح حديقة الأزبكية ، وأخذ يشجع الممثلين المصـريين والسـوريين على السواء ، ويحضر تمثيلهم ، ويمنح المجيدين منهم المنح والإعانات .

وفى عهده أنشأ " يعقوب صنوع " (١٨٣٩ – ١٩١٢ م) أول مسـرح عربى بالقاهرة فى يوليو عام ١٨٧٦ م ، وكان هذا أثـرا من آثار دراسته الأوربية تلك التى مكنته من أن يدرس هذا الفـن ويقف على أصوله وعناصره ، حتى اقتبس من إيطاليا هذا المسـرح الـذى يمثل المجتمع المصرى ، ويسخر من أوضاعه السيئة سخرية لاذعة .

وقـبل ذلـك بأعوام كان الفن المسرحى قد بدأ ظهوره فى لبـنان العربية على يد " مارون النقاش " (١٨١٧ – ١٨٥٥ م) الذى اقتبسه من إيطاليا التى سافر إليها ، وأجاد لغتها إجادة مكنته من دراسة هذا الفن دراسة متقنة .

وكانـــت أول مســـرحية لـــه هى مسرحية " البخيل " وهى مســـرحية معربة ، وقد كون فرقة تمثيلية وكان هو أحد أفرادها ، وقامـــوا جمـــيعا بتمثـــيل هذه المسرحية فى بيته فى أواخر عام ١٨٤٧ م ، ثـــم مات فى سن مبكرة ليترك مواصلة هذا الفن لابن أخيه " سليم النقاش " .

وقـــد ألف " سليم النقاش " فرقة تمثيلية فى بيروت ، ثم لم يلـــبث أن وفد بصحبة هذه الفرقة من لبنان إلى مصر فى أواخر عام ١٨٧٦ م ، ووصل إلى الإسكندرية وأخذ يمثل مسرحياته بها ، وكان قد اصطحب معه أيضا مسرحيات عمه " مارون النقاش " : " البخيل " و " أبو الحسن المغفل " و " السليط الحسود " .

وقد التقى سليم النقاش فى مصر بصديقه " أديب إسحاق " (ولـــد فى لبنان عام ١٨٥٦ م) ، وكان أديب قد ترجم مسرحية (أندروماك) لراسين ، وساعد صديقه " سليم النقاش " فى تأليف المسرحيات وتمثيلها ، ولحق به فى الإسكندرية ، وكانت فرقتهما التمثيلية من أوائل الفرق العربية ، وعرب أديب رواية (شارلمان) وأعجب بها المصريون إعجابا عظيما ، وألف رواية (غرائب الاتفاق) [١] .

---

(١) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى : ١ / ١١٨ . دار الفكر ، الطبعة الثامنة .

ومـــن الـــذين أتقـــنوا اللغـــات الأجنبية ، وعنوا بالمسرح والتـــرجمة لـــه " محمد عثمان جلال " (١٨٢٨ ــ ١٨٩٨ م) ، وكان ينقل من الفرنسية ، وقد ترجم بعض روايات " موليـــــر " (الشاعر الفرنسى) الهزلية ، وسماها (الأربع روايات من نخب التياترات) ، ومنها رواية (ترتوف) وسماها (الشيخ ملتوف) ، ومـــثلت مـــرارا علـــى المسرح المصرى ، وقد ترجمها محمد الصاوى فيما بعد ترجمة أخرى ، ومنها (النساء العالمات) وقد مصير أشخاص هذه الروايات وكتبها باللغة العامية .

وترجم كذلك بعض روايات (راسين) (الشاعر الفرنسى) ونقلها إلى العربية وسماها :(الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) وكتبها باللغة العامية ، وقال فى مقدمتها : " وجعلت نظمها يفهمه العموم فإن اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع فى النفس عند الخواص والعوام " .

وألف كذلك مسرحية باللغة العامية عن الخدم والمخدومين ، وتعـــد باكـــورة فـــى وضع الروايات المصرية ، وتمثيل البيت المصـــرى والمجـــتمع الوطنـــى يندر ما يقاربها بين روايات هذا

الجـيل ، وبحق يسمى محمد عثمان جلال أبا المسرحيات الوطنية فى العصر الحديث . (١)

ثـم ظهرت مسرحيات عديدة فى هذه الفترة ، ومن أوائل هـذه المســرحيات مسرحية (المروءة والوفاء) وهى مسرحية شـعرية لخلـيل اليازجـى عام ١٧٨٦ ، وقد مثلت على مسرح بيــروت عــام ١٨٨٨ م ، وظل هكذا إلى أن قـدم إلى مصر " أحمـد أبو خليل القبانى " (١٨٤١ ـــ ١٩٠٢ م) ، فى يونية عام ١٨٨٤ م ، وكــان بصحبته فرقته المسرحية .. (٢) فانتقل من ثم المســرح المصــرى إلــى طور جديد ، لأن القبانى أعرض عن المســرحيات الأجنبية ـــ المعرب منها وغير المعرب وأخذ يولى اهتمامه بالتاريخ العربى والإسلامى ، فوضع مسرحيات " عنترة " و " هــارون الرشــيد " وغيــرها ، وقــد امتاز أسلوبه فى تلك المســرحيات بأنــه كان أرقى لغة وأقرب إلى العربية الفصحى ، وقد استعمل السجع والشعر معاً ، على أن مسرحياته كانت أوهى حبكة وأضعف سياقا من المسرحيات المعربة . (٣)

---

(١) فى الأدب الحديث للدسوقى : ١ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) تكونت فرق مسرحية عديدة كان معظم أصحابها من الشاميين الذين نزلوا مصر مثل فرقة القبانى هذه ، وفرقة سليمان القرواجى وفرقة اسكندر فرح .

(٣) المسرحية للد سوقى ص ٢٧ .

ومـــن المصـــريين الذين تأثروا بطريقة أحمد القبانى فى الاتجاه صوب التاريخ العربى والإسلامى ، الأستاذ على أنور فى روايته " عنترة " والشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المشهور بعدة روايـــات ألفهـــا هـــو وزمـــيله محمد عبد المعطى مرعى ، .... والـــزعيم الوطنـــى مصطفى كامل فى روايته " فتح الأندلس " .. فهـــؤلاء يتجهون نحو التاريخ العربى والإسلامى ، وإن لم يوفقوا فى سبك مسرحياتهم ، وفهم الكيان المتكامل للعمل المسرحى .

وقـــد ألفـــت عدة مسرحيات على هذا النمط إلى أن دخل القـــرن العشرون فانتقل المسرح المصرى من المسرحية الغنائية إلـــى المسرحية الاجتماعية ، وذلك بفضل العملاقين الكبيرين ، " عزيـــز عـــيد " و " جـــورج أبيض " ، وقد عنى أولهما بالمسرح الهزلـــى ، أما الثانى فقـــد اهتم بالمسرح المأساوى ، وقد عاد من بـــاريس عـــام ١٩١٠ م بعد أن درس أصول هذا المسرح دراسة فنـــية ســـليمة ، وقـــد مثل رواية " فرح أنطون " (مصر الجديدة ومصر القديمة) فى عام ١٩١٣م .. وأخذت من ثم المسرحيـــات الاجتماعية الجيدة فى الظهور .

وتنشـــط الحـــركة المســـرحيـــة فـــيؤلف " فرح أنطون " مســـرحية أخرى تاريخيـــة عام ١٩١٤ م ، وهى أقوم فنيـــا مـــن روايـــة " مصر الجديدة ومصر القديمة " وهذه المسرحية

بعـــنوان " السـلطان صـــلاح الـــدين ومملكة أورشليم " . والفن المســـرحى فى هذه الرواية جيد ، وجاءت المسرحية متماسكة فى تصميمها ودقيقة فى رسم الأشخاص وفى تصوير الصراع .

وقــد ســار علــى نهج " فرح أنطون " إبراهيم رمزى ، وكانـــت لرمزى محاولات فى كتابة المسرحية عام ١٨٩٢ م إلا أنهـــا كانـــت غير ناضجة ، ولم يتمكن من الفن المسرحى إلا بعد عـــودته من إنجلترا ، وربما كانت مسرحيته " أبطال المنصورة " هـــى أحســـن المسرحيات التى تعرضت لوصف البطولة العربية الإسلامية ، وقد كتبها فى عام ١٩١٥ م .

ونمضـــى لنلتـــقـــى مـــع رائـــد آخـــر وهــــو " محمد تيمور " (١٨٩٣ ــ ١٩٢١م) ، وكان على رأس مدرسة آثرت العامية كل الإيثار ، وكان من أعلامها أحمد خيرى سعيد ومحمود تـــيمور وحسين فوزى ، وأهم شيء يلفت الأنظار فى مسرحيات هـــؤلاء هو جودة البناء الفنى للمسرحية ، هذا إلى اتجاهها اتجاها تحليليا واقعيا .

وثمة شخصية أخرى كان لها شأن أى شأن فى المسرحية ، تلـــك هـــى شخصـــية " توفـــيق الحكيم " ، فلقد ارتفع بإنتاجه المســـرحى علـــى كـــل مـــن سبقه ، وكان لانكبابه على دراسة

المسرحية أكبر الأثر فى أن يعد الرائد الأول للكتابة المسرحية بل لكل اتجاه مسرحى جديد .

توفيق الحكيم

ولد توفيق الحكيم ــ كما يروى عن نفسه ــ عام ١٨٩٨م من أب مصرى وأم تركية ، وقضى توفيق أيام طفولته بالدلنجات بمحافظة البحيرة ، وقد تخرج من مدرسة الحقوق عام ١٩٢٥ م ، ثـم سـافر إلى باريس [١] ودرس بها ، وتأثر بالثقافة الفرنسية ، وصـقلت الآداب الكلاسيكية ذوقه الفنى ، وجعلته يتجه نحو فنين من أحدث الفنون الأدبية عهدا فى الأدب المصرى الحديث وهما : القصة والمسرحية .

وقد شغف توفيق الحكيم بالمسرحية ، وعكف على دراسة أصـولها الفنـية وهـو فى أوربا ، وألف فى عام ١٩٢٢ م عدة مسـرحيات مثلـتها فـرقة " عكاشـة " المسـرحية ، ومن هذه المسرحيات : المرأة الجديدة ، والعريس ، وخاتم سليمان ، وعلى بابا .

وأحب وهو بباريس فتاة كانت تبيع التذاكر أمام أبواب أحد المسارح ، وظل فترة طويلة لا يجرؤ على البوح بحبه لهذه الفتاة

---

(١) راجع " عودة الروح " للحكيم .

، وقد أوحت إليه هذه التجربة بكتابة مسرحية من مسرحياته سماها " أمام شباك التذاكر " .

ولتوفيق الحكيم اتجاه مسرحى خاص به ، وهو يعد من أبرز كتاب الحوار المسرحى ، ويولع فى بناء مسرحياته على أساس فكرى مجرد لا يقترب كثيرا من واقع الحياة ولا يحفل بوقائعها ، وهو فى أغلب الأحيان يميل فى أسلوبه إلى التركيز والإيجاز ويستغنى بالتلميح عن التصريح ، وكثيرا ما يواجه فى المسرحية الواحدة فكرة أخرى ويخلق بينهما صراعا عنيفا ، وهذا اللون هو ما يعرف عند النقاد بالمسرح الذهنى . (١)

وقد زادت مسرحيات توفيق الحكيم عن أربعين مسرحية ، وفى مسرحه يقول الدكتور إسماعيل أدهم :

" إن توفيق الحكيم قد نجح فى أن يرتفع بفن المسرحية إلى أفق أعلى من المستوى العادى للمسرحية فى الآداب الأوربية ، إلى مستوى يقف جنبا إلى جنب مع آثار الطبقة الثانية والثالثة من أدباء الغرب ، فالمسرحيتان (شهرزاد) و (الخروج من الجنة) لا يقلان فى مستواهما الفنى عن آثار الطبقة الثانية فى الآداب الأوربية ، ومن هنا يمكننا أن نقول : إن مصر بمحاولات توفيق

---

(١) انظر من فنون الأدب المسرحية ، د . عبد القادر القط ص ١٧٤ وما بعدها . دار النهضة العربية ١٩٧٨ م .

الحكـــيم حـــازت قصب السبق فى ميدان الفن المسرحى على بقية بلـــدان العـــالم العربـــى ، وارتفعت بالأدب المصرى من الحدود المحلـــية إلى آفاق رحيبة . وليس أمام الأدب المصرى إلا بضع خطـــوات يخطوها إلى الأمام لتجد لأدبها المسرحى مكانة عالمية بين آداب الأمم " (١) .

الأنـــواع المسرحيـــة

وجديـــر بنا ونحن نتحدث عن المسرحية أن نتعرف على أقســـامها وأنـــواعها المختلفة حتى يمكننا فهم الأصول الفنية التى يقوم عليها كل قسم .

والمسرحية تنقسم إلى قسمين :

١ – مأســـاة (التراجيديا) .

٢ – ملهـــاة (الكوميديـــا) .

وأرســـطو هـــو أول مـــن حدد هـــذه الأنـــواع فى كـــتابـــه " الشعر "وعرف المأساة بأنها : " محاكاة فعل نبيل تام ، لهـــا طـــول معلـــوم ، بلغة مزودة بألوان من التزيين تختلف وفقا لاختلاف الأجزاء ، وهذه المحاكاة تتم على يد أشخاص يفعلون ، لا عـــن طـــريق الحكايـــة والقصص ، وتثير الرحمة والخوف ،

---

(١) المسرحية ، عمر الدسوقى ، ص ٤١ ، ٤٢ .

فـتؤدى إلى التطهير من هذه الانفعالات ، وأقصد باللغة المزودة بألـوان مـن التزيين تلك التى فيها إيقاع ولحن ونشيد ، وأقصد بقولـى : تختلف وفقا لاختلاف الأجزاء أن بعض الأجزاء تؤلف بمجرد استخدام الوزن ،وبعضها الآخر باستخدام النشيد " [١] .

ومـن هذا اللون مأسـاة سوفوكليس المعروفة ب " أوديب الملك " وقد عدها أرسطو نموذجا للكتابة المسرحية الشعرية .

أمـا الملهـاة (الكومـيدية) فهى أكثر الألوان المسرحية انتشـارا وأعظمها رواجا . وقد عرفها أرسطو : " بأنها محاكاة الأراذل مـن الناس لا فى كل نقيصة ، ولكن فى الجانب الهزلى الذى يثير الضحك " [٢] .

وقـد حـاول الدكـتور عز الدين إسـماعيل التفريق بين المأسـاة والملهـاة بقـوله [٣] : " والمسـرحية تنقسـم إلى " كوميـديـا " و " تراجيديا " أو " ملهاة " و " مأساة " . وقد كانت الملهاة تتميز بتناولها الشخصيات غير المهمة ، واهتمامها بشئون الحـياة العامـة ، وعلـى العكس من ذلك المأساة ، فهى تتناول الشخصيات العظيمة ، بدأت بالآلهة عند الإغريق ، ثم بأبطال من

---

(١) كتاب فن الشعر لأرسطو ، عن المسرحية للدسوقى ص ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٨.

(٣) الأدب وفنونه ، ص ٢٥٣ .

البشر هم فى الحقيقة أنصاف آلهة ، ثم صار الإنسان هو البطل ، بخاصة فى عصر النهضة حين كان يظن أن الإنسان مركز العالم ، ولكنه ظل الإنسان الممتاز ، كشخصيات الملوك والأمراء ، حتى إذا ما تزعزعت تلك العقيدة ذهبت معها فكرة البطولة ، ولم تعد البطولة تستخدم إلا لتدل على الشخصية الرئيسية فى المسرحية ، كما تتناول الموضوعات العالية البالغة الأهمية .

أما فى العصور الحديثة فيقوم التفريق بين الملهاة والمأساة على أساس من فكرة " النهاية السعيدة " ففى الملهاة تتحقق النهاية السعيدة ، أما النهاية المميزة للمأساة فهى هزيمة البطل أو موته فى العادة .

ويمكن تقسيم الملهاة إلى ثلاثة أنواع : ملهاة الأخلاق ، والملهاة الرومانتيكية ، والفارص . والأولى من شأنها أن تحمل على الألوان المألوفة فى الحياة المعاصرة ، وكما أن هذا النوع قريب من القصة فكذلك الملهاة الرومانتيكية قريبة من الرواية ، فهى تتناول جوانب من التجربة لا يألفها الناس كثيرا ، وتعالجها معالجة أقرب إلى العاطفة منها إلى أن تحمل عليها ، وعند شكسبير يتمثل هذا النوع وهو غير مزدهر فى العصور الحديثة

أمـــا الفارص فهى تقوم على الحركة المسلية ، وفيها تهمل إثارة الحبكة ورسم الشخصية إهمالا صريحا " (١) .

وفيما يلى أنواع أخرى مختلفة (٢) :

أ – الملهاة الباكية : وهى مزيج من المأساة والملهاة .

ب – المـــيلودراما : وهـــى مسرحية تعتمد على الوقائع أكثر من اعـــتمادها علـــى الشخصية ، وتميل إلى المعنى الكوميدى بل إلى العواطف الحادة .

ج – الماسك : وهو نوع يشبه المسرحية ، وهو احتفال قد يحدث فى الهواء الطلق ويجمع بين الحديث العاطفى والحوار والملابس والمناظر والموسيقى والرقص .

عناصـــر المسرحية

العمـــل المســـرحى كيان متكامل الجوانب ، ومن الصعب الفصل بين عناصره وارتباط المسرحية بإطار فنى خاص أثر من آثار ارتباط المؤلف المسرحى بالمسرح ذاته .

والمســـرحية – مـــع مـــا بيـــنها وبين غيرها من الفنون القصصـــية مـــن خلاف – تعتمد على ما تعتمد عليه تلك الفنون القصصـــية من قصة أو حادث يعرض علينا من خلال الحوار ،

---

(١) الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل ، ص ٢٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ومـــن ثـــم يمكن أن نعد القصة أو الحادث أو الموضوع العنصر الأول من عناصر العمل المسرحى .

علـــى أن الحوادث لا يمكن أن تقوم مجردة ، لأنها مظهر مـــن مظاهـــر النشـــاط الإنســـانى ، وهى نتيجة لسلوك الإنسان وعلاقاتـــه مـــع بيئـــته ومجتمعه ، ولهذا فلا بد من أن تكون فى المســـرحية شخصيات ، على أن لقاء هذه الشخصيات ومعايشتها للحـــدث المسرحى قد ينتج عنه صراع ما ، وهذا الصراع يضفى على الشخصيات وجودا مسرحيا .

وعلى هذا فعناصر العمل المسرحى هى :

١ – الحادث (القصة أو الموضوع) .

٢ – الشخصيـــــة .

٣ – الصـــــراع .

وعلـــى المؤلـــف المسرحى أن يختار الأحداث التى يراها مادة صالحة للعمل المسرحى ، والأحداث المختارة هى التى تثير اهـــتمام المشاهد ، بما تنقل إليه من المعانى والأفكار ، وغير ذلك مما يود الكاتب أن يعرضه فى ذلك الإطار الفنى .

ولـــيس من الضرورى أن يكون الحدث المسرحى من بين الأحـــداث الهامة الكبرى التى تشغل الناس ، فكثيرا من الأحداث الصـــغيرة التى لا تشغل بال الناس ، ولا يعيرونها أدنى اهتمام قد

يعرضها الفنان المسرحى عرضا جديدا ، ويحملها دلالات خاصة تمس حياة الناس ، وتجعلها ذات شأن كبير فى أنظارهم .

والشخصيات التى تشتمل عليها المسرحية هى التى تحدث وقائع المسرحية ، أو تحدث لها بعض وقائعها ، إذ ليس هناك أحداث مجردة عن الشخصيات .. ومن هنا ينبغى أن ندرك أن الشخصية المسرحية هى أهم عناصر المسرحية ، وهى أقدر هذه العناصر على إثارة اهتمام المشاهد ، ولذلك نرى بعض المؤلفين لا يهتمون بالوقائع والأحداث بقدر ما يهتمون ببواعثها ونتائجها النفسية ، وما تحدث من صراع بين الشخصيات .

وكثيرا ما تكون غاية المؤلف من سوق الأحداث والوقائع هو تصوير بعض الشخصيات الإنسانية فى مواقف تبرز سماتها النفسية وعلاقاتها الإنسانية ، وتقيم بينها وبين غيرها من الشخصيات صراعا يمثل بعض القيم الإنسانية الخاصة .

وهناك شخصية تدور حولها معظم الأحداث ، وهذه الشخصية تؤثر فى الأحداث وتتأثر بها أكثر من غيرها من شخصيات المسرحية ، بل إن معظم الشخصيات تستمد وجودها من صلتها بهذه الشخصية ومن طبيعة تلك الصلة ، وهذه الشخصية هى شخصية " البطل المسرحى " وهو المحرك الأول

لأحـــداث المســـرحية ، وهو الذى يتمثل فى سلوكه وفى مصيره موضوع المسرحية الرئيسى .

أما الحوار فإنه بمثابة تواصل بين شخصيات المسرحية ، لـــذلك ينبغى أن يتسم بالحيوية ، وأن يكون ذا قدرة على الإيحاء بمـــا يدور فى نفس الشخصية وفكرها أكثر من الحديث العادى ، كما ينبغى أن يتجاوب الحوار مع طبيعة الموقف والشخصية .

البنـــاء الفنى للمســـرحية

لاشـــك أن البـــناء المسرحى ينمو ، والمواقف تتشكل من خلال تفاعل الأحداث والشخصيات ، ولا شك كذلك أن الحوار هو وسيلة هذا التفاعل . والمقصود بالبناء الفنى حينئذ هو التحام تلك العناصر السالفة الذكر فى عمل فنى متكامل يبدأ بعرض للأحداث والشخصيات عرضا عاما ، ثم تتطور هذه وتلك إلى أن تصل إلى الغاية التى يراها المؤلف الخاتمة المناسبة لبناء مسرحيته .

وعلـــى هذا فلا يكفى أن تكون المسرحية ذات موضوع ، وأن يـــوجد فيها أشخاص ، وأن يتحدث هؤلاء الأشخاص بعضهم إلـــى بعض ، وأن يوجد صراع بين هذه الشخصيات .. كلا فلكى يـــتم للمسرحية وضعها الفنى الحقيقى لابد من جودة الموضوع ،

وارتباط الحوادث ، وسلامة اللغة ، وحيوية الصراع والحوار والحركة .

أما لغة المسرحية فليس شرطا لسلامتها أن تكون باللغة العربية الفصيحة . يقول الأستاذ توفيق الحكيم :

" إن كل قيد يقف أمام الفنان ويحول بينه وبين حرية التعبير وصحة الأداء يجب أن يحطمه دون أن يحفل بشيء أو أحد ، فإذا شعر فنان بأن تعبيره لن يكون كاملا ونابضا ولا حيا ، وأن أداءه لن يكون سليما ولا كاملا إلا باستعمال أسلوب من الأساليب ، فإنه يتحتم عليه أن يستخدم هذا الأسلوب ، أما فى المسرح فالأمر أكثر وجوبا على المؤلف ، فالقراءة قد تجعل من السهل على القارئ أن يترجم لنفسه بنفسه لغة الأبطال ، ولكن المسرح لا يتيح للمشاهد فرصة التأمل بل هو يتلقى كلام الأبطال مباشرة من أفواههم ، فكل تنافر بين مظهر الأبطال على المسرح واللغة التى ينطقونها يحدث فى الحال شعورا باختلاف الصورة الفنية فى الذهن . لذلك كانت الروايات المترجمة التى تمثل أشخاصا أجانب فى الزمان ، لا بأس جعل لغتها لغة فصحى أو شعرية لاعلاقة لها بالواقع الذى يعيشه المشاهد ، أما إذا شعر المشاهد أن الأشخاص يتفقون معه فى الزمان والمكان فلا بد حتما

عـــندئذ مـــن أن يتكلموا اللغة التى تفرضها عليهم حياتهم الحقيقية الواقعية فى الزمان والمكان " [١] .

هيـــكل المســـرحية

لاشك أن المسرحية الممتازة لها هيكلها الأساسى وإن أخذ ســـمات وصـــورا مـــتعددة ، وهـــذا هو الهيكل الأساسى لكل فن مسرحى ، ولهذا الهيكل صفات عامة تتحقق فى كل مسرحية جيدة

ويتكون هيكل المسرحية من ثلاثة أجزاء : [٢]

١ – العـــرض : ومهمـــته شد انتباه المشاهد ، والحرص على ألا يفتـــر شـــعوره نحو متابعة الأحداث وسلوك الشخصيات وتطور مصـــائرهم ، وذلـــك بواسطة موضوع المسرحية وبالشخصيات المهمـــة فيها ، فبهذه وتلك يثير المؤلف عند المشاهد شوقا لمتابعة الأحـــداث ، ويجعلـــه يهتم بالشخصيات ، ويندمج مع المواقف ، ويتطلع بشوق وانتظار إلى الحوادث المقبلة .

---

(١) مجلة الثقافة – العدد ٧٣٢ سنة ١٩٥٢ م ص ٧ ، عن الأدب وفنونه ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) اعتمدنا فى هذه الدراسة على كتاب:المسرحية ، للدسوقى ص ٣٨١ وما بعدها .

٢ – التعقـيد : وهو يعنى موضوع القصة ، والطريقة التى تسير فيها المسرحية وتتابع الأحداث ، وليس التعقيد مجرد جمع حوادث ، بـل سلسـلة لها صفة خاصة تشترك فيها كل الجزئيات ، ولا تسـير هـذه السلسلة وقتا معينا ثم تقف ، ولكنها تتشكل إلى أزمة يظهر لديها المغزى كله وتنتهى بحل " (١) .

والصراع ذو أهمية بالغة فى المسرحية ، وهو أنواع كثيرة ، وخيـره فـى كتابة المسرحية ذلك الصراع الصاعد الذى ينمو ويتطور ويشتد حتى تتأزم الأحداث وتصل إلى نهايتها ، ويتوقف نجـاح مسـرحية الصراع على قوة الشخصية وحالتها من حيث أبعادهـا الثلاثة : الجسمانية ، والاجتماعية ، والنفسية . ويتكون الصـراع فـى الظاهـر من قوتين متعارضتين ، بيد أن كلا من هاتين القوتين نجمت عن ظروف معقدة متشابكة فى تسلسل زمنى متتابع ، بحيث يجعل التوتر بالغا الغاية من الرعب والشدة ، حتى لا يكون ثمة بد من أن ينتهى بالانفجار " (٢) .

---

(١) المسرحية ، للدسوقى ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢) المسرحية ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

الفصل السادس

فن التراجم

الأهمية والنشأة

التراجم لون من ألوان التاريخ ، بل إن شئت فقل إنها لتبدو أثبت صور التعبير التاريخى ، وقد استقر فى أذهان كثير من الناس أن التراجم والسير مرادفة تماما للتاريخ ، ولاشك أن التراجم قد أسهمت إسهاما واضحا فى كتابة التاريخ العربى والإسلامى ، وأنها استطاعت أن تظفر بمرور الزمن بمكانة رفيعة شأنها شأن ألوان الكتابة النثرية الأخرى .

وفن التراجم فن حديث العهد فى الدراسات الأدبية ، وهو فن لا يقل فى أهميته عن بقية الفنون النثرية الأخرى كالقصة والمسرحية وغيرهما ، وإن كانت مثل هذه الأنواع هى الذائعة منذ قديم الزمان وعلى مر العصور .

وقد دخل هذا الفن أدبنا العربى بعد أن حدث اتصال بيننا وبين الأدب الأوربى ، وبدأت تظهر عندنا الكتابة النثرية ، وأخذ هذا الفن يزداد أهمية فى عصرنا الحاضر ، وعنى به كثير من كتاب العربية ، وأصبح من الأعمال الأدبية المهمة أن يترجم

كاتب لشخصية ما ويأخذ فى إبراز أوجه نشاطها ويبين ما لها وما عليها .

وفى عصرنا الحاضر يعد الكاتب العملاق " عباس محمود العقـــاد " هـــو أول كاتـــب عربى ترجم لشخصيات سابقة ترجمة ظهـــرت فـــيها عبقريته ومقدرته وذكاؤه ، كما يعد الدكتور / طه حســـين أول كاتب عربى يبرع فى الترجمة الشخصية ، وخير ما يمـــثل ذلك العبقريات عند العقاد ، وكتاب " الأيام " عند الدكتور/ طه حسين .

وتـــرجمة الحـــياة هى الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته والكشف عن عناصر العظمة فيها .. وهى تتسع لتشمل جوانب العظمة وجوانب الانحطاط إن وجدت فى الشخصية المترجم لها .

فالتـــرجمة فى الواقع عملية تحليلية لكل مركز من عناصر كثيرة مختلفة هى فى مجملها الشخصية ، ومن خلال هذا التحليل تبـــرز القـــيم الإنسانية التى تنطوى عليها الشخصية ، والتى يهم الآخرين الاطلاع عليها [١] .

وهـــذا الفن بهذا التعريف وبهذه الكيفية قديم كان قد ظهر عـــند العرب ، فكثيرا ما كان يكتب الأدباء والعلماء والمؤرخون عـــن أنفسهم ، ومن يراجع كتابات " الجاحظ وأبو حيان التوحيدى والمقدسى " يمكنه أن يستشف جوانب حياتهم ومعالمها وذكرياتهم ورحلاتهم ، وغير ذلك مما يتصل بالحياة .

ومـــع مـــا هـــنالك من تشابه بين هذا الفن فى القديم وفى العصـــر الحـــديث فإن هناك لا محالة اختلافا فى طريقة التناول الفنى ، وهذا الاختلاف إنما يكون بمقدار ما بين كل عصر وآخر مـــن اخـــتلاف وتـــباين ، فلئن كان القدماء يقتصرون فى تناولهم للتـــرجمة على ما هو ذائع مشهور للمترجم عنه ، كتاريخ ميلاده وتـــاريخ وفاته ، والمواقف المشهورة التى مر بها ، كل ذلك فى لقطـــات ســـريعة لا تكاد تصور الشخص المترجم له ولا تصور حـــياته ـــ فإن الأدب الحديث يتطلب من الترجمة للحياة أن تكون عملا أدبيـــا بكل ما للعمل الأدبى من مقومات وعناصر وإطار فنى .

ومن ثم صارت ترجمة الحياة فنا مستقلا قائما بذاته ، ولم تعـــد تقتصـــر على الترجمة التى كانت شائعة فى القديم ، والتى كانـــت تقتصر على التأريخ لحياة المترجم له دون تفهم لشخصيته أو تحليل للعلاقات الكثيرة التى تربط بين الحياة وبينه .

وفـــى ضوء هذا ينبغى أن يتفهم كتّاب الترجمة الشخصية موضـــوع الترجمة والعلاقات التى تربطها بالآخرين ، كما ينبغى أن يتصـــوروا العلاقـــات الكثيـــرة التى بينها وبين الحياة ، وأن يســـتبطنوا التصـــرفات التـــى تصدر من الشخصية فى المواقف المخـــتلفة ، وعلى الجملة ينبغى ألا يغفل كتّاب الترجمة أى جانب من جوانب الشخصية المترجم لها .

يقـــول الدكـــتور / عـــز الدين إسماعيل (١) : " ولكى نفهم عملـــية التحلـــيل التى تتم فى ترجمة الحياة ينبغى أن نفهم معنى الشخصـــية ، وكـــتب علم النفس تمدنا بكثير من المعرفة الخاصة بالشخصية ، ولكننا ـــ دون الدخول فى تفصيلات الدراسة النفسية ـــ نستطيع أن نقرر أن الشخصية " مجموعة من المجاملات " فأنا مـــع أصـــدقائى غيرى مع أقاربى ، وأنا مع تلاميذى غيرى مع أســـاتذتى ، وأنـــا مـــع جارى غيرى مع الشخص الغريب ، ومع المصـــرى غيـــرى مـــع الأجنبى ، وهلم . ففى كل حالة من هذه يظهـــر جانب خاص من شخصيتى يكون هو الغالب على الموقف ، وهو يظهر نتيجة لوجودى مع شخص معين ، فوجودى مع ذلك الشخص حدد لى مجالا معينا للتفاعل والتفاهم والسلوك بعامة .

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٦ ، ٢٧٧ .

فحــين يزورنـــى أقاربى من الريف يظهر من شخصيتى الجانــب الذى يستطيع أن يتفاعل معهم ، أو الجانب الذى يستطيع أن يــدخل فى مجالهم ، وهذا الجانب يختفى تماما حينما يجمعنى بشخص أجنبى مكان ، وعندئذ يظهر جانب آخر أو مجال آخر أو مجال آخر ، وهكذا فمن دراسة " العلاقات " التى تجمع الشخص بآخــرين ، وكذلك التى تتمثل فى تصرفات الشخص الخاصة فى المواقف المختلفة أستطيع أن أحدد مجموع المجاملات التى تتكون مــنها الشخصــية . ولســنا نستطيع أن نتصور الشخصية بغير مجــاملات ، فمن يكون الشخص بغير العلاقات الكثيرة التى بينه وبين الحياة ؟ !

وإذا عــرفنا أن الكاتب ــ حين يقوم بالترجمة لشخصية ما ــــ إنما يريد أن يبث فينا نموذجا حيا لشخصية مهمة ، وأن يثير فينا الاهتمام بحياة هذه الشخصية وما يربطها بالحياة .. إذا عرفنا ذلــك فإنــنا لا بد وأن نعرف أن كاتب الترجمة لا بد وأن يكون موضــوعيا ودقــيقا ، وأن يحرص كل الحرص على أن يركب صــورة لحــياة هذا الشخص بطريقة تجعل منها إلى جانب ذلك عملا أدبيا بكل ما للعمل الأدبى من أسس ومقومات .

وعلــيه ــ أى الكاتــب ــ حينئذ أن يتفادى حشد الحقائق التاريخية ، وألا يهتم بوقائع التاريخ فحسب ، وإنما عليه أن يجمع

بين مهمة المؤرخ وحس الفنان ، فيربط حياة الشخصية بالأزمان التـــى عاشتها و بالأماكن التى درجت على أرضها ، ثم لا ينسى الإطار الفنى الذى تصاغ فيه وتنسق تلك الحقائق وهذه الأحداث .

فترجمة الحياة عملية فنية تجمع بين عمل المؤرخ من جهة ارتـــباطها بسيرة إنسان عاشق فى بيئة بعينها وزمن بعينه ، وبين عمـــل المصـــور الفنان الذى يتخصص فى رسم الصور النصفية للأشخاص [١] .

ومع ما بين عمل المؤرخ وعمل كاتب الترجمة من توافق وتشـــابه فـــى أن كـــلا مـــنهما يعنى أشد العناية بجمع المصادر والأحبار والوثائق التى تتصل بشخص ما هو موضوع تناولها ... مع هذا يمكننا أن نقول إن المؤرخ يهتم بكل هذه الحقائق لذاتها ، أمـــا كاتـــب التـــرجمة فإنـــه لا يهـــتم بها إلا بقدر ما بينها وبين الشخصية المترجم لها من تأثير وتأثر .

وعلـــى هـــذا فهنا سؤال يطرح نفسه ولا محيد من الإجابة علـــيه وهـــو : هل ينبغى أن يكتفى كاتب الترجمة بحياة الشخص الـــذى يترجم له ، أم ينبغى له أن يضع حياة هذا الشخص ضمن ظروف العصر الذى عاش فيه وداخل إطار من تفصيلاته ؟ .

---

(١) الأدب وفنونه ص٢٧٧ .

ونحـــن نوافـــق ما قاله الدكتور / عز الدين إسماعيل فى إجابـــته علــــى مثل هذا السؤال حيث يقول : " والجواب عن هذا الســـؤال تحـــدده طبيعة الإنسان نفسه الذى نترجم له ، فإذا كانت حقيقـــته الـــبارزة ماثلة فى تطور " حياته الداخلية " وكان قد آثر لنفســـه العـــزلة فلم ينتم إلى مدرسة فكرية أو أدبية أو إلى تنظيم سياسى ، فعند ذلك يكون من العبث الصراح صرف اهتمام كبير إلـــى تفصيلات الحياة فى العصر الذى عاش فيه . أما إذا كان قد خضـــع لـــبعض المؤثرات فى هذا العصر فإن الضرورة تقضى بالتعرض لتلك المؤثرات ـــ وتلك المؤثرات وحدها ـــ التى عملت على تشكيل شخصيته [١] .

وعلـــى هـــذا فنحن نرى أنه لا بد لكاتب الترجمة من أن يرسم الشخصية المترجم لها رسما يصور ملامحها ووقائع حياتها مـــن وقـــت ميلادها إلى وقت وفاتها ، يضاف إلى ذلك الاستعانة بظروف العصر وأحداثه التى كانت ترتبط بالشخصية المترجم لها والتـــى أثرت فيها أو تأثرت بها ، وهناك لكتاب العربية ترجمات من هذا القبيل وتلقى كل القبول والعناية من القراء .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٩ .

أمـــا أن يخاصم كاتب الترجمة العصر ويحصر نفسه فى نطـــاق الشخصـــية التى يقوم بالترجمة لها ، أو أن ينصرف إلى أحـــداث العصر بكل مستوياتها فهذا ما لا نرضى به ولا نقبله ولا يقـــبله الذوق الأدبى ، لأن الشخصية التى قام الكاتب بالترجمة لها ليســـت ملاكا يعيش فى السماء ، إنما هى تعيش بيننا فى مجتمع وفـــى أمة ، وليس يعقل أن يعصب هذا المجتمع بكل أفراده أعينه عـــن أحـــداث العصر ، بل إننا ليمكننا أن نقف من خلال كتابات الكتّاب على ذوق العصر وميوله وعاداته وتقاليده .

أنواع الترجمـــــة

يتصـــور بعـــض الـــناس أن مهمة الترجمة تقف عند حد تصـــوير حياة أشخاص سابقين ، وقد فاتهم أن كاتب الترجمة ــ كمـــا قـــد يترجم لشخصية سابقة ــ قد يترجم لحياته هو ، ويأخذ يصـــور شخصيته ، وقد يجيد فى ذلك كله إجادة تخلق تعاطفا بين القارئ وبين شخصية الكاتب التى ترجم لها ، وهو بهذا يكون قد وصـــل إلـــى الهـــدف الأسمى من ترجمة الحياة ، حيث أثار فى القارئـــين الاهتمام بحياته وبالأحداث والمواقف التى كان لها تأثير مباشر أو غير مباشر فى حياته .

وهنا يحق لنا أن نقول إن أصدق ترجمة قد يقوم الشخص بكتابتها هى ترجمته لنفسه ولحياته ، لأن بعض الأشخاص قد يكون لديهم علم بحقائق وأسرار ذات أهمية فى عملية الترجمة ، وهذه الحقائق وتلك الأسرار ستموت حتما بموت هؤلاء الأشخاص ، لأننا لا نضمن أن يترك هؤلاء مثل هذه الحقائق وتلك الأسرار ، بل إن شئت فقل إن هناك اتجاهات معينة هى من عمل الأشخاص أنفسهم ، وهذه الاتجاهات لا تفهم إلا على ضوء صفات هؤلاء الأشخاص وخبراتهم ، وهناك مبررات عديدة للكتابة عن هؤلاء الأشخاص إذا تناولت أيادى غير أياديهم تلك الوثائق وهذه الأسرار سواء فى حياتهم أو بعد وفاتهم .

ومن الأفضل أيضا أن يترجم الشخص لنفسه ولحياته ، وهذا اللون هو أوثق ألوان الترجمة وعى وجه الخصوص إذا تحلى الشخص المترجم لنفسه بالصدق والأمانة وتحرر من هواه ، لأن الكاتب حينئذ يكون أعرف الناس بالمترجَم له ، ويكون أقدرهم على تحليل جوانب الشخصية وما طرأ عليها من تأثير أو تأثر فى حياتها ، وغير ذلك من العوامل التى عملت

على تكوين تلك الشخصية . ونحن بذلك نكون قد خالفنا الدكتور / عز الدين إسماعيل فيما ذهب إليه [١] .

وعلى هذا فالترجمة للحياة نوعان :

النوع الأول : هو الكتابة عن الأعلام والشخصيات السابقة .

والنوع الثانى : هو ترجمة الحياة الشخصية .

وهنا نقطة لابد أن نشير إليها وهى أنه إذا قدر لشخصية ما أن يعنـــى بهـــا الكتاب سواء فى حياة صاحبها أو بعد مماته فإن العـــناية بها والترجمة لها ليست لتحول بين كتاب آخرين يريدون إعـــادة الترجمة لهذه الشخصية ، وهناك مبررات عديدة تجعل بل تحـــتم ألا تكون مثل هذه الترجمة الأولى غير نهائية ، فقد تظهر وثائق جديدة ذات صلة بالشخصية المترجَم لها ، هذا إذا أضفنا أن منظور الكتّاب قد يختلف فى الشخصية الواحدة .

وتـــرجمة الحـــياة أمر ضرورى فى الحياة الأدبية ، فهى تكشف لنا عن التيارات الفكرية والثقافية لأديب ما ، ثم إنها تمكننا مـــن أن نلتقط أصداء أديب من الأدباء فى أدب أديب آخر ، وأن نكشـــف الاتجاه السائد فى أدب أديب بعينه ، والتأثيرات التى وقع

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ٢٨٥ ــ ٢٨٧ .

تحـــتها ، والتى صبغت فنه بصبغة معينة .. كل هذه وتلك توفرها لنا الترجمة للحياة .

ولمـــا كـــان لترجمة الحياة كل تلك الأهمية كان طبيعيا ألا يتصدى أى أحد لكتابة الترجمة ، وكان لزاما على كاتب الترجمة أن يســـتعين بمجمـــوعة من الأدوات أو المصادر التى تعينه على المضـــى فـــى كتابته ، لأن كتابة الترجمة فن كغيرها من الفنون النثـــرية تحـــتاج إلـــى مصادر مساعدة كثيرة تساعد على كتابة الترجمة .

وهـــذه هى المصادر التى يلزم توافرها ، ويتحتم الرجوع إليها لمن يتصدى لكتابة ترجمة حياة [١] :

١ـــ وأول هذه المصادر هى الكتب والمراجع العامة التى سبق تأليفها فى الموضوع أو فى موضوع متصل به ، فهذه الكتب تقوم بـــدور طـــيب فـــى خدمـــة الترجمة ، وليس معنى ذلك أن نغفل الاسترساد بآراء المتخصصين والاستعانة بهم .

٢ـــ الوثائـــق الأصـــلية ، كالخطابات أو اليوميات أو السجلات الرسمية .

٣ ـــ ذكريات المعاصرين .

---

(١) اعتمدنا فيها على المصدر السابق ص ٢٨٢ .

٤ ــ مقتنيات الشهود الأحياء ، وذلك عندما لا تكون الفترة موضوع الدراسة بعيدة .

٥ ــ ذكريات المؤلف نفسه إذا كانت له معرفة شخصية ببطله .

٦ ــ وأخيرا ينبغى على الكاتب أن يزور ــ قدر المستطاع ــ الأماكن التى يجد نفسه مضطرا لوصفها .

الفصل السابع

فن التعريف بالكتب

النشـــأة والتطـــور

فـــن التعـــريف بالكتب من الفنون النثرية التى ظهرت فى العصر الحديث ، ولا ريب أن المجلات الثقافية والأدبية قد لعبت دورا أساســيا فى نمو هذا الفن وازدهاره ، فلقد عنى به كتابها ، وأوقفـــوا صـــفحات كاملة منها للتعريف ببعض الكتب ذات القيمة الكبيرة ، سواء أكانت من كتب التراث العربى القديم أو من كتب العصر الحديث .

ونســتطيع أن نقول إن هذا الفن قد تضافرت على ولادته إلـــى عـــالم الحياة والحركة عوامل أخرى غير المجلات الثقافية والأدبية .

ففـــى هـــذا العصر وتحت تأثير عوامل عديدة مختلفة من صحافة وإذاعة وطباعة وتعليم وترجمة ولد هذا الفن ، وأخذ ينمو ويترعـــرع ، ثـــم انطلق ليصير واحدا من فنون النثر فى العصر الحديث .

وحـــين بـــدت تباشـــير هـــذا الفن كنا نراها فى صفحات المجلات والصحف ، فكثيرا ما كانت تعرض للتعريف بكتاب من

عـــيون التـــراث العربى ، أو لكتاب من العصر الحديث من تلك الكتب التى تنتظم كثيرا من المعارف المختلفة فى فنونها المتنوعة والمتسعة .

ولو حاولنا أن نستعرض الإطار الذى كان يتبعه الكاتب فى تعـــريفه للكتب لوجدناه لا يتجاوز ذكر نبذة مختصرة عن مؤلف الكـــتاب ، ونشأته ، وثقافته ، والاتجاه الأدبى الغالب عليه والذى صــــار ينتمى إليه إن كان له اتجاه أدبى ، ثم يخلص من ذلك كله إلـــى التعريف بالكتاب وبموضوعه ، ونراه يركز على نقطة غاية فـــى الأهمية وهى المنهج الذى اتبعه المؤلف فى كتابه ، وطريقته فى عرض أفكاره ومعانيه ، ثم ينتهى من ذلك كله إلى بيان أهمية الكتاب وما له من أثر فى الحياة الثقافية بصفة عامة .

تلـــك هى الأفكار الرئيسة التى كانت تلح على أولئك الذين يتصـــدون للتعـــريف بالكـــتب ، على أن كثيرا منهم كان يعمد ــ وبخاصــــة إذا اتســـع المقام ــ إلى تشفيع هذه الأفكار وتعضيدها ببعض النماذج والمختارات من الكتاب المذكور حتى يكون كلامه دراســـة تطبيقـــية . ومـــثل هذا الأمر قد لا نلحظه بكثرة إلا عند أولـــئك الـــذين يعرّفون بالكتاب بقصد إظهار ما احتوى عليه من نقص ومساوئ وما فاته من ميزات أو استدلالات .

والحقيقة أن المكتبة العربية فى عصرنا الحاضر قد ضمت كتبا لهذا الفن ، واهتم كثير من الكتاب والدارسين بالكتاب فى قديم الأزمنة وحديثها ، فتحدثوا عنه ، وعرفوا به ، بل إن بعض الكتاب قد جعل هذا كله فى كتب من كتبه كما هو الحال مع الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتبه : " مطالعات فى الكتب والحياة " و " ساعات بين الكتب " و " بين الكتب والناس " .

بل إن بعض المجلات قد تخصصت فى الحديث عن الكتب والتعريف بها ، وهناك من المجلات مجلات تتخطى الحدود الجغرافية لوطننا العربى ، وتعكف على دراسة كتب أجنبية تتصل بأمم أخرى إما بلغتها أو بعد ترجمتها .

وهناك وسائل علمية تعد تتويجا لهذا الفن ، لأنها تعرف بكتاب من الكتب التراثية ، وتعمل على دراسته وتحليله على ضوء المنهجية العلمية فى التأليف ، وتكشف عن مؤلفه ، لتعرف الناس بما قدمه للمكتبة العربية من نتاج يضارع مثيله فى البلاد الأخرى أو يفوقه ، ثم تستعرض التيارات التى تتنازع هذا المؤلف والمصادر والينابيع التى يستقى منها ، وطريقة الصياغة التى تطغى عليه .

ويبقى علينا أن نتعرف على بعض الكتب الأدبية من حيث : مؤلفها وأثرها فى الأدب والأدباء ، وما إلى ذلك من أمور .

كتاب " الأغانى " لأبى الفرج الأصفهانى

كتاب الأغانى من أجل المؤلفات نفعا وأكثرها فائدة ، وهو أشـــهر من أن يعرف ، والحقيقة أنه لم ينل كتاب غيره ما نال من الشـــهرة والذيـــوع . ولم لا يكون كذلك وقد حفظ لنا معالم حياتنا الأدبـــية فى عصورها الأولى ، وهو لا يعتبر أهم مرجع للتاريخ الأدبـــى إلـــى القرن الثالث الهجرى فحسب ، بل يعتبر كذلك أهم مصـــدر لـــتـــاريخ الحضــــارة الإســـلامـــية للدولتين الأموية والعباسية [١] .

أبو الفرج الأصفهانى

هـــو على بن الحسين بن محمد بن أحمد ، ويمتد نسبه إلى عـــبد شمس بن عبد مناف القرشى ، وقيل إنه ولد بأصبهان سنة أربـــع وثمانـــين ومائتـــين فى خلافة المعتضد ، وتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة [٢] .

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى وكتابه الأغانى ، محمد عبد الجواد الأصمعى ص ١٠٩ . دار المعارف ، الطعة الثانية .

(٢) انظر : السابق ص ١٠٥ ـــ ١٥٤ .

نشـــأ الأصفهانى وتربى فى بغداد [١] كعبة العلم والعلماء ، ومنـــتدى الأدب والأدباء ، وقد قضى معظم شبابه وشيخوخته فى القرن الرابع الهجرى أخصب العصور الأدبية ، حيث اتسع مجال اللغة ، وحلق الشعر فى كل مجال ، واتسع مجال النقد والتأليف .

ومـــن يتصفح الأغانى يلاحظ أن لقب " الأصفهانى " ليس لقـــبا لأبـــى الفـــرج وحده ، وإنما هو لقب اشتهر به كل من أبيه وعمه وابن عمه وجده [٢] ، مما يؤكد أنه قد ورث هذا اللقب عن الأسرة ، وليس ذلك نسبة " لأصبهان " التى قيل إنه ولد بها .

أكـــب أبو الفرج على الدرس ، وعكف على قراءة الكتب فى العلوم والأدب حتى صار زعيما للحياة الأدبية فى بغداد . ولا عجـــب فقد تتلمذ على طائفة جليلة من العلماء والأدباء ، واستفاد من معارفهم وعلومهم ، وأصبح ذا دراية تامة بها .

ومـــن أوســـع هـــؤلاء الأســـاتذة علما وأشهرهم ذكرا فى المحافل الأدبية : " أبو بكر بن دريد " و " أبو بكر بن الأنبارى " و " الفضل بن الحباب الجمحى " و " على بن سليمان الأخفش " و " محمد بن جرير الطبرى " و " جعفر بن قدامة " و " إبراهيم بن

---

(١) الأعلام ، الزركلى : ٥ / ٨٩ . الطبعة الثانية .

(٢) الأغانى : ٦ / ١٥١ ، و ٨ / ٣٦ ، و ١٥ / ١٠٢ . طبعة ساس .

نفطـــويه " و " أحمد بن جعفر " وغيرهم ممن نالوا شهرة واسعة وصيتا ذائعا .

كمــا تــتلمذ على يديه كثير من أئمة الأدب واللغة ورواة الأخـــبار وعلمـــاء الحديث ، ومنهم " الدارقطنى " و " أبو زكريا الأندلسى " و " إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبرى ، و " على بن أحمد الرزاز " فهو بهذا أستاذ لكثير من قادة الفكر ، يضاف إلى ذلـــك أنـــه كان على صلة بالخلفاء ، وكانت صلته بهم قائمة على تأليف الكتب ونيل الجوائز (١) .

وقد ترجم له كثير من علماء اللغة والأدب والتاريخ ومنهم : " ياقوت الحموى " فى كتابه " معجم الأدباء " و" ابن النديم " فى كتابه " الفهرست " و " ابن خلكان " فى كتابه " وفيات الأعيان " و " ابـــن شـــاكر " فـــى كـــتابه " عيون التواريخ " و " أبو منصور الثعالبى " فى كتابه " يتيمة الدهر " و " القفطى " فى كتابه " أنباء الرواة " و " بروكلمان " فى كتابه " تاريخ الأدب العربى " .

وقـــد نـــبه بعض من ترجموا له إلى مصنفاته ، وحصروا مـــنها عـــددا كبيرا ، والعجيب أنها ضاعت جميعها ولم يبق منها سوى كتابيه : " الأغانى " و " مقاتل الطالبيين " ، وكتاب الأغانى

---

(١) راجع : نفح الطيب ، المقرى : ٣ / ٢٤٠ . الحلبى .

وحـــده يكفى لأن نستشف من صفحاته اتجاه الأصفهانى الشعرى ومذهبه الفنى .

كتـــاب الأغــــانى

ولعــل الــباعث على تأليف أبى الفرج لكتابه " الأغانى " باعـــث علمى ، إنه رد على ما شاع فى عصر المؤلف من آثار مــنحولة مفــتعلة تنسب إلى مشاهير أصحاب الصناعة الفنية فى الغناء أو غيره من الفنون .

وقــد حــاول أبــو الفرج أن يرد على الشك ، ويشير إلى المغالطـــة ، ويضـــع يد قارئه على المنحول من الأخبار ، وينبه علـــى المســـتحيل ، ويضع علامة استفهام فوق ما لم تسعفه فيه الروايةلإرجائه إلى أصوله الأولى.

والحقيقة أن كتاب الأصفهانى ليس أول كتاب ألف فى هذا الفـــن ، فقـــد ألفت فى الغناء قبله كتب عديدة سميت باسمه ، وقد أحصـــاها ابن النديم فى " الفهرست " وتبعه فى ذلك الأستاذ محمد عـــبد الجـــواد الأصمعى فى كتابه " أبو الفرج الأصفهانى وكتابه الأغانــــى " فقد صنع فهرسا يشتمل على المصادر والمراجع التى كتبت فى الغناء والنغم وأخبار المغنين ، ورتبها ترتيبا هجائيا .

وقـــد أفـــاد أبـــو الفـــرج من الرواية والمرويات ، وتتلمذ لمدرســـة واســـعة مـــن رواة الأخـــبار علـــى اختلاف منازعهم

ومشـــاربهم ، وروى عـــن كـــل إنسان كل فى مجال اختصاصه وعملـــه ، واستفاد كثيرا من مصادر التاريخ والسير وأيام العرب وتـــاريخ الغزوات والحروب ، كما استخدم كتب الأدب ومصادره استخداما مفيدا .

ولهذا عرف الباحثون أهمية كتاب الأغانى ، وعولوا عليه فـــى أبحاثهم ، ووضحت العناية به فى طبعاته المختلفة ، وحاولوا دراســـة كافـــة جوانبه كى يوضع الكتاب فى مكانه اللائق به بين أمهـــات مصـــادرنا الأدبية والنقدية ، مهما اختلفت وجهات النظر حول ما حشده الأصفهانى فيه من آراء وسجله من نظرات .

ولعـــل أوضـــح دليل يثبت أثر هذا الكتاب ما ذكره زعيم أدباء هذا العصر وكبير كتابه العالم الكبير والمفكر القدير الدكتور / طه حسين فى حديثه عن " مطيع بن إياس " يقول :

"ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكما جامعا مختصرا لما تجاوزنـــا حكـــم أبـــى الفرج عليه حيث يقول : " هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول شعراء ، ولكـــنه كان ظريفا خليعا ، حلو العشرة ، مليح النادرة ، ماجنا ، مـــتهما فـــى دينه بالزندقة " . ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم

شيئا لقلنا إنه كان صادقا فى شعره ، آخذا بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها " [١] .

وكـــنت ذات مرة أردد الطرف بين فهارس كتاب الأغانى وأجـــزائه المختلفة التماسا لشاعر مجهول يستأهل البحث ويستحق الدراســـة ، وكلمـــا قلبت صفحات هذا الكتاب ازددت يقينا بقيمته الكبيـــرة فـــى مجال الدراسات الأدبية ، لا لأنه سجل حافل يجمع رصـــيدا وافرا وكبيرا من أشعار العرب وفنون نثرهم فحسب بل لأنـــه سجل صورة كاملة لكافة فنون العرب الأدبية فى عصورها الأولى ، والحقيقة أنه لولا هذا الكتاب لعزعلينا معرفة الكثير عن هذه العصور .

ومن يتصفح أوراق هذا الكتاب يراه زاخرا بالآراء النقدية ذات القـــيمة ، ولهذا أدرك الباحثون قيمته فى مجال النقد الأدبى ، إنـــه من أهم المصادر التى يرجع إليها كل باحث فى مجال النقد الأدبـــى ، ولـــئن شئت فقل إنه من أهم المصادر التى يرجع إليها دارسو النقد العربى وتاريخه ، كما أنه موسوعة كبيرة تضم سجلا وافـــرا من مظاهر النقد الأدبى فى عصور العرب الأولى ، وقد

---

(١) حديث الأربعاء : ٢ / ١٥٩ ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة .

عده الدكتوران " بدوى طبانه " و " محمد زغلول سلام " مصدرا مهما من مصادر النقد [١] .

ومــن يراجع كتاب الأغانى بأجزائه المختلفة يمكنه حصر المصادر التى أفاد منها أبو الفرج وذكرها فى كتابه وهى :

١ــ المصادر التاريخية والأدبية والغنائية .

٢ــ الرسائل المتبادلة والإجازات والمراسلات والوثائق الرمية وما أشبه ذلك .

٣ــ الرواة بكافة ألوانهم .

وقــد يــنقل أبــو الفرج عن مصادر لا يذكر أسماءها ولا أسماء مؤلفيــها ، فكثيــرا ما نقرأ عبارات له فى الكتاب تقول : " وجدت فى بعض الكتب " .

وقــد يتبادر إلى ذهن من لا يقرأ كتاب الأغانى أنه كتاب خــاص بالغــناء والمغنــين ، والحقــيقة تشــير إلى غير ذلك ، فهوموســوعة ضــخمة تضــم الأدب والــنقد والــتاريخ واللغة والموسيقى والأخبار والأنساب وغير ذلك ... وهو إلى جانب هذا وذاك سجل حافل بالمظاهر الأدبية والنقدية عند العرب إلى عصر أبى الفرج .

---

(١) انظر : دراسات فى نقد الأدب العربى ، طبانه ، وتاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى ، سلام .

اجتهادات الأصفهانى فى الأغانى

لقد سجل أبو الفرج فى كتابه مجموعة اجتهادات شخصية كلهـا له وهى فى مجال الأدب والنقد ، وهى تدل من ناحية على ثاقـب فكره وخصوبة ذهنه وواسع علمه فى طرق النقد الأدبى ، كمـا تكشف من ناحية أخرى عن حاسته النقدية وخبرته بمواطن التأثيـر التى تؤثر فى الشعر والشعراء ، هذا وإن كان فى معظم نقـده قد اكتفى بالأحكام العامة دون اللجوء إلى الشرح أو التعليل على نحو ما صنع غيره من النقاد ، ولعل عذره فى ذلك أن هدفه الأول مـن تأليف هذا الكتاب إنما كان منحصرا فى الغناء وليس الشعر ولا الشعراء .

ونـود أن نذكـر هنا نبذة مختارة من جهوده تعكس بعض اجتهاداته فى مجال الذوق الأدبى

١ ــ سـجل الأصفهانى كثيرا من الخصائص الفنية والأدبية لعدد كبيـر ممـن تـرجم لهم ، فهو يعرض لأغراض شعر الشاعر ، وخصائص شعره ، وآراء النقاد فيه ، ومن أمثلة ذلك ما قاله عن الحطيـئة : " وهـو مـن فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ،

متصـــرف فـــى جمـــيع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد فى ذلك أجمع " (١) .

٢ ــ كما يحاول أن يعقد صلة بين الشعراء الذين يقع بعضهم من بعــض موقع الأساتذة من الطلاب ، ويأخذ يرجعهم إلى حلبات أو مدارس ، يصدر عنها كل منهم ، وتظهر خصائصها فى أشعارهم ، كمـــا يحـــرص علـــى بـــيان خصائص كل مدرسة وأساتذتها وتلامذتها .

فحـــين تحدث عن " مسلم بن الوليد " نراه يذكر مكانته فى مدرسة البديع وأثره فيها فيقول : " وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس : البديع واللطيف ، وتـــبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائى ، فإنه جعل شـــعره كلـــه مذهبا واحدا فيه ، ومسلم كان متفننا متصـــرفا فى شـــعره " (٢) .

٣ ــ وهـــو يضـــع كل من ترجم له من الشعراء أو المغنين فى منزلته اللائقة به بين الشعراء أو المغنين ، ويحدد موقعه من خط سير الأدب . يقول عن المغنى الشـــاعر " عمـــرو بن بانة " : " وكـــان مغنـــيا حســـنا ، وشاعرا صالح الشعر ، وصنعته صنعة

(١) الأغانى : ٢ / ٥٧٥ . دار الشعب .

(٢) الأغانى : ٢١ / ٧٢٦٣ .

متوسطة النادر فيها ليس بالكثير ، وكان يقعده عن اللحاق بالمتقدم فـــى الصنعة أنه كان مرتجلا ، والمرتجل من المحدثين لا يلحق الضـــراب ، وعلـــى ذلك فما فيه مطعن ، ولا يقصر جيد صنعته عـــن صـــنعة غيـــره من طبقته وإن كانت قليلة ، وروايته أحسن رواية ، وكتابه فى الأغانى أصل من الأصول " (١) .

٤ ـــ وهـــو يوثـــق النصوص ويهتم كثيرا بنسبتها إلى أصحابها ، وهـــذه هى أولى مراحل النقد المنهجى السليم على نحو ما صنع الآمـــدى حـــين بدأ بتحقيق النصوص الشعرية لكل من أبى تمام والبحتـــرى وصحح نسبتها ، وبين ما فيها من اضطراب أو خطأ فى الأوزان .

٥ ـــ كمـــا أنـــه اهـــتم بتســـجيل آراء النقاد وآراء أصحاب كتب الطبقات ، ويسلك مسلكا متجردا فى نقده للشعر ، فلا يعتد بأخلاق الشـــاعر حين يتعرض لشعره بالنقد ، وإذا استحسن شعره وضعه فى مكانته التى يستحقها دون مراعاة لخلقه .

٦ ـــ والذى لاشك فيه أن قدرا غير قليل من أخبار كتاب الأغانى مبنـــى على الرواية من الرواة ، والقارئ للكتاب يلاحظ العبارات

---

(١) الأغانى : ١٥ / ٥٦٠٠ .

الآتية : " حدثنى ، أخبرنى ، روى " .. إلخ ثم يذكر بعدها أسانيد الأخبار والروايات .

ولـــه اهـــتمام كبير بالسند ، إنه يعده أساسا للرواية ، وإذا حـــدث وخلا الخبر من السند أو نقُص مثلا أشار إلى ذلك . ومن ذلـــك قـــوله : " وأخبرنى محمد بن العباس اليزيدى بإسناد له لم يحضرنى ، وأنا أخرجه إن شاء الله تعالى " [١] .

وفـــى أحـــيان كثيـــرة كـــان يـــراجع المصادر والمراجع والـــدواوين الشعرية وكل ما يساعده على التحقيق والتدقيق رغبة منه فى تحقيق الأشعار وتوثيقها ، وإذا حدث وخالفه التوفيق أنهى ذلك للقارئ [٢] .

٧ ـــ ومـــن يـــراجع الأســـس التى بنى عليها أبو الفرج تحقيقاته للمرويات التى حققها وبين صدقها أو زيفها يشعر أن الرجل كان بإمكانـــه أن يحقق كل أخبار الكتاب ، ولو كان قد قدر له أن يفعل ذلـــك بكل نصوص الكتاب لأسدى دون أدنى شك للأدب والأدباء خدمة وعملا نافعا على مر العصور ، ولكنه آثر أن يكون راوية يـــروى كـــل مـــا يقع تحت يده ، فجاء من ثم كثير مما رواه كما سمعه بدون تعقيب أو تعليل .

---

(١) الأغانى : ٨ / ٢٦٦ . دار الثقافة .

(٢) انظر السابق : ١١ / ٤٠٦٣ . دار الشعب .

وقـــد لحـــظ الأســـتاذ / سيد قطب فى كتابه " النقد الأدبى أصوله ومناهجه " جهود أبى الفرج العظيمة فاستعرض نماذج من " البـــيان والتبيين " للجاحظ ، و " العقد الفريـــد " لابن عبـــد ربه و " الأغانى " للأصفهانى و " الأمالى " لأبى على القالى و " يتيمة الدهر " للثعالبى و " زهر الآداب " للحصرى ، ثم عقب على ذلك كله وأخذ يشيد بصاحب الأغانى فقال :

" بيـــنما نجـــد صاحب الأغانى ينتقل نقلة بعيدة فيدخل فى صميم المنهج التاريخى ، يذكر النص وينسبه لصاحبه بسلسلة من الـــرواية ويذكـــر أخباره ومن يشترك معه فيها .. إلخ وهذا من صميم المنهج التاريخى وأصوله الصحيحة [١] .

٨ ـــ ومـــن يتصفح كتاب الأغانى يجد أن أبا الفرج كان يميل إلى الأحكام العامة غالبا سواء على الشعر أو على الشعراء ، وأحكامه هذه قد تتناول الأبيات أحيانا ، كما قد تتناول القصائد أحيانا أخرى ، ومن أحكاماته العامة قوله عن " هاشميات الكميت " : " وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره " [٢] .

٩ ـــ ومن القضايا الأدبية المهمة التى تناولها الأصفهانى فى كتابه " قضـــية الســـرقات الشـــعرية " فقد ولع بتتبع الشعراء ومعرفة

---

(١) ص ١٦٢ طبعة دار الشروق .

(٢) الأغانى : ١٦ / ٣٢٨ . دار الثقافة بيروت .

مصادر شعرهم ، وقد تعقب أمثال أبى تمام والبحترى وأبى نواس ، ومـــع ذلـــك لم نره يستعمل كلمة السرقة إلا نادرا ، وكثيرا ما يستخدم كلمات " السلخ ، والأخذ ، والاستعارة " .

١٠ ــ وهناك ألوان نقدية أخرى ضمنها الأصفهانى كتابه وليست لـــه ، بـــل هى من روايته عن السابقين ، وهذا اللون فى مجمله أحكـــام عامـــة تكشـــف عن طبيعة الحياة النقدية عند العرب فى عصورها الأولى .

١١ ــ هذا ولم يغفل الكتاب جانب المعانى التى تناولها الشعراء ، فالحـــال أن البيـــئة العـــربية تواضعت على أن لكل غرض من أغـــراض الشعر معانى تليق به ، وعلى هذا فالشاعر المجيد هو الـــذى لا يحيد عن هذا العرف ، وإذا حدث وخالف الشاعر ذلك وقع فى شباك النقد .

وبعد فهذا تعريف بكتاب الأغانى ، وهو تعريف أظنه يبرز لنا أثر هذا الكتاب وقيمته فى مجال الدراسات الأدبية من ناحية ، وفـــى تسجيل فنون العرب الأدبية فى عصورها الأولى من ناحية أخـــرى ، وهـــو لهذا من أجل المؤلفات نفعا وأكثرها فائدة ، وقد أدرك الباحـــثون ذلـــك فأخذوا يعرفون به ويبرزون هذا التعريف كفن نثرى حديث .

" نهاية الأرب " لشهاب الدين النويرى

النويرى هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، وقـد ولـد عـام ٦٧٧ هـ وتوفى عام ٧٣٣ هـ وهذا يعنى أن النويرى عاش فى ظل الدولة المملوكية الأولى فى مصر فى وقت نـبغت فـيه جماعـة من كبارعلماء اللغة والأدب ممن لا تحتاج شهرتهم إلى بيان .

ومـن هؤلاء " ابن الحاجب " صاحب الكافية والمقدمة فى علـم النحو والمتوفى عام ٦٤٦ هـ ، وابن مالك الجيانى صاحب الألفـية المشـهورة فـى النحو والمتوفى عام ٦٧٢ هـ ، وابن مـنظور صـاحب لسان العرب والمتوفى عام ٧١١ هـ ، وأبو حيان النوحيدى المتوفى عام ٧٤٥ هـ ، وابن هشام المتوفى عام ٧٦١ هـ ، وابن عقيل المتوفى عام ٧٦٩ هـ .

ومن كبار المؤرخين فى هذا العصر وممن لا تزال كتبهم بين أيدى الناس " ابن الأثير " صاحب كتاب " الكامل فى التاريخ " و " ابـن الجوزى " صاحب كتاب " المنتظم " ، و " ابن عساكر " صاحب كتاب " تاريخ دمشق " ، و " ابن كثير " صاحب " البداية والـنهاية " ، و " الذهبـى " صاحب " تاريخ الإسلام " ، و " ابن خلدون " صاحب " التاريخ الكبـير " ، و " السـيوطى " صاحب " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " .

ولقد عرف عصر النويرى بأنه عصر الموسوعات العظيمة ، ففى التفسير وعلوم القرآن عرف الزمخشرى المتوفى عام ٥٣٧ هـ ، والشاطبى المتوفى عام ٥٩٠ هـ ، والفخر الرازى المتوفى عام ٦٠٦ هـ وابن كثير صاحب التفسير المشهور المتوفى عام ٧٧٤ هـ .

وفى الحديث الشريف اشتهر جماعة من كبار الحفاظ كان منهم الحافظ ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ ، والحافظ السلفى المتوفى عام ٥٧٦ هـ ، والحافظ المنذرى المتوفى عام ٦٥٦ هـ ، والحافظ الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ ، والحافظ ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ .

ومن اصحاب الطبقات اشتهر ياقوت الحموى صاحب كتاب معجم الأدباء ، وابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان ، وابن شاكر صاحب كتاب فوات الوفيات ، والصفدى صاحب كتاب الوافى بالوفيات .

وقد عاصر النويرى جماعة من كبار سلاطين مصر وخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والتحق النويرى ببعض الوظائف الإدارية فى بلاط هذا السلطان ، ولكنه سرعان ما ترك حياة الوظيفة وأخذ يعكف على القراءة والتأليف فكان

كـــتــــابه " نهايـــة الأرب " نتــيجة من نتائج مطالعاته وثمرة من ثمارها .

والكـــتاب يعــد موســوعة تاريخية وأدبية يجمع معارف تاريخية وأدبية ذات شأن ، وقل أن تتوفر هذه المعارف فى كتاب غير كتاب النويرى مما يعكس قيمة هذا الكتاب ومكانته .

ويشـــتمل الكـــتاب علـــى فنون خمسة يقوم عليها ، ذكرها النويرى فى مقدمة أجزاء الكتاب وهى :

ــــ الفـــن الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية ، ويشتمل هذا الفن على خمسة أقسام ، والكلام فيها يدور حـــول الســـــماء والملائكة والكواكب والسحاب والمطر وما إلى ذلك .

ــ الفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به من تكوين وخلقة ، وما ورد فـــى البشـــر رجالا أونساء ، وما يتبع الإنسان من شئون فى الحـــياة من عادات وتقاليد وسياسة وحكم وأدب وغير ذلك ، وهذه الأمور تتكون من خمسة أقسام كما فعل النويرى .

ــــ الفن الثالث :وهو فى الحيوان الصامت ، ويشتمل على خمسة أقسام كلها تدور حول الحيوان الأنيس والحيوان البرى والأسماك والحشرات بجميع أنواعها .

ـــــ الفن الرابع : وهو فى النبات ويقوم على خمسة أقسام ، وهى تتـــناول الحـــديث عـــن الشـــجر وأنواع النبات والثمار والفاكهة والأزهار ، ثم يعرض لأنواع الطيب وما يستخرج من النبات من عطور وما يتصل بها .

ـــ الفن الخامس : فى التاريخ وهو يشتمل على خمسة أقسام وهذه الأقسام هى أكبر أقسام هذا الكتاب .

وقد ابتدأ التاريخ منذ أول الخليقة حتى عصره وهو القرن الـــثامن الهجرى ، ويتناول تاريخ الأنبياء والرسل ، وتاريخ اليود والمسيحية ، ثم يعرض لتاريخ بعض الأمم غير الإسلامية القديمة كالـــيونان وغيرها ، ثم يتعرض لتاريخ المسلمين فيذكر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وما يتصل بذلك من الوقائع التى لم تذكـــر فى حوادث السنين لتعلقها بالغزوات ، ويذكر أيضا وفادات العـــرب علـــى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتناول بالحديث أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأولاده وأعمامه وعماته وخدمه ومواليه ثم معجزاته وما حدث عند وفاته .

صبح الأعشى للقلقشندى

القلقشــندى

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى ، وقد ترجم لــه الســخاوى فى الجزء الأول من كتابه " الضوء اللامع " فى أعيان القرن التاسع فقال :

" هو أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله ، الشهاب بن الجمال بن أبى اليمن القلقشندى ، ثم القاهرى الشافعى " (١) .

ولــد القلقشــندى عام ٧٥٦ هـ ببلدة يقال لها " قلقشنده " وهــى قــرية من أعمال مديرية القليوبية بمصر ، وهو من أصل عربى صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قيس عيلان ، وكان بنو فــزارة قــد وردوا مصــر مع من وردها من العرب أيام الفتح الإسلامى وبعده ، ونزلوا بإقليم القليوبية ، واستولى بنو بدر منهم على أجل بلاده ، وكانت لهم الرآسة والغلبة على جيرانهم من بنى عمهم بنى مازن بن فزارة ، وكان بقلقشندة فرقتان : فرقة من بنى بدر وفرقة من بنى مازن " (٢) .

---

(١) انظر : صبح الأعشى : ١ / ١٩ (المقدمة) نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٢٠ ، ٢١ .

اطلع القلقشندى على كثير من الكتب والأسفار فى مختلف العلوم والفنون ، وأخذ يطلب العلوم الشرعية على مشاهير العلماء فـــى عصره حتى أجيز بالفتيا ، ففى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة حيـــنما كان مقيما بثغر الإسكندرية أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن الشهير بابن الملقن ــ بالفتيا والتدريس علـــى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، ولم تكن سنه آنذاك تتعدى إحدى وعشرين سنة ، كما أجازه بأن يروى عنه كل ما له مـــن التألـــيف فـــى الفقه والحديث وغيرهما ، وأن يروى كل ما جـــازت لـــه روايته بشرط عند أهله ، كالكتب الصحاح الستة ، ومسند الشافعى ، ومسند أحمد بن حنبل وغير ذلك (١) .

أخذ القلقشندى يشتغل بفنون العربية ، ويطلع على كثير من كتـــبها حتـــى انتهى إلى ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل ، وعند ذاك أنشـــأ مقامـــة فى تقريظ القاضى بدر الدين بن القاضى علاء الـــدين بن القاضى محى الدين بن فضل الله رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ سماها " الكواكب الدرية فى المناقب البدرية " .

---

(١) السابق : ١ / ٢١ .

ومـــن يقرأ هذه المقامة يدرك ما عند القلقشندى من أدوات تعيـــنه على الإنشاء كالمعارف الدينية واللغوية ، ثم يدرك سلامة ذوقه وقوة ذاكرته .

وقـــد بـــناها علـــى التعريف بكتابة الإنشاء وعلو قدرها ، وعظم خطرها ، وأنها الحرفة التى لا يليق بطالب العلم غيرها ، والصناعة التى لا يجوز له العدول عنها إلى ما سواها ، وضمنها كثيـــرا من أصول الصنعة فى الكتابة وفروعها ، لكنها لإيجازها ومع ما اشتملت عليه من كثير من المعانى — احتاجت إلى شرح واف يكشـــف إشاراتها ، ويوضح عباراتها ، فألف كتابه " صبح الأعشى " وجعله كالشرح لها " [١] .

وقد ألف القلقشندى هذا الكتاب أثناء رئاسته لديوان الإنشاء ، وجعلـــه موسوعة تضم رسوم الدولة ونظمها ، كما تحدث عن نظـــم الكـــتابة ، وعـــن رســـوم الكتاب وثقافتهم ، ونظم الدولة ، وعرف بالممالك المعاصرة ، كما تعرض لألقاب العاملين بالدولة من أرباب السيف والقلم .

وقد توفى القلقشندى يوم السبت الموافق العاشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة عن خمس وستين عاما.

---

(١) السابق : ١ / ٢٢ .

كتاب " صبح الأعشـــى "

يعــد كــتاب " صبح الأعشى " من عيون الكتب التراثية ، وهـــو من أهم الموسوعات التاريخية والاجتماعية والأدبية للأمة العربية إلى منتصف القرن التاسع الهجرى ، وهو ينتظم كثيرا من المعارف العامة المختلفة ، فضلا عن ذلك فهو يعد عدّة لكل كاتب فى الإنشاء .

وينقســـــم الكــتاب إلى مقدمة ومجموعة مقالات (عددها عشـــر) وخاتمـــة : وهو يتحدث فى المقالة الأولى عن المعارف التى يحتاج إليها كاتب الإنشاء ، وما يجب أن يتزود به من أدوات تعيـــنه على أمور الكتابة ، كالمعارف اللغوية ، والدينية ، وأحوال الأمم ، ومعرفة المواد اللازمة للمنشئ من خط وتوابعه .

ويتـــناول فى المقالة الثانية معرفة المسالك والممالك (علم تقـــويم البلدان) ونظام الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب منذ ظهـــور الإســـلام ، ومـــا بلغته من درجات المجد والحضارة ، وأقاليمها ، وحدودها ، وما بها من آثار طبيعية ، وما بها من آثار قديمة وغير ذلك .

ويتـــناول فى المقالة الثالثة معرفة الأمور التى تشترك فيها أنـــواع المكاتبات وأصولها ومقاصدها ، ويفصل القول فى رسوم المكاتـــبات وما يناسبها فى المنهج والأسلوب والأدوات ، ثم يبين

مـــذاهب الكِــتاب فـــى افتتاح مكاتباتهم ، وكيفية مخاطبة كل أمة وغير ذلك .

ويبنى المقالات الباقية إجمالا على التعريف برسوم الدولة وألقـــاب الملوك والسلاطين وما يتبع ذلك ، ورجال السيف والقلم وغيـــرهم ، ومســـألة الولايات ومعرفة طبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والعهود ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب .

وبعـــد ذلـــك الوصايا الدينية والمسامحات ، وما يكتب فى الوصايا فى القديم والحديث ، ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها فـــى الشـــرع وأحكامها ، وما يكتب فيها فى القديم والحديث ، ثم معـــرفة الأيمان وأنواعها وتاريخها ، وما يقع به القسم ، وما كان يحلــف به العرب فى الجاهلية ، وما يقسم به أهل كل ملة ونحلة وغيـــر هـــذا وذاك مما يجعل الكتاب دائرة معارف ضخمة فيما يتصـــل بالإنشـــاء وأحـــوال الأمـــم ، والأحكام ـــ، ونظام الدول الإســـلامية مـــنذ ظهور الإسلام ، ونظام الحكم فيها ، والمسالك والممالك وغير ذلك .

وعلى الجملة فالكتاب لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرها ، ولـــم يغـــادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها ، فهو كتاب تاريخ وســـير ، وكتاب لغة وأدب ، وكتاب فقه وتفسير ، وشرح للأمثال

والحكم العربية ، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة .

إنه كتاب ممتع ، ودائرة معارف أدبية كبرى ، يشهد لصاحبه بالفطنة والذكاء وطوع الباع فى هذا الفن الجليل وهو كتابة الإنشاء ، كما يشهد له بقوة التمكن فى اللغة العربية وآدابها ، وأنه رجل ينطلق بما له من كثرة الاطلاع على دقيق اللغة وجليلها [١] .

يتحدث القلقشندى فى خاتمة هذا الكتاب معترفا بنعمة الله عليه فيقول :

" لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفى ، ونفاق سلعته ، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه ، حتى إن قَلَمَى التأليف والنسخ يتسابقان فى ميدان الطِّرْسِ إلى اكتتابه ، ومُرْتَقِب نجازه للاستنساخ يُساهمهما فى ارتقابه ، فضلا من الله ونعمة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) " [٢] .

---

(١) انظر : المقدمة ص ١٨ .

(٢) الكتاب : ١٤ / ٤٠٣ .

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه وبعد :

فهذه هي خاتمة هذه الدراسة وقد تناولت موضوعات رئيسة هي :

١ــ فن الخطابة ، وقد شمل نشأتها ، وتطورها ، وأنواعها والمقومات الفنية لها ، ثم الأعلام ذات الشهرة الخطابية .

٢ــ فن المقالة ، وقد شمل : المفهوم ، والنشأة والتطور ، والأنواع ، والمقومات الفنية .

٣ــ فن القصة ، وقد شمل : دلالتها ، ونشأتها ، وتطورها ، وأنواعها ، والخصائص الفنية ، وعناصر العمل القصصى ، والقصة المتأثرة بالآداب الأوربية الحديثة وغير ذلك .

٤ــ فن الرواية ، واستوعب دلالة هذا الفن ، ونشأته ، وأقسامه ، ووضعه الفنى .

٥ــ فن المسرحية ويشمل : أصولها ، ونشأتها ، وتطور أنواعها وتأثرها بالأدب الأوربى الحديث .

٦ـــــ فــن التراجم ويشمل النشأة والتطور ، وألوان هذا الفن فى العصر الحديث .

٧ـــــ فــن التعــريف بالكتب وفيه بيان عن النشأة والتطور ، ثم تعــريف بكــل مــن : كتاب " الأغانى " وكتاب " نهاية الأرب " وكتاب " صبح الأعشى " .

هــذا وقد كشفنا من خلال هذه الدراسة ما تميز به كل فن من الفنون المذكورة على حدة ، وعللنا لذلك تعليلا منطقيا مستمدا من بيئة كل كاتب وحياته الاجتماعية الخاصة ، ثم التمسنا صدى كــل تأثــر فى كتابات الكتاب ، ومدى محاولة كثير منهم محاكاة الآداب الأوربية .

وحســبنا بهذه الخاتمة أن نوضح صورة عن النثر الأدبى الحــديث ، ومــا تأثر به من عوامل وظروف كانت وليدة أحداث ظهــرت فى العصر الحاضر ، وبهذا تكتمل لهذه الدراسة جوانبها التى حددناها لها من قبل .

ونــرجو الله ســبحانه وتعالــى أن نكون قد وفقنا فيما إليه قصــدنا ، أو قاربــنا الكمال فيه ، والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الأســتاذ الدكتــور
طلعت صبح الســيد

فهرس الموضوعات